
مكتبة
الأدب
العراقي
المعاصر

نبذة عن الكاتبة

دنى غالي

روائية وشاعرة ومترجمة

من مواليد البصرة- العراق. تخرجت من جامعة البصرة- كلية الزراعة. غادرت العراق وتقيم في كوبنهاجن منذ العام 1992.

شاركت في العديد من المؤتمرات والمهرجانات الثقافية العالمية والدنماركية والعربية.

تم استضافتها من قبل العديد من القنوات الدنماركية والعربية.

عضوة في اتحاد الكتاب الدنماركيين ورابطة المترجمين الدنماركيين. تكتب في الصحافة العربية والدنماركية.

حصلت على منحة الدولة لدعم الفن والادب في الدنمارك للتفرع للكتابة ومنح للسفر وللإقامة لانجاز مشاريعها الثقافية.

لها مساهمات عديدة في شؤون الاندماج الاجتماعي وحوار الثقافات.

صدر لها:

"منازل الوحشة"، رواية، 0033 دار التنوير، بيروت، لبنان.

" السأم يتلون"، مجموعة قصصية، 0009 عن دار طوى، لندن.

" حديقة بعطر رجل"، مجموعة شعرية، 0008، عن المجلس الاعلى للثقافة، القاهرة.

" حديقة بعطر رجل"، مجموعة شعرية، 0007 دار المدى، دمشق.

" عندما تستيقظ الرائحة"، رواية، 0006 عن دار المدى، دمشق.

" النقطة الابعد"، رواية، 0000 هم دار المدى، دمشق.

" حرب نامة"، مجموعة قصصية، 8998 عن دار المدى، دمشق.

في الترجمة:

"'إله الصدفة" للكاتبة الدنماركية كيرستن توروب، 0033 سلسلة ابداعات عالمية، المجلس الوطني للثقافة والفنون، الكويت.

" بونساي" للكاتبة الدنماركية كيرستن توروب، 0011 في دار المدى، بيروت.

" إنه الخوف في الاعماق يلقي بظلال الأبجدية على الورق"، مختارات شعرية للشاعر الدنماركي بيتر لاوغسن، 2010، عن دار بدايات، دمشق.
" قصص وحكايات خرافية"، هانس كريستيان اندرسن، 533 ص. 0006، عن دار المدى بالتعاون مع المكتبة الملكية في كوبنهاجن.
" الفاتح للكتابة" مختارات من يوميات هانس كريستيان أندرسن، 0005 عن متحف ثورفالدسن، كوبنهاجن.

صدر لها بالدنماركية

Skæringspunkt رواية 2012 عن دار Vandkunsten.كوبنهاجن.

" مجموعة نصوص شعرية نثرية مترجمة إلى الدنماركية، En have med duft af mand"

.، كوبنهاجن Samleren، عن دار ساملرن2007

" ، "اكتشافات متأخرة انتصارات صغيرة" 2004، دار Sene opdagelser smaa sejre"

الدنماركية باللغتين الدنماركية والعربية.Samlerenساملرن

دنى طالب غالي

النقطة الأبعد

عن دار المدى– دمشق 2000
الغلاف من تصميم الفنان محمد سعيد الصكار

النقطة الأبعد

عندما تركتهم يتحدثون، أتوا جميعا على ذكرها.
كانت هناك في مكان ما، في رؤاهم، عقولهم،

خيالاتهم. اكتشاف بمحض الصدفة. رغم كل ما ظننت، ويدعون، يفلت الكثير من قبضة القلم وحزمة الأفكار.

الجزء الأول

فلاح

قطع المسافة بين الممر ومدخل القسم شاردا بفكره. لم يعلم لِمَ ترك كل شئ على حاله وغادر الغرفة فجأة. أمضى ما يقارب الساعة وهو يصنف أشياءه. ألأنه انتظاره وترقبه الفرح لشيء ما سيأتي؟!

خطواته دون إيعاز منه تقوده إلى مكتب رئيس القسم. كانت السكرتيرة مشغولة بطبع أمر ما على الآلة الكاتبة، وباب غرفة رئيس القسم من خلفها موارب. يمر بالغرفة. يلقي التحية دون أن يبطئ من سيره.

قصد استنشاق تلك الرائحة التي تنتشر في فسحة الممر أمام الباب.

... المكتب، الجلود، المكيف، السكرتيرة وضربات الآلة الكاتبة... كوكتيل عطور خاص يشحذ حاسة الشم.

تشبعت حواسه بالرائحة. غذ السير، يداخله هَم تلبسه فجأة. تلفت وهو يسأل نفسه عن الوجهة التي نوى قصدها. تذكر أخيرا.

التقى بالمعيدة وهي تقفل باب المختبر الثاني. بسلامها دعوة واضحة. تمهل قليلا. كانت تعالج قفل الباب. أخرج سلسلة المفاتيح من جيبه، وأفرز المفتاحين اللذين يعودان إلى المختبر. قالت:

- إذن سفرك قريب.

دنا منها. عليه أن ينحي جانبا كل ما يشغله. كانت متمهلة، تنظر إليه، مغرضة. توقظ فيه شهوة عنيفة. أمسك بيدها. وضع المفتاحين في راحتها. شعر بتهيوئها للسؤال. اندفع بفعل تلامسهما حتى حاصرها بجسمه، ارتكت على الباب باستسلام. تلفت يمينا ويسارا وهو يهمس:

-ربما هي الفرصة الأخيرة لنا، قبل سفري، ما رأيك؟

- الآن؟

- تعالي معي لننقل أغراض مكتبي إلى السيارة أولا.

- لكن دكتور فلاح...

انطلق معها في سيارته، مخترقا أسوار الجامعة. الطلبة متجمعون على متن الشارع الرئيسي بانتظار وسيلة ما لنقلهم. حرك عضلات وجهه بعد أن شعر بتوتر. قلص ومدد أصابع يديه، رفع من درجة التبريد بالسيارة وهو يرميها بنصف ابتسامة.

تجاوز مؤشر السرعة الثمانين. يترتب عليه القيام بالكثير قبل السفر.

... جدول اليوم مزحوم... مراجعة مكتب الجوازات، مكتب رئاسة الجامعة، المرور على الأهل لتوديعهم، شراء القماش الخام لتغطية الأثاث، الاتصال بالأستاذ العميد لتأكيد الدعوة، تهيئة صور جوازات لوفاء والأطفال، والاتصال بجماعة مانشستر.

... وهذه لم تأت بكلمة، ربما كان وقتها مزحوماً، هي الأخرى من الطراز العملي جدا، ممن يسهلون أمورا كهذه.

قطعت تفكيره بأن اقترحت عليه التوجه إلى شقتها هذه المرة. طبطب على فخذها الهزيل مبتسما.

... سيستغرق الطريق حوالي ثلث الساعة، ومن ثم فلن تتجاوز الزيارة النصف ساعة. لنقل ساعة، ساعة واحدة لن تؤثر على برنامج اليوم.

... ليت وفاء تكون قد أنهت جمع الكهربائيات، لو تؤجل مشاحناتها الآن، أيام معدودة قبل سفرنا، وهي لم تشرع بحزم شئ.

تسقط أمامه صور مختلطة لعري امرأة، يتخيل إقبالها عليه. يسمع نهاية جملة دمدمت بها قبل أن تدير وجهها إلى النافذة. أراد أن يسألها عما قالته أو تود قوله لكنه شعر بعدم ضرورة ذلك. حاول أن يبقي خياله محصورا بعري النساء لا غير. مد يده ببطء إلى طرف تنورتها فاعترضت. أثارته بتلك الحركة، عادت يده إلى شعره لتصفف ما أفسدته الرطوبة والعرق.

تنبه فجأة إلى انه لم يخفض من شدة التبريد بعد كل هذه المسافة التي قطعها من الهارثة، وحتى استدارته إلى شارع المستشفى العسكري. أطفأه تماما.

الشارع خال تقريبا. في تلك الساعة تكون الحركة في البيوت. لم يسمع سوى أذان الظهر قادما من جامع بعيد.

عاد إلى مراجعة ما أنجزه هذا النهار. تذكر نظرته التوديعية السريعة على مكتبه.

... لا بأس بما فعلته.

طلبت منه أن يركن السيارة في الشارع الجانبي الذي يسبق الفرع الذي تسكن فيه. ترجلت من السيارة لتسبقه بالتوجه إلى الشقة. وصله صوتها غريبا. تأمل قفاها في المرآة أمامه. تسير بخطوات سريعة لتعبر الشارع. انعطف إلى الشارع الموازي. خشي رَكن السيارة في هذا المكان. ود للحظة التراجع، تشغيل السيارة والانطلاق من جديد. لكنه ألقى نظرة سريعة على نوافذ السيارة، وتأكد من غلق الأبواب.

نزل الدرجات مسرعا. السلالم كانت مظلمة، ظنها أكثر برودة من شقتها. أخذ نفسا عميقا. مرأى سيارته من بعيد يسر النفس، وكأنه مرأى عروس. غمره ارتياح لسلامتها. لم تمر فترة على شرائه لها. تقدم بلهفة تجاهها، وأوشك أن يطبطب على مؤخرتها قبل أن يلقي نفسه في داخلها.

نظر إلى وجهه بالمرآة. تمهل قليلا. فكر بأن يمر بالبيت أولا، قبل إتمام باقي مهماته.

لاحت له بوابة الحرم الجامعي. أومأ برأسه للحارس. أثارت سرعة سيارته زوبعة من غبار، وحفيظة بعض من الطلاب. استدار من ثم يسارا ليدخل الحي السكني الخاص.

فتح باب السيارة وتوجه إلى الصندوق الخلفي.نادى على وفاء مرتين وهو ينقل الصناديق ويصفها عند المدخل. دخل المطبخ، شرب ماء مثلجا، لف قطعة خبز مع أوراق ذابلة التقطها من صحن الخضار أمامه على المائدة. دفعها مرة واحدة في فمه.

كانت تطعم الطفلة. دفع لقمته بما تبقى من ماء في القدح. تقدم و انحنى ليقبل ابنته. أزكمته رائحة عرقه. امتزج بعطر المعيدة الرخيص وعلق بالقميص.تحاشى الاقتراب خطوة أخرى. زوجته تعطيه ظهرها، منشغلة تماما بالطفلة.

سرق نظره شق بياض، فتحته خصلات شعرها المتناثرة بين رقبتها وفتحة قميص النوم أعلى الظهر. كَبُر الشق بحركة صغيرة منها. سرقته تلك البقعة ثوان. تنفس عبقها وهو على مبعدة منها. أحاط التكوين الذي أمامه شيئا من النصاعة. خف إلى الحمام، غسل وجهه ورقبته بالصابون، وسرح شعره. عاد متحمسا ليسأل:

- هل فكرتِ بأمر البيت والأثاث؟

- ..

- تتصرفين وكأن أمر البيت يهمني وحدي

- ..

- استغفر الله، ألستِ أنت أم البيت؟

تناول مفاتيح السيارة بعصبية، صفق باب البيت خلفه بشدة وخرج.

ترجل جاره خالد من سيارته عندما رآه. قدم له سيجارة، سأله عما استجد من تفاصيل السفر، وبيع السيارة، وعن فترة بقائهما في الخارج:

- أخبرتني بشرى بعزمكم على نقل بعض قطع الأثاث، هل ستطول سفرتكم؟

- لا أدري يا أخي، ليس الأمر بلعبة كما تعلم، أنا محتار ومتضايق، أفكر بتأجيل بيع السيارة.

- سنمر عليكم الليلة أنا وبشرى.

- سنكون في النادي.

- ربما نلتقي هناك.

تجاوز كعادته إشارة المرور لكنه ما لبث أن ضغط على الفرامل بكل ما تملك قدمه من قوة. لعن بسره كل من ألقى عليه التحية هذا اليوم.

لم تنخفض نسبة الحوادث المرورية برغم كل ما قاموا به من تحويرات في هذه الإستدارة.

... ستكون هذه الساحة السبب في موتي يوما ما.

لم يفهم سبب فكرته السوداء هذه. هو ضيقه بهذه الأيام. لابد له من الضغط على وفاء. كان داخله يتأرجح بين يأسه في إقناعها، وقناعته بأنه وبالرغم من كل ما تبديه من رفض، يستطيع إرغامها على السفر. ضغط بقدمه على دواسة البنزين. فكر بالمرور بأهلها اليوم، سيتحدث مع امها، يحتاج إلى مساعدتهم. يجب نصحها. وربما لو استمرا بخناقاتهم هذه الفترة، ستكون النتائج إلى حد ما لصالحه.

...أشد ما تحرص عليه هذه الأم هو استقرار ابنتها، وبيتها.

اشتعل اللون الأحمر مرة أخرى. ضرب على المقود. يشغله التفكير بأمور كثيرة لا يمكن البت فيها. أمور تضايقه، تتعلق بغيره، لا يمكنه التعجيل من إتمامها.

... إنها مسألة وقت... لكن يجب الإسراع في إتمام كل الاجراآت اللازمة، من يدري، سيحاولون ولاشك إفساد الأمر علي.

سرق نظره ساقي امرأة تعبر، خفف من السرعة كي تكمل المرأة عبورها، متابعا حركة سيرها. لعن نظره وجوعه. أصوات منبهات السيارات من خلفه تتوحد لتعلن احتجاجها. تتحرك سيارته بانطلاقة سريعة.

عينا المعيدة التي جامعها، حملت سخطا عليه أيضا وهو يغادرها.

... تريد وقتا أطول، سحقا لهن.

... كانت تتمنى لي النجاح بطريقة ساخرة، حتى هذه العانس الحقيرة الشبقة، وتملك أن تستهزئ.

ضرب بيده مرة أخرى على المقود.

... يجب أن ألتقي الليلة بالأستاذ العميد.

شارع الكويت وزحمته. حركة الناس في أوجها. أبطأ السرعة. أطفأ التبريد. انضم سريعا إلى الجوقة. أبواق السيارات تميز هذه البقعة. ضغط هو الآخر براحة يده على المقود، وكأنه ارتاح لذلك الفعل فلم يرفعها حتى انعطف إلى اليمين.

ألقى نظرة على السيارات المركونة في صف طويل أمام دكاكين البقالة في السوق. السيارات من موديل 90 تعبره رواحا ومجيئا. كما كانت بضاعة البقالين المستوردة التي أغرقت بها الأسواق تشغل الرصيف حد إعاقة السير.

عبر الشارع مسرعا وهو يغلق بيده فتحة الجيب في صدر قميصه. طس بإحدى برك الماء القذر المتجمع في توجهه إلى سوق البزازين. ضاعت لعناته بين أصوات الباعة والسيارات والمارة.

اشترى ما احتاجه من القماش الخام، وفكر رغم وقته المزحوم، بأن يمر على سوق السمك عله يعثر على شئ ما في هذا الوقت المتأخر. لم يملك البزاز كيسا، فتأبط لفة القماش الكبيرة وسار بها. اشتهى بشدة رائحة الزفرة التي

استنشقها. زفرة مختلطة بالحر، العطارة، الخضرة وزحمة الأجساد قادته حيث السوق.

يده ضاغطة على المنبه. نهاية الشارع مفتوحة متشعبة، يتذبذب المرء عند مفترقها. لعن راكبا كاد أن يضرب يده الممدودة من نافذة السيارة. توقف أمام اختناق جسر المقام لينعطف بسيارته إلى اليمين. تذكر التغيير الذي حصل في خطوط السير.

كلمة تغير تلازمه في جميع دقائق حياته، تقلقه. لكن المتغيرات جعلته أيضا متوثبا، وبحجم ما تبعثه من فزع في دواخل الناس. المتغيرات جزء من حركة الإنسان وتطوره. تعامل الناس مع هذا العامل سلبي إلى حد بعيد. هو يتساءل لم الخوف.

...لكنها وفاء.

هي التي لا تثق بقدراته. لو تسمع كلامه وتنفذ ما يطلب منها لسار كل شئ حسب ما يخطط له.

... لم تكف استهزاءها بي لحظة.

أخيرا عبر جسر المحافظة، اخترق زحام العابرين إلى سوق الهنود.

زفر زفرة طويلة وهو يستدير حول أسد بابل.. بطنه قد بدأت بالقرقرة. نوى الإسراع في إنهاء مشاويره كي يعود إلى البيت. انتبه إلى أن صوت محرك

السيارة غير اعتيادي، لم يفحصه بعد، نوى المرور بالمنطقة الصناعية قبل يومين لكنه انشغل. سيكلم نزار الليلة إن رآه، يقول انه قد عثر على ميكانيكي، وهو أب لطالب عنده.

أنزل زجاج نافذته. هاجمته الزفرة مجددا، زفرة ثقيلة حملتها إليه نسمات رطبة من الشط على يساره.

ارتاح قليلا. خفف من السرعة. تبدد الزحام، غابت الأصوات، وابتعدت المدينة قليلا. عبأ رئتيه. كان أثر حنين غريب قد تسرب باستنشاقه لتلك النسمات، ما لبث أن صار حزنا تجمع على المقود ودواستي البنزين والفرامل. ثقل نزل من رأسه، ودب ببطء إلى أطرافه. مد ذراعه خارج النافذة، وبسط يده. تخلل الهواء الرطب أصابع وراحة يده المتعرقة.

لمح عينيه في مرآته الأمامية فغض النظر. لا يفهم هذا الضيق الذي ينتابه حتى يصعب تنفسه أحيانا.

فجأة تخيل وجه زوجته وهو داخل عليها بالقماش الخام، والسمك.

... **لا بأس، السلعتان تثيران عصبيتها.**

لاحت القطعة المثبت عليها رئاسة الجامعة. له معرفة بموظفة سيكلفها بانجاز المعاملة المطلوبة. الجانب الأيمن من الكورنيش كان مظللا. أحواض زهور

مستديرة منسقة مروية، متوزعة عند مدخل المبنى. بحث عن مكان بارد يحشر فيه سيارته.

****

البعض كان متشبثا بكل ما يمت للسلم بصلة. السنتان لم ترمم بعد كل شيء. نادي الأساتذة مازال بموقعه القديم في الساعي، أمام نهر العشار. ولت أيام الحرب وإيران والقصف المدفعي. بدأ النادي يستعيد ببطء طابعه وزبائنه وضيوفه. سياجه الخارجي قد رمم بعد الحرب وصبغت واجهته بالأبيض، ورغم ذلك لا يوحي بما أريد له أن يوحى.

يعلم بأنه قد جاء النادي مبكرا. هناك الكثير من الموائد الشاغرة في الحديقة. حرك منديله قريبا من وجهه. برغم مغيب الشمس كان الجو خانقا، حاملا حصته من حرارة النهار.

اختار زاوية تشرف على كل من في النادي، منعزلة في الوقت نفسه، تحددها بضعة أشجار تتداخل ببعضها. ضم مائدتين إلى بعضهما، وتنقل يختار كراسي ملائمة، خالية من عطب أو صدأ. دخل الصالة متوجها إلى المطبخ، يستفسر عن عشاء الليلة ليطمئن. بدأت الموائد تشغل بقناني الشرب والمازة. جلس متوسطا المائدتين، ينظر إلى ساعته بين الحين والآخر. تسللت إلى

ساقيه حرارة الحشيش الذي رش قبل قليل. رائحة التراب تفوح. العامل مازال منهمكا برش الجزء الآخر من الحديقة.

نظر إلى حذائه المترب، أخرج منديله ومال بجذعه ليمسحه. بطنه بارزة بشكل أزعجه، وأعاقه عن تنظيف حذائه. أشعره انتفاخها بأنه يحملها، حتى في جلوسه.

جفف عرق وجهه، اتكأ على ظهر الكرسي. شعر بالتعب يغزو جسده. سأم الانتظار فبدأ بالشرب رغم الألم الحاد الذي انتاب معدته بعد الغداء.

لم يستطع النوم بعد الظهر. كانت الكهرباء قد هبطت حدا حال دون تشغيل مروحة. لازمه صداع قوي. تناول غداءه على عجل، أعده وأكله لوحده. احتجاج وفاء المتوقع وما يترتب عليه من تبعات لم يضعف من شهيته العارمة.

البيرة باردة وهي تنزل جوفه. شعر بأنه بحاجة لبرميل منها ليروي ظمأه.

عيناه مثبتتان على باب النادي ترصد القادمين.

حصل على سمكة متوسطة الحجم. نادت عليه بائعة بمجرد دخوله سوق السمك. كانت تريد بيع ما تبقى لديها آخر نهارها. غرزت سكينها عند الذيل قبل أن يتفوه بكلمة. أفادته بأنها منظفة ومملحة وجاهزة للقلي.

مازحها، لكنها لم تتراجع عن السعر الذي طلبته.

لم تكن طازجة. دبغها بالكاري ووضع قطعها الثلاث في المقلاة. امتلأ البيت برائحة احتراق الدهن الممزوجة بالكاري، ما حرك عصارات معدته. أتى حينها مستمتعا على قنينة البيرة الباردة. تناول بصلتين، أخرج خبزتين من المجمدة العمودية. أزعجه حينها هدوء البيت. قطع طماطتين إلى جانب البصل وأضاف القليل من الخل. طل مرارا أثناء وقت تحضيره الوجبة على الصغيرة، علها تصحو. تمنى مشاركتهما إياه الوجبة. لم يفهم عزوف وفاء عن الجلوس معه.

أفرغ قنينتي بيرة بجوفه. لا يزال يشعر بعطش كافر.

اليوم هو الخميس ومن البديهي أن يكون الجو عائليا، عكس باقي أيام الأسبوع. لم ترغب وفاء بمرافقته، مما وضعه بموقف محرج تماما، فالأستاذ العميد سيأتي مع زوجته.

... **لم يكن موقفها مفاجئا.**

... **حتما لأنني أتيت بالسمك وهي قد طهت البامية، إيه... نسوان.**

بقيت عيناه مسمرتين حيث المدخل، ويده بين فمه والصحن على الطاولة بانتظار ضيفه، آتيا على الباقلاء. مغلية بالبطنج. استاء مجددا لأن وفاء لاتستسيغ طعمه.

الجو خال من نسمة متحركة طرية. مسح شعره بمنديله، وتبع ذلك تفريقه بأصابعه وتمسيده. توافد ضيوف النادي أفرادا و عوائل. كان يعمد إلى متابعتهم بنظره حتى جلوسهم حول طاولاتهم، ويحرص على مبادرتهم بالسلام.

يعرف الكثير من رواد هذا النادي بمختلف درجاتهم وخلفياتهم. النادي بعد أن كان حصرا على الأساتذة والأطباء البعثيين القدماء والمستقلين، ضم أشباههم، إضافة إلى الوجبات الجديدة التي لا يمكن تحديد انتمائها، أو هويتها.

في الفترات الأخيرة صارت الوجوه التي يعرفها قليلة، والتي يخشاها كثيرة. غلبت مهمات الحزب على مهمات الجامعة. تضاعف شكه بمن أتوا مؤخرا. ازداد تورطه، وازدادت التحذيرات.

مسح فمه، ولعق بلسانه خدش صغير في زاوية فمه. لقد حلق ذقنه على عجل قبل مجيئه. عناد وفاء أفقده سيطرته على موس الحلاقة.

تنفس الصعداء عندما برز العميد. أتى برفقة رجل ميزه بالكاد. انه صديقه. بدا له بهيئة مغايرة، أخرى تماما بملابسه المدنية.

... هو بعينه... المقدم حازم، آمر وحدة حوانيت الفيلق الثالث.

وقف ليستقبلهما منفعلا، وقد علت كلمات الترحيب والقبل وتطايرت الأشواق.

– أجل... هكذا تكون الموائد أكثر انفتاحا، وبدون الزوجات تصبح السهرات أمتع.

تجمع على طاولتهما تدريجيا حشد من الأساتذة من الذين اعتادوا لقاءهم هذا، ومن الذين صادف حضورهم اليوم أيضا.

ذهنه لم يكن صافيا تماما، ليتبع ما خطط له اليوم. صار يقفز من مكانه بين اللحظة والأخرى، ليأتي بكرسي آخر أكثر ثباتا، أو ليفسح المكان لأحدهم. علت صيحات احتجاجه مرارا بشأن دفع الحساب، ودارت علبة سجائره ولحقها بفتح أخرى وأخرى.

أوصى بعشاء لثلاثة. كان يدور ويدور يضايقه ثقل معدته، وتشوش دماغه. أحس بخدر يشل جسمه، وازداد تصبب عرقه وهو يطلق النكات الجنسية، و الضحكات بآلية.

جاء العامل بصحون الكباب والخبز. نهض من مكانه ليوزع الصحون. سأله العميد بصوت خفيض عما إذا كان قد تنبه إلى ما بلغه من وصايا في حالة سفره. هز رأسه وهو يضحك. مال عليه العميد مرة أخرى وهمس:

– و قطعة الأرض.

دنا فلاح قليلا ليؤكد له قيامه باللازم، ولا عليه إلا الاطمئنان. طالت مدة الهمس. تلفت فلاح حوله يرفع نخب اللقاء وهو يضحك، وبصوت عال يكاد أن يكون مفاجئا صاح:

– لكن ما رأيك بالكباب، يظهر بأن متعهد المطبخ جديد.

– نعم هذه المرة كباب اسطة، عراقي وليس مصريا، عله يستمر، يا أخي لا نثبت على شئ أبدا.

–لي صديق، لابد وأن تعرفه، مدير مركز الوقاية الصحية، يقول ثق بأن لا ضمير لمن يشتغلون في هذه المهنة، أقصد المطاعم، غشهم وسخ جدا.

– ولكن لا تنس بأن صديقنا هذا الذي تقصده تنظف على وساختهم.

أطلقت الضحكات، ورفعت الكؤوس والقنا ني ونزلت متشابكة على الطاولات. لكن فلاح حبس نوبة بكاء هاجمته أثناء ضحكه.

****

كاد أن يذهب بجهوده عرض البحر. هي المهمة الأخيرة التي كلف بها. أوشكوا أن يذهبوا بجلده إلى الدباغ بسببها، لولا نباهته، وتداركه للأمر في الوقت المناسب. وان خانته حاسة شمه تلك المرة.

... **اللعنة.**

كان ومازال يصبها ببصقة كثيفة، كلما مر بمبنى مركز الوقاية الصحية.

مركز الوقاية الصحية ومختبر قسم الكيمياء في الجامعة قد نصبا كمينا له، عندما عهد إليه بتولي مهمة تحليل الماء في البصرة. المهمة تضيف إليه نقاطا. هذا ما فكر فيه. تحرك للحصول عليها، كانت ستقربه من المسؤولين كما توقع، تأتي له بمدخول إضافي، وتوفر له وقت فراغ يقضي فيه شؤونه الخاصة. وبالفعل، قضى فترة لا بأس بها حينذاك، وكما رتب لها، بالإضافة إلى تلك الموظفة التي كانت تعمل هناك. أن يجمع كل هذه الامتيازات بوقت واحد، أمر ليس بمتناول الجميع.

سير العمل كان مضبوطا، وعلاقته بتلك الموظفة لم تثر كذلك أي إشكال يذكر. لكنه صدم حين علم بأن النتائج التي أرسلها، والتي كانت تشير إلى نسبة الخردل في الماء لم تناسب المسؤولين، مما جعلهم يستدعونه للتحقيق. هو المسؤول الأول عن فريق العمل.

... وما الذي كانوا يتوقعونه، أم إن المياه المعدنية قد ذهبت بمذاق الماء الذي يجري بالحنفيات عن أفواههم، لم يبق عند الناس لا كلية ولا حتى أمعاء.

أثناء التحقيق وجد نفسه فجأة المتهم:

– مدسوس؟

لم يملك إلا أن ضحك ضحكة مجلجلة، دعت المسؤول عن التحقيق التزام الصمت لفترة.

أيام سود، لم تفهم فيها وفاء سبب رعبه من رنين الهاتف، طرقات الباب، كوابيسه واستدعاءآت المسؤولين في القسم. خشي معرفة أخيه بالأمر. بذل كل جهده من أجل طمرها، والتوسط لأجل مساعدته فيها.

أقسم بأن الملفات جميعا بحوزته. تعهد بحفظه للنسب، وتلف كل ما يتعلق بهذه المسألة. ترجى من مدير مركز الوقاية الصحية ضمانه. أقسم على تولي أمر الفريق الذي اشترك معه من أجل غلق الموضوع. وكلفه ذلك الكثير من المال والهدايا والسهر.

****

رفع أستاذ نزار، وهو يترنح في وقفته، نخب سفر فلاح والشقراوات. قهقه الباقون وهم يرفعون كؤوسهم. انتقل في جلسته إلى جانب المقدم. دخلا في مواضيع متداخلة، متقطعة.

كانا، ولفترة طويلة قبل انتهاء الحرب، صديقين حميمين، لهما مغامرات مشتركة ومصالح أيضا. المقدم لم يبخل في تلك الأيام بمده بكل ما هو مفقود بالأسواق والمزارع ... قطع غيار لسيارته، شيكولاته، ملابس داخلية أجنبية، نساء، أجبان، وذلك الصوف الإنكليزي الفاخر.

ذكره فلاح باليوم الذي دعاه فيه، ليرافقه إحدى سفراته في سيارته العسكرية مع بضعة عسكريين آخرين خلال الحرب. اعتبر تلك الجولة أشبه بالمغامرة، وكأن ماردا امتثل بين يديه، يفتح الحدود المغلقة له، ويضع أمامه كل ما مر بباله واشتهاه. كانت سفرتهم بلا جوازات ونقاط سيطرة وتدقيق. وقد استأنس لشعوره بتلك الحماية التي انبعثت من رتب البدلات العسكرية التي أحاطته.

حينها كان تجهيز الحوانيت يتم عن طريق الكويت، والمقدم يتولى المهمة بنفسه، عن طريق سفره حال توفر الطلبيات الضرورية للفيلق.

لكن حال الحوانيت، شأنه شأن كل القطاعات الأخرى، قد اختلف بعد انتهاء الحرب، بسبب خطة الترشيد التي طبقها الجيش، إثر انقطاع المساعدات من قبل تلك الدول.

قال فلاح بمزح وهو يأتي على بقايا الزجاجة أمامه:

- راحت تلك الأيام للأسف.

فأجابه المقدم على الفور، دون تردد:

- بعدنا بخير، أفه، تدلل دكتور، احنه حاضرين.

امتلأ الفراغ أمامه بقشور الباقلاء، وتراقصت حوله الصحون. راح يغرق في كرسيه قليلا قليلا، ولم ينطق أخيرا إلا ببضع كلمات لم يفهمها هو نفسه.

تدلى رأسه. نسي أن يسأل نزار عن محل بيع الأدوات الاحتياطية للسيارات الذي تحدث عنه.

... ونزار انسحب بغفلة منا، ربما قد فاجأته عقارب الساعة فخشي عقارب زوجته.

تعجل الباقون نهوضه، جر قدمه التي تعثرت برجل الكرسي، متوجها في طريقه إلى موقف السيارات. تبول على السياج قرب سيارته، وبقي يعالج أمر المفتاح الذي لم يجد طريقه.

وصل البيت. ضوء العمود الكهربائي الذي ينير له مدخل البيت كان مطفأ. تلمس طريقه إلى باب البيت.

نفر من رائحة القلي التي هاجمته عندما فتح الباب. دخل البيت بحذر. لاشك في أن رائحة عرقه، دخانه، وشربه ستنفرها.

لكنه ابتسم وطمأن نفسه، صوت المكيف كان يغطي على جلبته. نزع حذاءه بحذر.

...لا... لن تستيقظ.

ضحك ضحكة منتصر رغم الألم الذي اشتد في معدته. شرع بخلع قميصه، فتح أولى أزرار القميص، إلا انه ما لبث أن نادى وفاء مستغيثا. قد ظن أن نهايته قربت.

****

أيقظه صوت شخيره ففتح عينيه. أدرك بأنه تأخر بنهوضه هذا الصباح. بحلق بسقف الغرفة لثوان. أبعد الغطاء عنه. أصاخ السمع... من تراه يطرق الباب. فُتح الباب ودخل شخص ما.

... د.هناء

لم تصله إلا ضحكات وفاء القصيرة وقد امتزجت مع صوت الجارة. استرجع ما فات مرة واحدة. الليلة والأصحاب وشربه وغثيانه وقيأه. تصل أذنيه ضحكات وفاء الخفيفة. رجح تغير مزاجها بعد الليلة التي قضتها سهرا إلى جانبه. بقي مستلقيا في فراشه، متنصتا.

...هناء، تلك المتصابية.

ترفض وفاء الاعتراف بذلك وتهاجمه.

هه... وما الذي تتقبله مني، فكلهن كاملات، بشرى إله في نظرها، وهيام ملاك، وهناء محترمة، وليس في بالهن ما يعشعش في رأسي.

... وفاء تبقى ساذجة طيبة، لا تعلم بما يجري في هذا العالم. تظن بأنهم يرون العالم كما تراه هي، ويفكرون بالطريقة التي تفكر بها.

... ثم ما الذي يعشعش في رأسي؟ أنا لا أفهمها.

تماسك ونهض من فراشه ليسأل هناء عن أمر خطر بباله فجأة. لمح ظهرها وهو يغادر غرفته ليتوجه إلى الحمام.

كانت ترتدي فستانا ورديا هذه المرة، يضيق عند الخصر ويلتصق بجسدها ليفصل مؤخرتها.

أخذ حماما سريعا. ارتدى دشداشة التقطها من خزانة الملابس. استأنس لما بعثته من إحساس مريح فيه. يسره مرأى قمصانه المكوية وبنطلوناته. يسره ما تبذله وفاء من جهد لأجله.

سأل هناء عما إذا كان بمقدور زوجها ابلاغ الجماعة عن مرضه اليوم. توقيت سيئ مرضه هذا، يزيد من قلقه رغم طمأنة المعنيين له.

عطر هناء وأحمر شفاهها كثفا من وجود وفاء أمامه. بالرغم من دشداشة نومها المتغضنة، انتفاخ عينيها الواضح، وشحوب وجهها، بدت راضية وهادئة.

انصرف خارجا، بعد أن صب له شايا أضاف إليه أربعة ملاعق من السكر.

تحرك في الحديقة الأمامية الصغيرة. الحركة خفيفة في الخارج وهو يترصدها. اليوم هو الجمعة. الناس تقضي شؤون بيوتها. جلس في ظل شمس أيار متمتعا بدفئه. زالت قشعريرته، واستكان الألم قليلا.

كان جاره الذي يسكن البيت المقابل عاري الصدر، مكتف ببنطلون قصير مهلل الأذيال0 تأمله وهو ينقل خرطوم الماء بين النبتات. تلك الشوارع الضيقة، التي تفصل ما بين صفوف البيوت المتقابلة، تتيح له مراقبة ما يدور بداخلها بسهولة.

صاح من مكانه ممازحا جاره وهو يرقب بحرص ما نبت في حديقته:

- من الخطأ السقي في عز الظهر.

- مزاج الماء يتحكم بنا يا أخي، كيف الحال؟

مرت سيارة يسبقها صوت محركها القديم. توقفت أمامه وقد علت قرقرتها.

حياه كل من الزوجين أسعد، ورباب من مكانيهما في السيارة. سألته رباب عن موعد سفره فأجاب، دون أدنى محاولة منه لإخفاء ضيقه بالسؤال، بأنه لم يتأكد للآن.

تتبع خط الغبار الذي انتشر وتصاعد وهما يغادران الحي. اختفى جاره عبر الشارع، وتركه يفكر بأمر الزوجين اللذين عبرا للتو.

... يثيرني صبر هذا الرجل وتحمله، لم يزده تضييقهم الخناق عليه إلا لامبالاة، برودا، كيف يكون مطمئنا إلى هذا الحد، ماض بقطعه لعلاقاته مع الكل.

...كل قلقي، جهدي، ولا يمكنني الحصول حتى على نظرته المطمئنة الشبعانة التي يقابلني بها!

رشف رشفة من فنجانه، استطعمها في فمه. تسرسح في كرسيه ومدد ساقيه.

... مع ذلك فمن يعلم.

وكما أكد عليه أخوه، ضرورة الابتعاد عن السياسة والمشاكل، عامل مهم جدا في تسيير حياة كل واحد منهم. انه حين يتذكر ذلك ليحمد الله ويشكر أخاه.

- هذا البلد ليس للسياسيين.

أخوه يعني بذلك أية سياسة معارضة بالطبع ولاشك.

... أو حتى ديانة بالعلني، أو استقلالية صارخة.

... ورغم كل ما أحفظ من دروس، رغم كل التأني والحذر لم أشعر بالاطمئنان.

... ربما نهج أخي نهج الوالد.

شعر بالرثاء لأجل والده. توفى وهو مفتخر ببدلة عمله التي حصل عليها من الإنكليز، وبالبيت الذي حصل عليه من الحكومة في الأبّلّة.

... مسكين الوالد، ما الذي ورثنا عنه، لا أكاد أتذكر.

وفاء ترافق جارتها حتى الباب. حاول التقاط أطراف الحديث الدائر بينهما وهو ينهض ليسلم. ثم تبعها في دخولها. فتح باب الثلاجة، ألقى نظرة سريعة ثم أغلق الباب وهو يكلمها:

– أسعد ورباب قد مرا للتو، سألتني المسكينة عن موعد سفرنا، كان حسدها واضحا وهي تتمنى لنا سفرة سعيدة.

– ..

– لسفرنا طبعا، لم تترق في وظيفتها منذ سنين. لم تنل ولو فرصة واحدة، ولو سفرة، بقيت معيدة وعانس في نظر الطلاب والأساتذة بسبب العجوز زوجها.

– ..

– ألا ترينها، لا تبدو موافقة على نهجه، تنقلت شكواها من فم إلى فم في محيط الحي، ينقصهم الكثير، طبعا، إزاء خدمته المتفانية الطويلة في المجال الجامعي. بروفسور يكاد لا يملك شيئا. لم يتمكن من الزواج إلا مؤخرا. قد جاوز عمره الخامسة والأربعين عندما رزقوا بسحر. حتى سيارته لم يتمكن من تبديلها، منذ حصوله على الدكتوراه وعودته إلى البصرة، وحتى اليوم.

نظر إليها. لم توفر وفاء جهدا في إخفاء انزعاجها من حديثه الذي بدأه. بل تركته وغادرت المطبخ.

... لكن وفاء لا تستطيع إدراك أمور كهذه. لا تعلم ما يكلفه هذا البيت بما فيه، والسيارة وقطعة الأرض، والمركز الذي وصلت إليه.

يبقى هذا الرجل شاغله.

... ربما لم تفلح زوجته بإقناعه بالتغير الذي حصل وينكره، أمثاله يشبهون كثيرا خيول العربات، التي يغطون عيونها ويوجهونها في سيرها. هذا كل ما في الأمر، ليس في المسألة مبادئ أو قيم. لقد بدا حقا وكأنه حصان عجوز يجر عربة مضعضعة.

... هه... لا أستطيع أن أقول لوفاء بأن زوجته اشتكت إلي بنفسها. لجأت إلي مرة للتوسط في إنجاح اختها التي أثارت كل تلك الزوبعة حينها... كانت تدرس علوم فيزياء. مكملة في مادتين وخشيت رسوبها.

تملكته رغبة بأن يمسك بوفاء ويرغمها على الإنصات إليه.

الساعة تشير إلى الثانية ظهرا. ألقى نظرة سريعة على قدري المرق والرز الجاهزين. نبش رفوف الثلاجة، ثم قسم التجميد. أخرج بكيس خضار صغير. نادى على وفاء من أجل عمل حساء له.

دخل الغرفة ليتمدد على السرير. شعر بأن الغرفة باردة جدا، فكر بأن يطفئ المكيف، لكنه تقرفص في مكانه. عاد خيط من غثيانه مرة أخرى عندما أتت بباله صور كؤوس وقناني الشرب لليلة البارحة. انقلب إلى الجهة الأخرى من السرير.

تذكر أمرا فاعتدل في جلسته، وكأنه ود مسح أخبار العالم لغيابه، نهض فجأة لينقل جهاز التلفون إلى الغرفة، وتتالت المكالمات، ومضى الوقت وهو ممسك بسماعة الهاتف.

دخلت وفاء الغرفة، هذا يعني بأنها انتهت من واجباتها ونامت الطفلة. وضعت الصحن والقدح بأناة وغابت.

عادت بعد فترة. رمت بثوبها على الكرسي وارتدت آخر، التقطته من على المشجب خلف الباب.

- تحدثت مع أخي، دُفِعَ لنا سعر جيد جدا، هل نبيع؟

- ..

- قطعة الأرض في البراضعية.

فتر حماسه الذي نقله إلى أخيه قبل قليل. ناقش أمره مرة أخرى. تمددت وفاء على الجانب الأيسر من السرير بعد أن سحبت الغطاء إليها. نظر إليها. فكر في صمتها.

... إنها حقا مصيبة في رأيها، من الغباء بيعها الآن.

تسرسح في فراشه، تضايق من اندفاعه، ماله يتسرع هكذا، لقد تعجل في تأييد رأي أخيه، كان ينوي بناء تلك الأرض.

... وفاء مُصيبة في ذلك.

لم يمض الكثير حتى أمسك بغفوته.

****

توجهت الطفلة بعد نومها ساعات الظهر إلى الشارع للعب مع أطفال الجيران. نادته لمساعدته في إخراج دراجتها وفتح الباب.

... بابا... بابا

في كل مرة تسقط كلمة بابا على أذنيه تفعل فعلها، ترقص روحه طربا لها. يود لو تكررها الطفلة، وخارجا أمام مسامع العالم. مازال الرعب ذاته يسكنه، لفقدانه ما يملك، ما يسقط على مسامعه من أصوات تلجأ إليه، ما حققه هو وبناه لنفسه. يزحف على ركبيته من أجل أن يعكس البيت بما فيه من جماد وأحياء صورته. أن يكون له مزيدا من الأطفال صفحته البيضاء.

يركع وهو يقبلها، وكأنه مازال يستجدي اعترافا منها بما استطاع بناءه.... يود لو تكرر النداء.

ولأول مرة يملك شعورا حقيقيا اتجاه شئ ما. لم يجرب إحساسا نقيا كهذا طيلة حياته. لكنها تحرك بقوة سحرية وعيه، الذي ينبهه إلى انتمائه. تشعره بضرورة قصوى لارتباطه بهذا العالم، إلى ضرورته. يكاد يجن لشعور كهذا. العاطفة التي ولدتها فيه، كم كانت مخيفة . هزته، وكأنه عثر على شئ ذي قيمة بدواخله. بل انها انتزعت اعترافا من العالم به، وإقرارا بقيمته.

تنبه في السنوات الأخيرة إلى محاولاته الحذرة لسبر غور تلك الأعماق السحيقة فيه، وإصدار أحكام بشأنها. كان العمر وهو يتقدم به يفتح بقسر ذاكرته، ويشرع نوافذا على المكبوت.

بوده لو يكون هناك سيف زمني يبتر به محطات ما في الذاكرة، بل كل ما وراء هذا اليوم. هو من هو اليوم، هو الذي شاف ما شاف، سافر وجرب وتعلم حتى وصل وشبع. هو للغد، لم باتت تلك الأيام تعاوده فتزيد من ضيقه وخوفه.

فكر مرارا بالانتحار أيام الدراسة المتوسطة لتعثره.

- لا تهاون بأمر الدراسة.

هذا ما يكرره أخوه، لكن الدروس كانت تصعب عليه، واضطرابه النفسي يسلب إرادته من أجل المواصلة.

بعد وفاة الأب ضرب أخاه كتفه بيده الضخمة وقال:

- حل أزمة البيت تكمن بإيجاد شغلة أفضل لنا.

- وأنت وأنا المسؤولان.

هز رأسه بخوف مرات ليؤكد تأييده. اتفق مع أخيه في هذا. راح يتبعه في مشاويره اليومية بعد المدرسة مذ كان صغيرا. أخوه بقسوته نمى فيه تلك القدرة على كسب الرزق. تلمس الطريق لكسب المال. لكنه وما يملك ملك لهذا البيت والأخ. هكذا أراد. كان يشعر بأنه مهدد بالطرد من البيت إن لم يتبع شروط أخيه.

بدخوله الجامعة بدأ يهتز لفكرة استقلاله وكسبه لنفسه. إمكانية انفصاله عن البيت بعد بضعة سنين أدهشته.

****

- سيكون هذا الأسبوع حاسما، لم يبق على سفرنا سوى بضعة أيام.

كان يجلس في غرفة سامي في المستشفى، برغم وقته المزحوم. شعر برغبة مفاجئة بالتحدث إليه. طلب سامي الشاي لكليهما وعاد للأوراق المجموعة أمامه. جلس هادئا ينتظر تعليقا على ما قاله. سامي الصورة البديلة لأخته. كرر:

- لم يبق على سفرنا سوى أيام.

عندما تحاصره أزمة الثقة بنفسه، عندما لا يتمكن من التحدث إلى وفاء، يلجأ دائما إلى ابتكار صور معوضة، كهذه اللحظة. وجد نفسه ماثلا بين يدي هذا الرجل، وكأن اعترافاته ستخفف عنه، وان لم يحصل على رد. سيشكي إليه عناد وفاء وتعنتها.

نافذة الغرفة تشرف على شط العرب. نزع سامي عوينا ته. وجهه يحمل معاني وتعابير الطبيب تماما. صلع يأخذ جانبي مقدمة رأسه ويترك له شعرا خفيفا بني اللون على الجانبين، مسرحا للخلف.

تحرك بهدوئه المعهود بين مكتبه والنافذة وهو يقول:

– مرأى الخلفية يكسر من حدة مبنى المستشفى. يبدو الشط وضفافه يسكن حارسا وأنيسا قريبا من رؤوس المرضى يخفف عنهم آلامهم.

... من العوائل القديمة في البصرة، لقب محفور في ذاكرة الناس، وأعمام وأخوال.

...انهما يتشابهان هو وأخته.

فكر بأن وجه سامي، يجبره على أن يتريث دوما، رغم تقاربهما بالعمر، بل وأن يخفض من صوته عندما يشرع بقول كلمة. بل وأن يتردد أحيانا بقول ما يود قوله، وأن يعني ما يقول في أغلب الأحيان.

قال بلوعة:

- الحياة تبدو في ظاهرها كمكتب عقارات، هادئة، لا تتطلب منك سوى طاولة وكرسي.

كما بدأها أخوه، بحث عن محل للإيجار خلال نصف نهار، وفي اليوم الثاني كانا قد جاءا بكرسيين من البيت وطاولة من الحديد ابتاعوها من محل بيع الأثاث المستعمل. كان المكتب يبرك في إحدى مستنقعات حي الأبلة التعس، بالقرب من جبل القمامة حيث نشأ وكبر. تلك الدور التي بنيت بأمر من عبد الكريم قاسم ووزعت على العمال الذين كان أغلبهم قد انتقل من النواحي المحيطة بالمدينة طلبا للعمل آنذاك.

لم يكن من الصعب عليه تعلم الصنعة، لكنها فرضت عليه دورا جديدا كان أبعد ما يكون عنه في تلك الفترة. بكى كثيرا في خلوته، كان يجب أن يتبع خط أخيه في تعامله، وأساليب ترغيبه. كان يجب أن يستعير لسان أخيه، وجه أخيه، حركة يديه. أن يخفي عرقه، تلعثمه. يخشن من صوته الناعم غير المستقر، يقترب ويتقرب من زبائنه. أن يرافقهم المشوار، المشوارين، دون أن ينسى بأن يثبت لأخيه في كل يوم كفاءته، دهاءه وعرفانه.

مازال، ولو أنصت قليلا، فسيسمع مغضبا صوت بكائه.

لماذا داهمه الحزن هذه اللحظة، شعر بأن لسامي رهبة، يزداد شعوره بها وهو يزوره في مكان عمله، بل يجبره دائما على أن يترك فلاحا ويقدم فلاحا آخر قد يناسب "سامي" أكثر، شعور بالضيق والتردد شاب صوته:

– يتصور البعض حياته مقدرة، وهذا ما يجعل الأمور سهلة بدون تعقيد، ما يعتقده الناس يثير في هياجا وعدوانية. أو علها هكذا حقيقة بالنسبة للبعض. حين أدخل غرفة أستاذ من الذين قاموا بتدريسي عندما كنت طالبا، أعي الفرق بالحال... لم يمض على تخرجنا من هذه الجامعة أكثر من ست إلى عشر سنوات. الفارق الزمني ليس كبيرا جدا، ليولد هذا الفارق الملحوظ في السلوك اليومي، وطريقة التفكير بين الدفعات. أنا أؤمن بأن زمانهم أسهل بكثير. الآن يتوجب عليك اللهاث يوميا للاحتفاظ بما تفوز به، يجب أن تكون متواجدا في كل مكان يا أخي، تفعل ما تؤمر به لتتمكن من التواصل مع ما يستجد، وأحيانا تكون غير واثق من أن تحركاتك ستكون مأمونة العواقب. المقاييس اختلفت، ابتعدت عن الإخلاص، الشرف، والأمانة التي يدعي بعض هؤلاء المخضرمين بها هنا. بل إن الكفاءة التي يدوخني بها "سالم" والعقل، ليس إلا حديث مؤتمرات واجتماعات، بدعة متعارف عليها، يعلم كل منا متى يلقي بها وأمام من، ويبدو جاهلا من يضعها في غير وقتها على طاولة المناقشة، أو أن يثيرها على طاولة شرب مثلا. إننا مطالبون

بالتزامات أخرى نشعر بحملها ونحن نقوم بها، كفاهم تمثيلا. قد لا تكلف كالتزامات الأجيال التي سبقتنا جهدا وتضحية، لكنها قد تؤدي بنا إلى الجحيم على حين غرة. أراك ساكتا، ألا تشعر بصحة ما أقول؟

مازال سامي يخربش على ورقة أمامه وهو منصت، يبتسم، وهو يكتب:

- بلى، الحدود، منذ فترة وأنا أقرأ في كتاب، يقودني كلما انتهيت من فصل فيه، للتفكير بموضوعة الحدود، الحدود، ابتداء من حدود العراق، التي نشبت حرب من أجلها، والمناوشات الكلامية التي تمهد للثانية. ومن ثم الحدود في العلاقة بين السلطة ونحن، ما تعطي السلطة وما تأخذه وبالعكس، بينك وبين زوجتك، بينك وبيني، والآخر، بين الخارج والداخل.. وعلى صعيد الدول وخططها ، الحدود هذه، ورغم ما للكلمة من رنين للحديد أو أي معدن صلب محدد، أو صورة جغرافية منحوتة في البال، قد تكون ثابتة وقد تكون متحركة، متمددة أو متقلصة، الحدود قد تكون لينة وقد تكون صلبة، ممتدة، متماهية، متداخلة، ملغية، يملك أي من الأطراف أن يتلاعب بها وفق أهوائه، مصالحه، فتصبح أما حقيقية أو مصطنعة، وفق حساباته، بمقدار ما يسمح لنفسه، ومقدار ما يأخذ منها. الحدود أخيرا هم، أنا، أنتَ الذي ترسمها.

****

خرج من غرفة سامي هذه المرة وقد نوى أن يتوخى الحذر في حياته. أجل هذا ما يتوجب عليه فعله. لطالما ذكر نفسه بأهمية ذلك. نزل درجات الطابق بخفة.

لكن شعور خفيف بالإرتياح غمره وهو يبتعد بخطواته عن غرفة سامي الذي خنقه بمثاليته وحكمه.

... الرجل بطران، لا يرى ما حوله.

... داء هذه العائلة المزمن.

وكأن الجو في الداخل يلفظه أيضا. لام نفسه على فكرة مجيئه إلى هنا. ابتعد عن مكتب الاستعلامات في المستشفى دون تحية. حث خطاه ليلقي بنفسه خارج حدود المستشفى، خارج حدود تلك البقعة.

دخل سيارته وانطلق.

****

قرر التوجه إلى الأبلّة للسلام على أهله. لم يكن المشوار بمهمته يوازي السرعة التي انطلقت بها سيارته. وتلك الرغبة المهتزة التي يغلبها الشعور بالاختناق والضيق، واجب توديعهم قبل سفره، كانت تزيد من دعسه على دواسة البنزين. فكر في منتصف المسافة إلى بيت أهله في الوجوه التي ستواجهه حال

دخوله. كانت تلك الوجوه تضطره مثل كل مرة إلى التفكير بالرجوع، من حيث أتى، قبل أن يخطو خطوة إلى الداخل.

أجبرهم على تقبل ذلك، أن ينقطع لفترات طويلة عن زيارتهم. أن يكتفي بالمرور على مكتب أخيه للسؤال عنهم، أو لتوصيل مبلغ من المال لأمه. كما لم يفرض على وفاء يوما التزاما ما تجاههم.

لم يستطع أن يسحب اعترافا من أهله بشخصه طيلة فترة دراسته. بقي جاهلا، عاقا، غبيا، مجرد طالب، تنهال عليه التوجيهات والمواعظ من كل جهة في الدار والمكتب. بقيت سخرية أهله تصم آذانه وتملأ كوابيسه. لائحة ممنوعات طويلة ونصائح، نسخة في المكتب، وأخرى في البيت.

هيأ نفسه بعد تخرجه لأداء الخدمة العسكرية أولا، ومن ثم إيجاد عمل ما بعيدا عن مكتب الدلالة. هكذا بإمكانه أن ينعم بحياة لا بأس بها بعيدا عن أخيه.

لكن ذلك كان قبل أن يلتقي في طريقه بمجموعة من زملائه وقد تقدموا بطلب لدراسة الماجستير في الجامعة. لم يفكر في هذا إطلاقا ولم تكن نقاطه كافية . الأمر الذي اختمر في ذهنه بعد ذلك. لم لا يجرب، سيعلي ذلك من شأنه، وحسب بدقة أيضا جملة من الامتيازات ستوفرها له خطوة كهذه.

... إعفائي من الخدمة في الجيش مثلا... والشهادة.

أدرك بأن مكتب الدلالية لن يسد كل احتياجاته، وان أخاه لن يفهم.
شيئا آخر يمكن أن يضاف إليه، وهو ما لا يمكن أن تضيفه إليه لا الدلالة ولا الدراسة .. النفوذ.

.... ومن يعلم ما الذي يكون عليه الغد؟

ليس أسلوب التربية الحازم الذي جعل منه "فلاح" اليوم، بل ذلك الاعتراف الذي ينشده. تلك الصرخة التي يود أن يفلتها بوجههم ولم يستطع.

حصل على الماجستير بأدواته التي صنعها مقلدا، متحرقا، يحركه دأب زملائه وحلمهم بمنحة دراسية لإكمال الدكتوراه في الخارج.

****

وكأنه قطع مسافات طويلة خالية من السيارات والأشجار والبشر والحيوانات، أبطأ من سرعة السيارة. مجموعة باعة صغار يفترشون الرصيف... بضعة قناني زيت للطبخ، وشامبو مستورد. ضغط على زر فانزلقت زجاجة النافذة إلى الأسفل. تعمد أن تلامس البرودة وجوه الأطفال. ألقوا بأجسادهم على جسم السيارة الحار.

سأل عن السعر وهو في مكانه بالسيارة. اشترى كل ما لديهم.

... سعر مناسب لبضاعة شحيحة في الأسواق.

سيتقاسمها مع الأهل.

البيوت هرمة، يخرج من أبوابها صغار، يتجرأون فيركبون مؤخرتها وهي تدخل. الشارع الذي لم يبن فيه أثر تبليط أو رصيف هو نفسه. نزل وتأكد من قفل السيارة. تذكر الزيت والشامبو. عاد ليفتح الباب ويحمل ما نوى اقتسامه مع أهله، لكنه ألغى الفكرة. ألقى نظرة شاملة على السيارة، تفحص خطا أسودا صغيرا أسفل الباب الخلفي الأيسر، بلل طرف اصبعه بلسانه ومسحه.

وجد نفسه متربعا على الأرض مع أمه، أخواته، زوجة أخيه، وأولادها. متحلقون حول سفرة الغداء. يدفع اللقمة إثر اللقمة. لكن تلك الرائحة وهي تدخل خياشيمه تلين جزءا من رفضه الداخلي لهذا البيت. متربع على الأرض. يتوجب عليه الأكل ووجهه في الصحن. ينظر إلى ابن أخيه الذي يشاركه الصحن، وقد التهى بجوعه. تمنى الولد.

وجد نفسه يدفع بحصته من اللحم إلى ابن أخيه وهو يبتسم. لا يدري ان كان ابن أخيه، أم رائحة مرق الفاصوليا هي التي أبرزت فيه جانبه الحزين.

لم يملك أن يعترض على كمية الرز والمرق، التي كانت أمه تملأ بها صحنه بين الدقيقة والأخرى. بقي يأكل ويأكل. كانت تلك الرائحة تخنق صوته وتغلق أذنيه. لم يسمع بوضوح ما كان يدور من همس ومناوشات.

طفق ينظر بين الفينة والأخرى إلى ابن أخيه. رجلٌ، فاق أباه بطول قامته. أجبره الأب على ترك المدرسة للانصراف كلية إلى العمل معه، حتى فاجأته

الحرب ضد إيران، فأخرسته بعد عشر سنوات من الخدمة في الجيش. تذكر ضياعه، غمره شعور بالإشفاق عليه.
دار رأسه يتفحص الغرفة. أجرى أخوه تعديلات كبيرة في خريطة البيت، بعد أن أجبروا على تملكه من قبل الدولة. لكن الروح التي تركها وغادر مازالت حبيسة فيه.

لم يطالب أخاه بحصته بالمحل، عندما يفكر بحقه بالمحل يتراجع بالحال.
... **المحل يدر عليه أرباحا طائلة، وثروته تتراكم.**

لكن أخاه الذي أنفق أموالا في تأثيث مكتبه الجديد في حي الأندلس وفرشه، وجعل الواجهة من الزجاج المعتم، والإطارات من الكروم والألمنيوم، وإعلان ضوئي يحمل اسم المكتب على طول ثلاثة أمتار، وجهاز تكييف ضخم، يجد في فكرة انتقالهم هدرا للمال وطردا للبركة.
غاب صوت الأولاد فجأة. حملت إحداهن الصحون ورفعت الأخرى السفرة. هرعت ثالثة لتحضير الشاي، وانشغل الجميع بشؤون المطبخ.

اتكأ على الجدار في جلسته على الفراش الممدد أرضا. رطوبة الغرفة وظلمتها، وحركة المروحة السقفية، كل هذا جعله يستكين. انهمك بتحريك لسانه، ودفعه بين أسنانه لينظف بقايا الطعام.

قدم لأمه سيجارة وشرعا بالتدخين بصمت. طلبت الأم إحضار الشاي. أصوات الأخوات تتداخل بصوت الماء. غسيل الأطباق يأتيه مهدهدا. التذ لطعم سيجارته. تسر سح ولم تمض بضعة دقائق حتى غفا.

****

أيقظته أمه ذات يوم، وهو يرى في عينيها انعكاس للقب الدكتور. كانت تريد منه أن يتنبه جيدا إلى ما ستقول. ورغم الحزن الأبدي الذي يطل من عينيها، والذي يصل حد تشاؤمه منها بدت النظرة مختلفة. لم تحمل فرحا، لكنها لم تحمل ذاك الحزن أيضا. وربما كانت تشي نظرتها بالفرح أكثر مما وشت به نظرات الأخوات الفارغة.

شعر بنفسه وللحظة طفلا صغيرا، قد سمع الكلام، نام كاسبا بفعله رضا أمه، وها هي أطراف فوطتها المخمرة بالخضيرة، هي ابتسامة رضاها التي تلامس صدره.

انحنى عليه جسدها الذي يشبه الخشبة، تحرك الوشم أسفل ذقنها، جانبي جبهتها، وعلى يديها.

كانوا قد وجدوا له الفتاة التي سيتزوجها. المرأة بقيت لغزا وخيالا. وجد الفكرة كصحوه، عندما بذل جهدا في استيعابها.

****

لم يخرج من بيته هذا اليوم أيضا، لم ينجز شيئا لقاء المدة المحدودة لديه قبل السفر. حاول مع البدالة مجددا من أجل تسجيل نداء خارجي، تكلم مع موظف البريد، مازحه ووعده بأسلوبه بحلاوة محترمة.

وها هو المغيب يطلق الحركة في الخارج. أصوات ما بعد العصر صارت واضحة.

دخلت وفاء الغرفة لتغير ثيابها.

– وكأنني سأمرض ثانية، حموضة المعدة مرة أخرى. أعتقد بأن كباب النادي هو السبب، كان يجب أن أستشير سامي، طالت الفترة، ألا تعتقدين ذلك؟

تتحرك بين رفوف الملابس، كانت توزع الثياب المغسولة، تؤدي واجباتها كمن أفنى حياته فيها بآلية وإخلاص. بدأت عيناه ترسم مداراتها، كانت ترتدي قطعتين داخليتين، تضغط على اللحم تحت الثوب الخفيف. القطعتان تحددان موقعين أثيرين يزدادان وضوحا بحركتها. ظهرها أقرب من صدرها الذي تعكسه مرآة الخزانة، شعرها الكستنائي السبط القصير يغطي رقبتها. تيقظ، يكاد جسدها يحتل مرايا أبواب الخزانة أجمعها، فيصعب عليه لمه بنظره.

صمتها يتوضح، صدى صوته يتردد في رأسه، تموجات الثوب تظهر وتغيب، والجسد خمري ممتلئ، تحرك دمه، تضن عليه، لا يمكنه أن يطلب منها، يحرقه إعراضها عنه.

...لا يوازي ضعفي لو تعلم.

... ما الذي لا يعجبها فيَّ؟

خطر بباله بأن يصرخ كأسد وهو في مكانه على الفراش، أن يجرها إليه رغما عنها، أن يمزق ملابسها ويلقي بها أمامها، يدمي شفتيها، يفتح بيديه انغلاقات ذلك الجسد، ويرى توسله...

نظرت إليه بالمرآة. حول نظره باللحظة إلى جهة أخرى.

قال:

- تتذكرين "عادل"، من أقاربي الذي استقر في إنكلترا، سيساعدنا كثيرا هناك. كنا معا أيام الإعدادية، دخل معهد صحي، لكنه لم يكمل دراسته، تركها في السبعينات. أنا سافرت ولم نلتق بعد سفري إلا عندما وصل إنكلترا فرارا. كنت أغيضه عندما يبدأ في كل مرة بحديث، ويعود لينهيه باشتياقه لأمه، مما يثير ضحكنا وتعليقنا عليه.

فكر بسطوتها على دواخله. لم يستطع أن يجد لها تفسيرا. تحاول أن تتم مهمتها على عجل لتغادر الغرفة دون الالتفات إليه.

هذه المخلوقة الصغيرة الضعيفة التي يتكفل رعايتها وإعالتها، تستطيع أن تقلب حياته رأسا على عقب. ولا يتبقى حينها أمامه، وككل مرة إلا أن يطلق طفلا مشاكسا عنيدا يقبع في داخله، يدرك استحالة عيشه بدون أمه. يغتاض. ارتدت ثوبها وجهدت للامساك بنهاية السحاب لتجره إلى أعلى.

- أنا عند بشرى إن احتجت لشيء.

مرت بالفرشاة سريعا على شعرها. أخذت بطرف اصبعها مسحة من الكريم المرطب، ثم أحكمت غلق العلبة وأعادتها إلى مكانها بهدوء . فركت الكريم على عجل بين كفيها ومن ثم وجهها، وجانبي ذراعيها.

صعد بجذعه أعلى السرير، حموضة معدته تحرق بلعومه، سمع صوته:

- أليس من الأفضل حزم الحقائب بدل قتل الوقت بهذا المشوار والهذر؟

- ..

- هل جننتِ، لعلمكِ القرار ليس قراركِ، بل قراري.

تركت الباب مشرعا وخرجت.

وفاء

تتلفت حولها وهي جالسة مع ابنتها في الباص. يتفحصها النازل والصاعد. هي علامة فارقة في الطريق. يشير الكل إليها... قضمت لحمة برزت من استدارة ظفر سبابتها اليمنى.

... **هم لاشك يميزون الغريب عنهم.**

... **وأية غربة.**

تجرأت ورافقت الطفلة المشوار القصير إلى مركز المدينة. ظنت الجو باردا جدا. دثرتها بأثخن ما لديها من ملابس. اتكأت على طرف من المصطبة الباردة تراقبها. المكان كان مزدحما. تدور البنت حول نبتة صغيرة وتقرر لنفسها قانون اللعبة. ارتخت قليلا وابتعدت عنها. شعرت بشيء من الدفء. لم تكن الشمس مباشرة لكنها أرسلت نورا صباحيا غمر المكان.

... **يقولون إن مانشستر والمطر لا ينفصلان.**

ألقت بظهرها إلى الوراء.

في وداع الأهل، تأكيد على حزن الفراق. وهو بدوره كان تأكيدا على دفعها للتفكير جديا بالبقاء هنا.

... يقولون فرصة.

رفضت الفكرة، وضحكت لبكائهم. أكدت للأهل عودتها بمجرد انتهاء زوجها من بعثته.

... ثمانية أشهر لبحث علمي في جامعة إنكليزية. شهق الكل من أجلها، زيارات وسلامات، وتمنوا حظا يوافيهم، كما وافانا.

وأي حظ، تشك في مسألة الحظ هذه. زوجها يجيد استخدام علاقاته وتوظيف قدراته.

لم يكن يعنيها السؤال عن ذلك. ذلك هو جزء من أسلوب تعايشها مع ما حولها.

****

يحدثها عما يجب اتمامه قبل السفر. حلق لحيته في الحمام أمام المرآة، ألقت وجبة ملابس بحوض الغسالة، وحديثه مستمر.

أكد لها وأقسم بمقدساته بأن اختياره لتلك البعثة قد تم لكفاءته. خرجت بوجبة ملابس لتنشرها في الحديقة. عادت بسلة الملابس. حديثه الذي بدأه

لم ينقطع بعد. توسله من أجل إقناعها بالسفر بأساليبه القديمة ذاتها، الكلمات ذاتها، وماء الكولونيا الذي تعرفه منذ سنين، قد انتشر.

ألقت بكلماتها بملل وتركت المكان:

– ليتك تقلع عن أسلوب القسم هذا، والحلفان وراسي والمقدسات، أنت تبدو تماما كسمسار.

استدار نحوها بحركة فجائية، وهو مستمر بتفريش أسنانه، يتطاير رذاذ المعجون وقد فاجأها انفعاله:

– وهل أبدو كأستاذ أمامك لو أقلعت.

****

أسعدها النظر إلى فوق حتى الوصول إلى غيمة كبيرة تخللها ضوء الشمس. خطوط مستقيمة متباينة الأطوال. تأملت أشكال حلقات الغيوم المتصلة لثوان. لكنها خافت، خشيت أن تضل طريق العودة. عادت بنظرها إلى الأرض بسرعة. وكأن اتصالها بالأرض قد انقطع والطريق الوحيد الذي يؤدي بها إلى الشقة اختفى.

نظرت بحيرة إلى ما حولها، تفحصت واجهات المحلات الأنيقة وأناقة البائعات خلف الزجاج. نظرات غير متآلفة مع المكان. بعد أن تطرق ساهمة

تعود إلى وعيها قلقة. المكان يبدو دوما، ولأول وهلة، غريبا، تخشى فيه ضياعها.

... الغربة كان موضوع أغنية، أو قصة، له أثر بديهي في النفس.

اعتقدت بأنه التقليد الذي يشمل كل جزء في حياتها، كلمة غربة بحد ذاتها تقليد، لم تمس الإحساس الحقيقي بها يوما.

... أنا حديثة العهد الآن بالمفردة هذه.

ضحكت وهي تضبط نفسها متورطة في المزيد من الأشياء المخجلة، تعددت بشكلها وحجمها. لم تكفها ما تحمله من جهل معها، حتى انقذفت في كم هائل من المآزق، لم تخرج منها إلا بالإحساس إياه. لا تستطع سحقه وهو يتعمق فيها.

غطت كل وجهها بكفيها وزفرت.

تذكرت بأنها لم تراسل أحدا من قبل. انتعشت قليلا عندما فكرت بكتابة رسالة إلى أختها، وصديقتها بشرى. ممارسة تقليد كهذا يرفع من شأنها. يدخلها عالما مدنيا طالما تمنت أن تعيشه.

كانتا حتى آخر لحظة تغبطانها. تشككان في حيادية معاني وجهها وتأففها، وهي تنتقي ما لزم من احتياجات لتصفَّها في الحقيبة.

عندما خلدت إلى نفسها فكرت مليا بما قالتاه. حاولت إزاء الشك هذا أن تراجع بصفاء وصدق ما تشعر به، لكن السفرة لم تكن لتعني لها شيئا، لولا إلحاحه وإلحاح الأهل.

****

طلبتْ من امها إنزال الحقائب من على رفوف المخزن في الطابق العلوي، وضحكت بوجه امها لأمر هذه الحقائب الأزلية المعروضة للاستعارة دوما. ابتسمت الأم بدورها، وكأنهما قد تشاركتا معا مذ خلقتا بتجربة كل ما مر بهذا البيت. نمت أسارير أمها عن ارتياح، أدركت وفاء بأنها قد طلبت الرحمة في سرها لأبيها.

وضعت الحقائب المتربة جانبا. كانوا قد أنهوا تناولهم لوجبة الغداء للتو. تمددت على سرير أختها التي تصغرها بأعوام. الغرفة التي كانتا تتقاسمانها قبل زواجها تحتفظ برائحتها ذاتها.

... كم هي أمينة هذه الغرفة... بستارتها، مروحتها، وبلاط أرضيتها.

تساءلت في سرها عن سر ارتياحها. لم تكن ترغب حينها بالحديث. أختها تظن بأن الموضوع مثير. تنقلت عيناها ببطء بين سقف الغرفة، وتصدعات الجدران المصفرة.

أختها اختارت كاسيتا لمغن يصرخ في الغرفة بلحن راقص، كان له فعله بمداعبة حواسها، حواسها الكسلى. أختها التي يعذبها الحلم بالأسفار، ورؤية عوالم أخرى، أناس آخرين، تكذبها وتلح على سؤالها المعهود:

– ألم تملي البشر هنا، انهم جميعا متشابهون شكلا ومضمونا.

لكنها كانت متمتعة بشبع بطنها وجو الغرفة. تركت لأختها الحديث وهي تبحلق بالسقف. تتمنى لو تبقى حرة، منطرحة على السرير هكذا لأيام. تود استرجاع الشعور ذاك... نشوتها بشبابها، دلال البيت ورضاها.

خربشة اختها وانتقالها من حديث إلى آخر، المسجل الصغير الذي يملأ الغرفة بإيقاعات خفيفة، بعثوا فيها الخدر، أنسوها حيرتها قليلا.

الأخت كانت تحضر لامتحانات البكالوريا. دفتر أشعارها لم يفارقها. تركته جانبا، وجعلت هدفها الوحيد هو وفاء. تصرّح فجأة بأنه من السخف أن يقضي الإنسان حياته بالدراسة، محبوسا بين جدران الصف وجدران البيت، من البيت إلى المدرسة وبالعكس.

أختها تحرضها على هذا الواقع، وتسخر من تقليديتها. تضحك وفاء ساخرة منها، تجيبها:

– لو كان الأمر بيدي لما رافقته سفرته، وما الذي تعنيه مانشستر بالنسبة إلي. هل تتصورينني بمزاج سائحة حقا. وهل نصلح أنا وفلاح لأن نكون سواحا.

إن مجرد تخيل الأمر يجعلني أضحك من أعماقي سخرية بنا كثنائي. أتخيله وهو يلف يده حول خصري ويشير بيده الأخرى إلى... ماذا، لا أعرف عن معا لم المدينة شيئا مما تعرف به غير اسمها. وتخيلي بأننا نسير بحقائب سفر شدت على ظهورنا، نحمل كاميرتنا بيد، ونأكل ساندويتشا من فم بعضنا كما الأفلام. لو تنشق الأرض لتبلعني لكان أفضل... ثم ما الذي تودين تجربته حقا؟

تتمدد الأخت بجانبها على السرير، وأمامها لا تملك وفاء إلا أن تبدو كبيرة في السن، يضحكها ما تلقي به اختها الصغيرة من حماقات، وهي تقول:

- حبيبتي، على الأقل لن تسمعي الحديث الساخن عن شرف المرأة، الحلم بامتلاك غسالة أو مجمدة عمودية، نعمل مدى الحياة في سبيل ألا تفرغ من اللحم، العروبة والأمة العربية، منع السفر وطابور توزيع المؤن الشهرية، برامج التلفزيون، لف ماطور سحب الماء ومبردات الهواء، معجون الطماطة، ست البيت وإطارات ديوانيه، سجائر سومر، وطرق تجميد الخضراوات، رجال الأمن، وأزمة ملء قناني الغاز وحسرة الماء الحلو ووو...

لم يكن يعنيها ما يحاول الباقون بسطه أمامها. ولِمَ بسطه فهي لم تكن بعيدة عما يدور. لم تستطع تحديد الجانب الفعلي لاستثناء الظروف لها. أكدت لزوجها ولهم مرارا ما أكدته لنفسها.

تقدير درجة سوء الحال تختلف من شخص إلى آخر، وهي لا تراها في هذا الحال بتلك الدرجة من السوء.

– لا يعنيني شئ من ظروفنا الصعبة التي نعيشها، مادام الأمر يشمل الجميع أو على الأقل أهلي وناسي. لا تحاولوا، لو كان الأمر كذلك لما استقر الحال بأحد.

كانت تود لو اقتنع فلاح بفكرة بقائها لحين عودته.

****

رغم الصيف بدا لها الفصل، بالمطر، لون السماء، وخلو الهواء من رائحة ما شتاء.

عادل وأحمد اللذان استقبلوهما في المطار ، ورافقوهما جولاتهم المعدودة، أكدا لها بابتسامة حقيقة الجو هنا. قالا بأنها ستعتاد ذلك بمرور الأيام.

نهضت من مكانها في السنتر. دست يديها في جيبي معطفها الخفيف. تحسست بطانته، له ملمس ورقي، ما يدشن لأول مرة. نظرت إليه بإعجاب، رفعت شعرة عالقة بعناية. كانوا قد ابتاعوه في الأسبوع الأول لوصولهم مع قطع ملابس أخرى. لم يكن سعره هينا. كانت الحاجة إليه ضرورية جدا. ترددت كثيرا في شرائه لولا إلحاح فلاح.

الشعور بالقلق، إزاء المكان، الجو، والناس، ضاعف من حذرها في استخدام مصروفهم تحسبا للطوارئ. أقصى ما تحتاطه في حياتها هو ترشيد استهلاكهم. لعله أقصى ما تستطيع فعله عندما تشعر بالخطر. حذر يشبع رغبة ملحة بداخلها للاستقرار. أو هو اتخاذ جانب الأمان الذي تميل إليه في سلوكها دوما. خوفها يشبه صمت هذا المكان. خوف على ما تملكه، وخوف مما سيأتي يتكرر دوما.

...كما إن التبذير لا يعطيني ذلك الإحساس بالمتعة. هو ليس من حقي. بل يسلبني الشعور بالتوازن.

ابتسمت وهي تتذكر صديقتها وكادت تميل.

... شهران قد مرا وأنا على حالي، ها أنا في أوربا يا بشرى... لو حللتِ محلي لعرفتِ الآن أسماء الشوارِع والمحلات، وضحكت عاليا. لحللت لغز أنظمة المواصلات، البريد، والمكتبات.

تسمع صدى همسهن.

... وما الذي سيضيفه لي بقائي هنا، استلقائي في حديقة، أو تنزهي، وتسوقي.

تحسب بشرى أكثرهن توازنا، رغم أنها تجهل عمق معنى الكلمة. انه ببساطة يعني أقصى الإحساس بالأمان بالنسبة إليها. لكن هذا الإحساس سرعان ما

يختفي، إن لمسته. خوفها أزلي، حتى لغياب طفلتها عن نظرها، سماع جلبة في الجوار، أو لسماع رنين التلفون في غير أوقات النهار.

... أخال توازن بشرى يكمن في التمتع باللحظة، وان كلفتها ماديا مثلا.

لا تدري لم تراه بهذا الشكل عندما تبدأ بالمقارنة.

بشرى تحرص على جعل لقاءاتهم في بيتها تقليدا. جزء من متعة خاصة لديها. لكنها ترى في ما تنفقه بشرى في تلك اللقاءات هدرا للمال.

... في معظمها كانت العدوى تنتقل إلينا لحظيا، فأشعر بأننا نتحرك بحرية محسوسة، أخجل من مسك نفسي متلبسة فيها. نشوة ذلك الإحساس تحرجني، حيث لا حذر حاضرا ولا حسابات اعتدت عليها.

... نموذج هذين الزوجين غير طبيعي، يجعلني دائمة التفكير في نفسي. تراها كيف تعلمت كل هذا وممّ؟... مم وهي اليتيمة الآتية من الحلة، من ذاك البيت المتداعي.

عندما أسرّت لها بشرى مرة بأنها تشارك خالدا كأسه شهقت في سرها، وظل صدى ذاك الحديث ملازما لتفكيرها يومين أو ثلاثة، تعيد تخيله بحذر.

قالت لأختها بأن نظرة بشرى وخالد للأمور كانت تختلف عنهم وعن الباقين. الأحداث تأخذ تعريفا، ورد فعل آخر في بيتهما. لا يشوبها ارتباكها، خوفها، وحساباتها، بما فيها تعاملها مع فلاح. تعامل بشرى مع خالد أيضا

كان غير اعتيادي بالنسبة لها، ما يجعلها في مقارنة دائمة. بشرى لا تتردد بانتقاده وإحراجه أحيانا بوجود الجميع. وما يثير استغرابها تقبله لذلك، من دون تحرج ملحوظ لهم من جانبه.

...آه....في تلك اللحظات أشعر بتذبذبي... والشعر حر قد تناثر خصلات طويلة فاحمة حول وجهها، يحاول الرجال ألا يقطعوا حديثهم الذي أقحمهم سالم به عن الطلبة والمستوى العلمي... تعود هيام فجأة إلى هدوئها، تهب بشرى بفستانها الضيق الفاقع اللون لتؤكد رفضها لاعترافاتنا بتقدم العمر بنا، أنتبه إلى أنى لم أتكئ في جلستي على المقعد طيلة الساعة التي مرت، وان خالد ما انفك يملأ الكؤوس للرجال، ولم تبن إلا العينان المكحلتان لبشرى، ونشوة خالد المستترة وهو يتأملها، وفلاح ينقض على صحن الفستق، وهو يظن بأن بشرى مجنونة حقا، وهي ترفع طفلها من على الأرض وترقص معه بخفة:

- لن تفهمن، الحياة قصيرة.

...كيف يمكن أن يعي الإنسان ذلك، هل تعني ما تقول، ليس هناك ما تخفيه، إنها تؤكد لي في كل يوم جهلي.

****

نظرت إلى ساعتها، حتى الشعور بالوقت بدا مختلفا لديها. بل إن جسدها ومنذ أسابيع عدة يعلن عن اضطرابه. راح يعطي إشارات خاطئة للجوع والعطش والبرد.

أمسكت جيدا بالبنت وتوجهت إلى موقف الباص. تحاول ألا ترفع رأسها عن الأرض، فرحة لمرورها بكل الشواهد، التي تؤكد لها ذات الطريق الذي سلكته بالمجيء.

إنجاز كبير قد حققته بإتمام مشوارها بهذا الوجه. خطت باتجاه مدخل البناية متوجسة. مجرد رؤية مالك البناية ترعبها. هذا الايرلندي الأحمر السمين لا يطيقها. يسكن سرداب العمارة، ويؤجر شققها للطلبة. اعتاد أن يقوم بتنظيف المدخل والسلم في هذا الوقت. يمنعها من الدخول أحيانا وهو يتشاغل بمكنسته. تخشى قول كلمة، ترتبك وهي تنتظر إفساحه لها المجال لتصعد.

وثبت وهي تصعد السلم حاملة ابنتها. شعرت بارتياح لعدم مصادفتها إياه هذا اليوم. وكأنها أفلتت من قبضته. أنزلت صغيرتها، ودخلت البيت مبتسمة تطبطب على مؤخرتها. اصطدمت بزوجها الذي وقف عند المدخل الضيق مع عادل، خطر ببالها حدوث أمر ما، إزاء تلك النظرة التي حملتها عينا فلاح:

– لقد دخلنا الكويت.

أوشكت أن تطلب منه، وقبل أن يتفوه بكلمة، التدرج بنقل الخبر أيا كان. لكن... وضعت المفتاح على الطاولة بهدوء. جلست مباشرة على المقعد القريب، فتحت عينيها وصمتت وهي تنظر إليه، تحثه ليعيد ما سمعت. نظرت إلى عادل، بلعت ريقها. كانت تريد أن تسأل، ترددت، لكنها فكرت بأن هذا الصديق هو من أقرباء فلاح، ولا يسكن العراق، فسألت:

- احتلال؟

- هكذا سمعنا، نبأ ضم الكويت إلى العراق.

هيام

لم يوقف الناس عاشوراء، ولم تنتظر إحداهن فرحة الزهراء. استقرار النفوس نوعا ما دفع الملأ لخلق الفرح.

جلست ظهرا وحيدة بعد أن أسدلت الستائر. أطفأت شمعتها السادسة والعشرين. قطعت قسما صغيرا من كيكة الثلاث بيضات، أعدتها بعناية وراحت تلتهمها على مهل.

... **قصتا حب عارمتان يا هيام، وثالثة هادئة فشلتِ فيها جميعا.**

لم تستطع أن تقنع نفسها بضرورة الفرح هذا اليوم. كان من البديهي عند هيام أن تحتفل بمناسبتها هذه، وان كانت وحيدة. تقليد ابتدعته لنفسها منذ سنين، كاسيت بموسيقى شرقية تدفعه في مسجلها فتنساب مع اللحن لترقص لنفسها طربا أمام مرآة خزانة امها. ترتفع الذراعان الطويلتان، يتقاطعان بتقسيم هندي، بايماءات الأصابع يلتقيان وينفتحان كجارية عباسية، ثم يعودان ليرسما تفاصيل جسد ناحل طويل أندلسي.

زغاريد الأعراس تملأ أذنيها، تتردد في الشوارع. غناء النسوة يسمع من فتحات الأبواب، والسطوح الواطئة المفتوحة على أحواش الدور، والنوافذ المشرعة.

عودة الأسرى ودفعات التسريح تتوالى بعد مضي ثمان سنوات من الحرب.

اليوم بالذات ألح القلق بملاحقتها وهي تدور في المنزل. وأخيرا اضطرتها الشمعة والصحن وصورتها بالمرآة لأن تعترف:

- حسنا حسنا، هي ليست وحدة أمي فقط، لا ولا عمري، لا البيت ولا الأطفال، ولا نجاة المسكينة، أظنه الرجل، رجل ما، هو ما أريد.

خلا البيت. وجدت نفسها مضطرة للوقوف متخذة هيأة مرافعة. همت بالكلام لكنها وجدت ارتقاء الكرسي، والجلوس من ثم على طاولة الطعام الصغيرة أفضل. وضعت ساق على ساق وبحركة مسرحية أطفأت شمعتها وهي تنشد:

– هي روحي التي أريد أن تسلب يا عالم.

****

وقعت في حب سالم، مباشرة بعد المكالمة التلفونية التي أجرتها بشرى معها. فصلّت لها بشرى الحبيبة مواصفات المتقدم. أعدت تلك اللعينة خطة بسيطة قبل اللقاء الأول، تستطيع من خلالها إلقاء نظرة عليه. أحلامها تنتظر. جاهزة للتطبيق. طرزتها على فرشة السرير وهي بجانب امها.

والأم تغض النظر عن شرودها، لتدعو في سرها بأن يتحقق حلم الفتاة. تابعتها بقصص حبها جميعا. البنت لا تملك حظا، تبحث دوما في ثنايا ملابسها وكتبها عما إذا كانت إحداهن قد دست بعمل يرد عن ابنتها الرجال.

في اللقاء الأول لها به، ومباشرة تأكدت من ولهه وجنونه.

... بعد أن عثر أخيرا على كنزه.

كانت هي ما يبحث عنه.

... العينين، الشعر، والقوام.

مرت بذاكرتها سريعا تتأسف لهم جميعا، عشاقها، من رشفوا عسلها، تاهوا في عينيها، شربوا دموعها. تثبّت إكليلها، تتأسف خسارتهم لها، ترفع طرف ثوب الزفاف من الجانبين وتنحني برشاقة لهم.

يطبق الستار وتغيب.

****

شرعت تبني عشا بسيطا تحاول بكل ما لديها من قناعة وصبر موروث أن يكمل. تتمتع بأبسط المهمات التي تنجزها بالبيت. تغازل قطعة الأثاث التي تأتي بها، بعد الدخول في معارك الاستلاف، والتوسط من أجل أن تتقدمهم في حصولها عليها. تدور حول كرسي جديد جاءت به للتو. تراقصه وتعيده، لتنتقل إلى لوحة، تغني للفتاة التي تنام بداخلها قبل أن تعلقها. تنقل أحلى وصفات الأكل إلى دفترها.

لا تغفل في نهاية يومها عن احتياجات زوجها، الرجل الذي انصرف إلى عمله الذي بدأه صباحا في الجامعة وأكمله مساءً في البيت.

****

لمعة الأخشاب بالغرفة تنبئ عن عرس جديد. بياض الجدران ودانتيلا الستائر وقميص النوم الشفاف يشي بخفر العروس، و"سالم" لم تسكنه إلا فكرة واحدة، ألا وهي الحصول على أمر نقل إلى بغداد، منشأه وحلمه.

وأنى لها أن ترفض، زاد ذلك من همها فالأمر يتطلب واسطة كبرى، أو سنوات عديدة من الخدمة. لقد اضطروا أمام أزمة السكن وارتفاع الأجور للبقاء مع الأم في بيتهم القديم في المشراق لحين تدبر أمرهم.

لكن سالم ضاق بالمحلة القديمة وساكنيها ودكاكينها ومجاريها، والبيت المظلم منذ الوهلة الأولى. وبعد محاولات عدة واحتيال، أقنعته بضرورة تقديم طلب للحصول على سكن في حي الأساتذة، ريثما تتوفر فرصة نقله. لأن حي الأساتذة، القريب من باب الزبير، ينفرد بكونه سكنا خاصا بأساتذة جامعة البصرة وعوائلهم. يقع ضمن مربع كبير مسور، يحوي كلية الإدارة والاقتصاد والآداب ومركز دراسات الخليج العربي. منعزل عن مركز المدينة، آمن وراقي، في زاوية على اليسار من مفرق ساحة سعد.

لكنه قال بضيق:

– ولِمَ ساحة سعد؟

– الناس مازالت تطلق عليها هذا الاسم، لأن سعد بن أبي وقاص كان هنا هو وسيفه، قبل أن يرفع من مكانه في الوسط ويستبدل بنصب الفارس العربي.

وسالم برغم ما قالته بدا غير مقتنع.

– لكن لم يمض على مباشرتكَ لعملك إلا القليل.

الاقتتال كان قائما بين منتسبي الجامعة من أجل الحصول على بيت في هذا الحي.

– لتميزه بمرفقات عصرية عملية، كالتكييف والأرضية المفروشة. والمحيط بشكل عام هادئ.

لم تجرؤ على التفكير، سواء في صحوها أم نومها، بمصير امها. كانت تتخيل بيتا صغيرا تدور فيه وتقرر وحدها. عندما يدغدغها حلم كهذا تحاول بتركيز شديد إقناع سالم من جديد بتكرار المحاولة، والتوسط وتذكيره بإيجابياتها.

– كما سيوفر سكننا هناك مبلغا لا بأس به.

يبتسم سالم لكلمة وساطة. تعتذر له.

****

أشهر العرس الأولى تفتح شهية كبيرة للجنس، للحياة والفرح. حيرة هيام كانت بالطريقة التي تشبع فيها هذا الإحساس تماما.

اعتاد الناس من حولها الإعلان عن الفرح. تفريغه. دفعه إلى السطح. مشاركة الآخرين به. اعتادت هي أن تجعله فساتين ملونة، قمصان نوم شفافة، ملابس داخلية بألوان أيام الأسبوع، تسريحات شعر بورود زاهية، بوجبات أكل منوعة، بدعوات تنتظرها لتلبيها بامتنان، وأحاديث تلفونية، تنقل بها ما طرأ عليها من جديد. تسره لوفاء، بشرى، جارتها، وصديقاتها في العمل.

سالم، وهي تحاول متفائلة أن تَفْهَمه، اعتاد علاقة الداخل بالداخل في الفرح والجنس والحياة، أو إنه لم يألف الجو بعد.

ضاق بكل هذه الالتزامات والاعتبارات، احتفظ بصداقة خالد التي تعود إلى أيام دراستهما، وقد كانت شبه الوحيدة بعد عودته واستقراره هنا. عزف عن متابعة أمر الدعوات والزيارات، ولم ير فائدة ترجى منها.

بتوسل منها يؤجل قراءاته وعمله في بعض الأماسي ليرافقها إلى النادي أيام الخميس.

****

عملت حماما زيتيا لشعرها بعد عودتها من عملها. انتقت البدلة التي ارتدتها عندما زارها أهل سالم أول مرة. رسمت عينيها وحددت شفتيها، ولبست كعبا واطئا جدا ليبدوان متناسبين قدر الإمكان. أمسكت بذراعه، ودخلت نادي الأساتذة بانتعاش.

احتفالات المؤسسات بمناسبة السلم لم تنته منذ سنة. ابتسامة عريضة وزعتها على أساتذتها سابقا وسيداتهم.

عندما اختلت ببشرى ألفت نفسها تقول وهي تتنهد:

– هواء البصرة لا يناسبه، والرطوبة تجعله قلقا على صحته دوما. ينتقد الشوارع، وزملاءه وطعم الماء. لا يرضيه شيئا هنا

و...

– خلافه مع أمي مستمر، أمي ليس لها غيري، يستنكر تزاور الجيران. يظن جيراننا غجرا. أمر بقفل الباب واختصار المكالمات التلفونية.

بشرى تؤكد بأن اختلافهما طبيعي، وتعزو جزءا منه إلى السنوات التي عاشها في الخارج.

– وهل تدعوه تلك السنوات لأن يغلق الشبابيك من أجل ألا تدخل أصوات الغناء، العزف والأطفال، والطبول.

تقلب بشرى الجد إلى هزل وهي تذكر لها أسماء من تعرفت عليهم من تلك الفرق التي تحيط بسكن هيام وتمريناتهم، إضافة إلى بعض الشخصيات اللامعة التي تستوقف المرء في الفرع الذي يسكنون فيه. وتضحك الاثنتان.

بشرى لا تترك لهيام الفرصة لتفسد ما بداخلها من إحساس. أوصتها بأن تتمتع بتألقها الذي بدا واضحا تلك الليلة، وتنسى سالم. بشرى تفلح بإعادتها إلى فرحها الداخلي فتأخذ نفسا عميقا.

****

أملها لا يخبو أبدا. يعود خيالها لينتعش من جديد بأمسية جديدة يقضيانها خارج البيت، فتحاول هيام أن تبتعد قدر الإمكان في حديثها عن أمها ومشاكل العمل والبيت ونواقصه. تطلب عشاءً لهما. تتأمل النجوم، تضغط على زنده وهي تترنم بنغمة خفيفة بالقرب من أذنه. تلوح بيدها لسيارة أجرة على عجل. يرفض السائق كالعادة الدخول في تلك الأزقة. يصلان البيت في ساعة متأخرة. يدخلان متسللين إلى غرفتهما. تشرع بخلع ملابسها على مهل، مبتسمة له بين الحين والآخر.

لا تفهم ما الذي يدور، و في كل مرة، تكون بعيدة جدا عندما تصحو، وبوعي جزئي تسمع صوتها وحيدا، يمارس الحب بإحساس آثم. تهمي دموعها، تنزل بقميصها المنحسر إلى أسفل، وهي تدندن بلحن حزين.

****

مساء الخميس الذي يليه تضيق بها حديقة النادي وتتسع عيناها وتدوران باتجاهه أقصى الطاولة، تقول لبشرى بصوت خافت:

- راضخ مستسلم متذمر دوما.

أما في المساءات التالية فلم يستطع جسدها أن يتمايل مع كلماتها. تهدج صوتها وساح مكياج عينيها اللامعتين اللتين دارتا لتستقرا في عيني بشرى، تنقل لها حرارة ما تقول:

- أردته أن يعبر لي عن عاطفته بكلامه، إحساسه ولمسه... وهو يدقق كثيرا في فتحات الصدر والأكمام من ثيابي، انه... يشمئز من عريي.

تمتلئ عيناها بالدموع.

تعود لترتمي في الفراش يأسا. تنام وهي بكامل ملابسها ومشد الصدر، ودون أن تقوى على غسل مكياج عينيها وبشرتها، والسبريه في شعرها.

****

سمعتْ الكثير عن وسط الأساتذة وعائلاتهم عن طريق صديقة الدراسة القريبة إليها بشرى. بشرى اقترنت بأستاذها، وهي لم تزل في أولى مراحل الدراسة في الكلية. أعجبها ذلك كثيرا. كلتاهما في مرحلة وشعبة واحدة. ذلك جعلها تسبح في خيالات وصور عن علاقة بشرى بأستاذها. وقد جعلها ذلك تفكر بشدة متمنية الدخول بعلاقة مماثلة. تستمع بإنصات عن خفايا وغرور ذلك الأستاذ الضخم الجثة، الأشعث الشعر، والعبوس. ما تذكره بشرى يجعلها

تشكل سيناريو طويلا يغذي روحها. تسمح فيه لنفسها بخيانة بشرى في اليقظة لتحل بطلة محلها.

لأن بشرى لم تتقمص الدور تماما، لم تعطه حقه. عابت عليها استخفافها بالحب. ما هو أمامها قصة حقيقية كان بالإمكان أن تدمرها لو حلت محلها. أيام كانت ملهمة وغريبة. كانت بشرى تسكن معهم، فتعيرها أجمل فساتينها وتصفف لها شعرها، وتشيعها بنظرة إعجاب عند الباب وحتى تغيب عن نظرها، ذاهبة إلى موعدها.

****

جاء زواجها بسالم مناسبا جدا، لم يحتج إلى تفكير. بل إن الحجاب قد فعل فعله كما قالت امها، متوسلة بالمرأة كي تكمل عملها بإتمام تلك الزيجة.

انتماؤها إلى الوسط جاء متأخرا. أكدت لها الكثير من السيدات تمتعهن فيما مضى بكثير من الامتيازات حرم منها ذوي الكفاءات الآن.

- وما الذي يمكن ضمان بقائه في هذه الأيام.

تعلق الأم ...

- طول عمرنا قرارات تروح وقرارات تجي.

هيام كانت تعد ضمن وجبة السيدات الشابات الدخيلات على هذا المجتمع، اللواتي يقاتلن بشبابهن، بتطلعهن وتمردهن. وقد كان وراء ذلك دفعات أساتذة، ومقيمون مقتدرون في الخارج، عادوا ويملكون أن يختاروا بسبب الظروف الاقتصادية التي يمر بها البلد، والشباب الذي استهلك في الحرب. ولم تتوان سواء الخريجات الجدد، أم اللواتي كن مازلن في المراحل الأولى من الدراسة باتخاذ قرار الزواج بدون تردد.

****

تتنقل من ظل إلى آخر وهي تعود من عملها سيرا على الأقدام. كان المختبر الذي تعمل فيه يبعد نصف ساعة سيرا معتدلا، وبالإمكان اختصاره إلى ربع ساعة، إن كوتها الشمس.

نصف الساعة التي تقطعها يتخللها المرور بالسوق. أمها لم تعد تقو على حمل ثقل، وسالم لا يفهم في مثل هذه الأمور، ولابد لأحد ما من القيام بتلك المهمة. كانت تأمل بأن يعتاد سالم بالتدريج عليها.

... وحينها تحل الكثير من الأمور.

... وربما قد تم شراء الأساسيات. ما تبقى هو تسديد الأقساط الشهرية.

لكن المهمة الملحة، والتي يئست من إيجاد حل لها هي السيارة. كان تدبير مبلغ لشراء سيارة ضربا من المستحيل.

...سالم لم يكف عن تسمية هذا النقص بمشكلة.

مشكلة تسببت في جميع أزماته في الفترة الأخيرة. الطريق إلى الهارثة حيث الجامعة متعب. عشرون كيلومترا عن ساحة سعد ولم يتوفر، منذ انتقال الجامعة من التنومة إلى هناك، خدمات نقل للأساتذة والطلاب.

... يجب إيجاد حل ما.

وبالرغم عنها تحاكيها الشوارع بصورها الملونة، تقول لها ألف حكاية، سرعان ما تسرح معها، تندمج فيها وتنسى همومها.

تدخل السوق ليبدأ هذا العرض الرائع المستمر في الحر والبرد، في السلم والحرب. تقف متكيفة في الطوابير، ترصد حركات الناس، طريقة لباسهم، تعرف حركة ذاك القصاب الجسر، وبائعة الخضرة العمياء، والدجاج المحشور بأقفاصه، والخياطين، والنجارين، وجوه كثيرة تشعر بأنها تعرفهم ويعرفونها.

ينتهي السوق لتدخل محلتها التي تغص ببيوت الفرق الشعبية والمغنيات والراقصات السمر والسود الذين يحيون حفلات الأعراس والمواليد. وهاهي تسمع صوت طار ودف هنا، وعود وكمان هناك.

... مسرح بدون خشبة... هو أقصى ما أحلم به.

تشعر بالرضا، والامتنان لهؤلاء البشر، لتلك الأشجار والنخيل، وحتى الحيوانات الأليفة التي تصادفها، عندما تمدها بكل هذا الدفق من السرور والحيوية. تضحك مرة، ويتجهم وجهها مرة، تتصل وتنفصل، تقبل على طفل قد أثارها بطفولته، لتقبله، تشمه وتسمع أمه كلمات حلوة.

لم تستطع احتراف التمثيل رغم عشقها المطلق له. ذلك الشوق الخفي الذي يشبه العطش الحارق الدائم. كأنه افتقاد مستمر لأمر ما. كان الوقوف على خشبة المسرح حقيقة تجد فيها هيام التي تحب، تبتسم وتعيد حركتها، تميل ويطاوع الجسد، تبكي لتفجر الإحساس المتراكم بداخلها للحب والحزن والفرح.

يجب أن تختار دراسة تضمن لها مكانة مقبولة في المجتمع. دعت المسرح حلم حياتها جانبا. هذا ما لعائلتها الحق في أن تفرضه عليها. كما أن نشاط أحد أخوالها المعارض لم ولن يعطيها فرصة عادلة، كما حرمها من حقوق أخرى كثيرة. اكتفت بفرص بسيطة لا تتعدى حدود النشاطات المدرسية. كانت تؤلف وتخرج وتمثل في آن واحد. الكل كان يشهد ببراعتها في تقليد مدرسات المدرسة جميعا، وفي إلقاء الشعر والغناء.

المخرج الذي دخل الإعدادية، ليختار اثنتين من بين المتطوعات لتأسيس فرقة للشباب لم يتردد لحظة باختيارها. بعد الاختبار الذي نال استحسانه، علم بأنها ورثت عن امها صوتها القوي المؤثر، وعن أبيها قامته الفارعة.

لم تشأ إخبار امها أول الأمر بأن المخرج، ذا اللحية المشذبة بعناية ودقة، قد أحبها مذ سقطت عيناه عليها، قالت فقط إنها شعرت بدوار.

ذاك الدوار صار عشقا عنيفا، لم يكن لينتهي لو لم تضطره الحرب إلى الابتعاد عنها، والسفر إلى حيث تجهل. المخرج المحترق دوما قال لها بأنه سيبقى ليعمل من أجل البصرة ومن أجلها. كان في قلبه حنق كبير لهجرة الفنانين إلى بغداد والخارج، لكنه اختفى فجأة أيضا.

****

تدخل الزقاق المؤدي إلى البيت. تبادرها أم حسين بتحيتها من خلف علب العصير والمعجون في دكانها، تستوقفها للحظات لتسأل ويأتي جوابها المعتاد:

- نشكر الله.

وعما إذا كانت وجبة الطرشي قد جهزت.

يخفت صوتها، الطرشي كان يضايقها لأنها كانت مضطرة على إبقاء أمره سرا بينها وبين أمها. اتفقتا على أن يبقيا الأمر بينهما فقط، من دون علم سالم،

بما أن سكنهما هنا سيكون مؤقتا. ولتأكدها من اعتراض سالم، كانتا تتسوقان، تكبسان الخضار وتنقلان الزجاجات إلى أم حسين سرا.

... كان سيعتبره عملا منقصا، يتعارض مع مكانته.

وأم حسين، صاحبة الدكان وسيجارة اللف، الساخرة حتى العظم، مطت شفتيها. لم تبد اعتراضا يومها بشأن ما طلب منها عدم قوله. لكنها اقتنصت زيارة لهم بعد يومين لتروي، لسالم بالذات، قصة ابنها حسين المطيرجي، الذي صار حرامي بعد تسرحه من الجيش، بسبب العرق والحمام. وابنتها نجاة، الملاية العاقلة الرزينة، التي صارت مسؤولة في اتحاد النساء.

- نجاة الفقيرة التي ضحكوا على عقلها فألقت العباءة بالتنور، ولبست الكعب، وسرحت الشعر، وأخذت تدور بين البيوت لتجمع التبرعات للحرب والحزب. التي ضحكوا على عقلها فأقنعوها، هذه المسكينة، بلصق صورها على حيطان المحلة، وأعمدة الكهرباء.

نجاة ذات الوجه الناشف الحزين والصوت الرخيم الباكي، الملاية الفقيرة التي تعدت الخامسة والثلاثين، كانت ترافق أم هيام في الموالد والفواتح. أعرضت ذات يوم عن الذهاب إلى فاتحة طلبن فيها.وعندما نادت أم حسين على أم هيام لتأتي وترى ما أصاب ابنتها، تناوشت هيام عباءتها من المطبخ وسبقتهما لتطمئن عليها.

وجدتها منزوية على الأرض في ركن من الغرفة، منفوشة الشعر، منهكة القوى اثر لطمها.

طلع صوتها مبحوحا من حنجرتها وهي تنبش بعصبية الحصيرة التي تفرش أرض الغرفة:

- ملّيت، ما أريد هالعيشة بعد. مليت البجي واللطم.

لم تحول بصرها عن الحصيرة، فانصرفت هيام.

حسين المطيرجي المخبل لم يحتمل كل ذلك العار بسبب ما حصل لأخته حينها، فسكن مع الحمام فوق السطح. وعندما تشيّمه قنينة العرق وتشعره بأنه رجل البيت يُسمَع صوته في كل المحلة وهو يهدد ويتوعد امه واخته، لكن صرخاته وهو يفر من ضربات امه كانت تجعله يختفي حتى من سطح البيت لأيام.

****

حرارة آب حالت دون نومهم على السطح. النوم في الغرف، سواء تحت رطوبة مبردات الهواء، أو لسعة هواء المروحة الجاف كان يجعل جسدها متيبسا كالخشبة في الصباح. تمشت هيام بكسل إلى المطبخ. تغلي الماء وتعد الفطور، إبريق شاي صيني بماء عادي لها ولامها، وابريق شاي صغير بمياه معدنية لسالم.

في داخلها فرحة صغيرة بائتة منذ الأمس لما ستعده من فطور، فقد خبزت أمها عصر الأمس. كانت وجبة لا تخبزها إلا الخبازة، كما قالت لأمها. نار التنور والعجين لم يخذلانها هذه المرة. عادة الخبز لجأ إليها الجميع أثناء الحرب، واستمروا فيها حتى بعد انتهائها. واشترت هي عند عودتها من العمل قطعة جبن أبيض طازجة من بائعة معيديه تجلس في مكانها المعتاد عند مدخل السوق. أصرت على أن تذوق هيام الجبنة من يدها قبل أن تمشي في طريقها. تضحك هيام لمحاولات البائعة المكشوفة . كانت دائما تضعف أمامها، ولأن المعين الذي يعمل في المختبر خصها أيضا ببضعة أعواد من النعناع النضر الذي زرعه في حديقته الصغيرة خلف المختبر.

ضغطت وهي تتثاءب على زر الكهرباء لتدير جهاز الراديو، فتحت المجمدة وأخرجت قطعتي رغيف. فرطت بيدها أوراق نعناع تضوع عطره.

... ما هذا الذي أسمعه... جنون والله.

صاحت من مكانها في المطبخ بهلع:

– أمي، يوم، يمة... هل سمعتِ... دخل الجيش إلى الكويت.

سالم

عاد إلى صحوه وهو يرى يديه المتعجلتين ترفع بملابسها إلى أعلى بطنها. تنبه إلى تعرق جسده الملتصق بنصفها الأسفل. أنين ضعيف يصدر من أعماقها بين الرفض والرغبة وهي نائمة. تحركت حركة خفيفة جعلته يرتجف، يهتاج. يلجها. أغمض عينيه، كتم لهاثه بدفن وجهه في طيات قميص نومها المتجمع أعلى ثديها الأيسر... تقلصت فكاه، غاب في أجزاء الثانية وهو يحبس صوته.

مسح فمه بقميصها، سمع ضربات قلبها المتسارعة. تحركت تنوي إبعاده عنها. استجمع أنفاسه وهو ملقى على جسدها. هدأ قليلا، سحب جسده ببطء عنها.

شدت بملابسها إلى الأسفل، وهي تسحب لفة ورق الكلنكس بجانب رأسها.

تحسس نظارته وهو ينهض، اخترق الظلام بصعوبة حتى وصل الحمام. مصباح الحمام خافت جدا لكنه أعشى بصره. وقف أمام المغسلة ليغتسل على عجل. وكأنه رأى ظله في المرآة. عاد إلى الفراش لينام بعد أن سحب الغطاء الذي ألقته جانبا.

... شأنها دائما.

أغمض عينيه وهي تتسلل إلى الحمام. لم يتذكر متى عادت، وان كانت قد خرجت من الغرفة لتنام في الحوش.

عندما صحا صباحا تذكر فعلته مجددا. تضايق قليلا. بقي ساكنا جامدا في جلسته على طرف السرير. شبه اخضرار ذابل يلوح أمامه من النافذة المطلة على الحديقة الخربة الصغيرة. تتبعت عيناه خيطا رفيعا أسود من النمل. مر أمامه، متوجها إلى زاوية في الغرفة. خلف جبالا صغيرة من تراب خفيف هنا وهناك. تيبس رأسه الثقيل في مكانه.

... سيدخل يوما وينبش رأسي.

فرك وجهه بكفيه.

لم تمر إلا بضعة شهور حتى شعر بندمه في إقدامه على تلك الخطوة. فرك وجهه، صب قليلا من قنينة المياه المعدنية في القدح بجانبه. ما الذي أتى به إلى هنا. تحت سقف هذه الغرفة، في تلك المدينة البائسة، وسط أناس محدودين، بسطاء، أميين لا يمكنهم فهمه.

... كأنها مصيدة.

لو كان قد حصل على مكان مناسب هناك لما عاد بالمرة إلى العراق. لم يقّدر شأنه، إن كان هنا أم هناك.

الزواج لم يكن يوما هدفا، أو هاجسا. ألفى نفسه، بعد فترة من استقراره هنا، بحاجة إلى من يتولى شؤونه، لينصرف إلى عمله وإبداعه. لم يخطط كثيرا لذلك. قرر بأن يتم ذلك بوقت قصير، فكلف صديقا وزوجته بالأمر.

رشحوا المرأة له، شابة خريجة جميلة. رتبوا له فرصة للقاء بها دون علمها أولا. عندها أعطى موافقته لإكمال الترتيبات اللازمة بالحال.

اعترض على ضرورة مجيء الأهل، والحفل، لكنه اضطر للموافقة بعد إلحاح الأصدقاء. اتصل بأخيه وأخته ليحضرا مع زوجيهما. واختصر الحفل بحجز ليلة في الفندق.

في الليلة الأولى من زواجهما اعتقد بضرورة شرح ما سيقوم به للعروس. عزم رغم حرجه ألا يأتي على ذكر ما يخجلها، ومر كل شئ بهدوء.

****

وظيفة التدريس في الجامعة لم تكن ترضي طموحه. شروط التعليم تدهورت أكثر مما تصور. المدرس مجرد موظف في الدولة، لا يملك أن ينتقد أو يقترح. يلقن الطلاب المعلومة كببغاوات. لاحق أو مجال للنقاش مع طلابه. طلاب بلا طموح. إمكانيات فهمهم محدودة، وكأنهم مازالوا في مراحل الدراسة الإعدادية. لا يهمهم سوى تقييد الحضور، النجاح بدرجة مقبول، والتخرج. لا وقت للكتابة ولا الأبحاث، تدريبات مفروضة، وخفارات.

... كابوس.

... صحوي من النوم يوميا هو كابوس.

لم تستطع هيام فهم طبيعة عمله. لم تشعر بمأساته التي يعيشها في ظل تلك الظروف. كان قد أقصي من مكانه الذي يستحقه، ورشح غيره من الذين لم يكونوا كفؤا ليعملوا في هذا المجال.

... لكن عن أي تكافؤ فرص تتحدث. ليس هناك من شروط تتبع هنا للترقية، من يأخذ بعين الاعتبار مستوى تعليمك؟ أو ما كتبت من أبحاث، أو كل ما من شأنه أن يقدم خدمة للمجتمع، عناصر الترقية بعيدة كل البعد عما تعلمت.

... أضف إليها جو البيت المشحون دوما، إن لم يكن بالشجار فبثرثرة النسوة في المطبخ، وزيارة طارئة ما بين الدقيقة والدقيقة.

صحا من النوم ذات جمعة، ليتفاجأ بصاحبة دكان البقالة وهي تدخل أمامه وتقف في منتصف المطبخ. بقي ساكنا، كانت عباءتها خلف ظهرها شأنها دوما، وأكمام ثيابها مرفوعة إلى أعلى زنديها النحيلين، وكأنها مستعدة دوما لعراك أحد. هذه المرأة تصر على السلام عليه أيضا من داخل دكانها، كلما تعمد تجاوزها وهو عائد من عمله.

... لا أنوي السلام على أحد، لا رغبة عندي والسلام، أهناك ضرورة لشرح هذا أيضا.

- صباح الخير استاد، أين أم هيام؟

- لا أدري.

يبدو أن المرأة قد اصطادته فلم يعرف ما يفعله. عيناها تكادان أن تغلقا تماما اثر الدخان الكثيف الذي تنفثه سيجارة اللف الأزلية.

- هذه الفاصوليا اليابسة التي طلبتها أم هيام.

وعندما احتار في أخذ الكيس، وتردد في التقدم باتجاهها أو البحث عن إحداهن، والتفكير فيما إذا كان من اللازم تسليم الثمن لها بالحال، قالت وبدون حياء، وهي تمد يدها بالكيس:

- هذه الفاصوليا تنقع ليلة كاملة استاد، قل لأم هيام بأنها خوش فاصوليا استاد، سترى إن النغلة فقط ستطفو والباقي نظيف، السلام عليكم.

كان عراكه على أشده مع هيام وامها عندما غادرت أم حسين البيت.

- ناس لا يعون معنى الخصوصية. يدخلون متى يشاءون ودون طرق على الباب، حتى ليشعر المرء بأنه يعيش في الخلاء. في الخيم، منتصف الصحراء. في أي عصر أنتم. هذا الباب لن يترك مفتوحا هكذا بعد الآن، ناس بلا عمل والوقت مفتوح لديهم سيان أن كان ظهرا أم مساءا. لا يتردد أحدهم بالانضمام إلى سفرة الغداء، أو بالمرور عز الظهر لشرب الشاي، أو بالاتصال هاتفيا منتصف الليل ليعلن عن بث فلم أو برنامج يستحق المتابعة. جهلة... كلهم جهل.

... لا أفهم سبب تقبل هيام لكل هذا الوضع الذي يكلفها أيضا جهدا إضافيا بتلك الضيافات المستمرة والمجاملات الفارغة من كل صدق. لو كانا يسكنان منطقة أرقى من تلك...

****

قصد زميلا في مختبرات كلية الزراعة، ليقرأ بنفسه درجة الرطوبة لذلك اليوم. كان الأمر فظيعا بالنسبة إليه. تلك الرطوبة والغبار الذي أثقل صدره وكتم أنفاسه.

... هم لا يعلمون بأن درجة الحرارة والرطوبة الحقيقية غير معلن عنها أبدا لئلا تصدم البشر... كل شئ هنا مبطن.

مر بخالد في المطعم ليروح عن نفسه، لكن خالد لا يرى جديدا في كل ما يذكره:

- قال الطبيب، أن الجو في البصرة لا يناسب البعض لكنني يجب أن أستمر على تعاطي الأدوية. تقصدت اصطحاب هيام معي لتسمع بأذنيها. والماء... حتى الماء لا يمكن لحيوان جرعه، الماء المعدني لا يمكن ضمان الحصول عليه، والتانكرات التي تأتي بالماء الحلو من بغداد أو العمارة لا تدخل المشراق كما تعلم، لا يمكن الحصول على الماء إلا بامتلاك سيارة تدور وتبحث عن مكان تلك التانكرات.

بعد كل هذا الحديث الطويل يجيبه خالد:

- لو كنت تدخن مثلي وتشرب لما احتجت لا للطبيب، ولا الشكوى.

يثيره خالد بهدوئه المفتعل ويرده بانفعال:

- أنت تفهم تماما ما أقوله، لكنك تحاول إغماض عينيك تهربا وربما ندما، مثلي تماما.

****

عودته لا تشبه عودة الباقين تماما. رصيده كان بعقله، وبمشروع عمره الذي يبحث في الزراعة النسيجية المتطورة، وإكثار نخيل التمر، ومزارع الكالس.
غير ذلك لم يكن في الحقيبة سوى بضعة ملابس داخلية وكم من كتب.

... يظنون بأن مرتبي ثروة ولا يعلمون بأني كي أسدد قسطا يجب أن أجمع رواتب سنة كاملة لأكمله.

لا يعلم أين تبخرت كل هذه الامتيازات، التي كان يحظى بها حملة الشهادات عند عودتهم. هل ألغيت بسبب الظروف الاقتصادية للبلد. أم ألغيت لكونها فشلت باستقطاب من هاجروا أو فضلوا البقاء هناك.

...علني الوحيد الغبي هنا. حساباتي كانت خاطئة، عندما ظننت بأني أفعل ما هو صحيح. وهاأنا لم أجن من ذلك، إلا مشوارا أمضيه سيرا على الأقدام، حتى يتوقف أحد الأساتذة متبرعا، متفضلا، ليقلني بطريقه إلى الجامعة. ولأضطر لسماع هذره طيلة النصف ساعة ومجاملته. هذا إن لم يكن في السيارة غيري، ممن يتوجب علي أيضا مشاركته الحديث. وقد يمر طالب بنا بسيارته المستوردة دون أن يكلف نفسه هز رأسه للتحية.

****

سامي المتحدث باسم البصرة الحلم، والمتغزل بها دوما. يغتنم الفرص ليروي لهم أحداث تاريخ قديم، لم يسمع به سا لم من قبل ولا يمكن أن يعقله. مكتبة أبيه تحوي خرائط لم تعد ترى، ولا يمكن تخيلها. يروي عن سفن، وخليط أجناس عاشت هنا، أبحرت من موانئها ولم تعد. عن دعاة حق، علماء ومدارس شتى، يتساءل المرء أين سلالاتها، أين ارثها.

... تاريخ مبتور، اندرست آثاره.

سامي قد دعاه إلى بيته هو وهيام، بعد أن أخبره بأن النوادي أفرغت من محتواها.

- لم يعد هناك مثقفو نادي الرازي للأطباء ،كما كانوا وهم يحيون ساعات راحة حقيقية فيه، ولا شيوعيو نادي الاقتصاديين، ونشاطاتهم الثقافية، ولا الميناء وأماسيه العائلية. لم تعد النوادي أكثر من بارات للعزاب يقتلون الوقت فيها.

لكنه أقسم برغم ذلك بأن ينقطع عن تواصله مع الناس، وان كان في بيوتهم، عقب الليلة التي اجتمعوا فيها في حديقة بيت سامي.

لأول مرة يشعر برجفة حقيقية تسري بأوصاله. اهتز عندما تسلطت عليه الأضواء، وفي موضوع مخجل أفقده صوابه وقد احتد النقاش ونشب ذلك الخلاف بينه وبين فلاح.

ارتفعت الأصوات، ونهضت وفاء مرتبكة، رغم محاولة سامي وزوجته تهدئتها. أصرت على أن ينهض فلاح لينسحبا من السهرة.

آن يتذكر تلك الحادثة يغمره الندم. كان ينبغي عليه أن يتحاشى محاورة أناس من أمثال فلاح. حمل هيام مسؤولية ما تعرض له. كان عليه ألا يلبي دعوات كهذه، لا تجلب له إلا الانزعاج وضياع الوقت.

... وما الذي يمكن أن يقدره فيَّ هذا الفارغ، كان حقيقة ما قالته هيام. الموقف قد كلفني احتراقي إضافة إلى توتر الجو ليس إلا.

... لكن أن أتهم بالغرور، التبجح والسذاجة، كان أمرا غير مقبول.

هدأ الجو بمغادرة فلاح. فتح سامي زجاجة العرق الثانية له ولخالد. التقط قطعتي ثلج لكأس سالم وأدار له المزيد من الويسكي.

قرر سالم أن يشرب ويشرب هذه الليلة. كانت معاناته أكبر من أن يفهمها الحاضرون. أكد لهم بمأساة :

- الإبداع له شروط، يحتاج إلى سيارة، مال، مكتبة، مؤسسة، وأنتم تتهمونني بالتقصير وسط كل هذا.

قاطعه خالد باندفاع غريب:

- الهجرة ليست حلا، حال الوطن ككل يجب أن يكون من ضمن اهتماماتك، جزءا منك.

– وهل ضمنوا لك حق اتخاذ قرار لكي تشعر بأنك جزء من كل ما تسميه وطنا، أنا لا أشعر بأنه مكاني.

– لم تكن دوافع شعوري بالانتماء هي المشاركة، ولن تعني مشاركتي قطعا تقديرهم لي كانسان، الوطن لا يقف عند السلطة، وحق مواطنتي لا يمكن أن يسلبه أفراد. كما أن بناءك وعطاءك سيكون لبلدك وليس للسلطة، خذ اليابان مثلا، أمريكا.

– مجتمعات متعطشة للعلم وللبناء، ما الذي تقوله أنت، العقل في بلادنا يوضع في...

سامي يتحرك ليعمر الكؤوس من جديد وهو يضحك، ينوي من مقاطعته إطالة الليلة تلك:

– دعونا يا جماعة نسكر، دعونا من السياسة هذه الليلة، ثم يا أخي، هل رأيت نظاما عربيا يتخلى عن برنامجه السياسي من أجل إبداعك، أو خدمتك أو بناء مجتمعك، هناك نظام عالمي يقرر مصيرك، ضمن مخطط كبير يرسم حدودك، هم يخططون مشاريع تحركك منذ الخطوة الأولى.

ثم أتى على بقايا كأسه.

****

...زوجة شابة خيالية، تنصرف إلى أحلامها الصغيرة، تجعلها ربا تنذر له النذور وتوقد له الشموع. تجننها المرآة، فتأتي على القيام بما لا يخطر على بال من الأفعال. تتوقف لساعات لتلوث وجهها بأصناف الماكياج المتكدسة أمام مرآتها لتبدو كساحرة، وقد تبكي أو تضحك فجأة.

... حالمة تتقمص ما يخطر ببالها من شخوص، وليت الأمر يقف عند هذا الحد، تطالبني بأن أقوم أمامها بدور قيس أو روميو.

... أمٌ متخلفة تؤمن بخزعبلات، تعاني من عقد نفسية تجعلها منفعلة دوما. تشعر بما تحملنا من عناء بإقامتها معنا. ولا تستطيع فعل أمر إزاء ذلك سوى البكاء. لا يمكن التوصل لخلق حوار مشترك معها، وهي تذرف الدمع وتندب الحظ. لم يخطئ الغرب في التركيز على أهمية استقلالية الفرد، كانت ستتمكن من التخلص من شعورها المريض، وإحساسها بفضلنا عليها.

... أما الأصدقاء فهم ورغم ادعائهم التحضر، لم يتعدوا كونهم أناس كسالى، أناس أكثر من عاديين. يرفضون الغرب، يتهمونه بالاصطناعية، الاستغلال، الفساد، الفراغ، ويدعون بأن حضارته انتهت، يتهمونني بالانحياز الغبي له، بينما هم في تخلف مستمر، تراجع لا يقف عند مرحلة، همهم يمكن أن يكون أي شئ غير الإنتاج. هم وحدهم

يتحملون جزءا كبيرا من مظاهر تخلف هذا المجتمع. يقيدون حضورا ليستلموا رواتبهم... نحن أصحاب الحضارة ومن هنا ابتدأ التاريخ، ثم ينشغلون طيلة النهار بالقيل والقال. ما لفرق بينهم وبين الجارات العاطلات عن العمل، واللواتي يقتلن الوقت بالهذر والأعراس.

****

فلاح وفي إحدى لقاآتهم في غرفة خالد في القسم استهزأ بما طالب به سالم رئيس القسم من تقدير واهتمام لتنفيذ مشروعه. دنا منه، تلفت حذرا يمينا ويسارا قبل أن يسره بسر، قال انه مسؤول عنه:

- أخي عندك اكتشاف يخص الأسلحة، الصواريخ، جرثومة ما صغيرة، تصعد ساعتها لبغداد أو أعلى وتطلب ما تشتهيه، العلم هنا لخدمة الجيش، زراعة نسيجية وإكثار نخيل، وبطيخ و شعير وتمر، هكذا بحث اتركه على جنب. وخذ حذرك، لن يشفع لك لا بحثك، ولا عمرك أو أية مسألة أخرى إن بقيت هكذا، وانتقدتَ بهذه الطريقة.

يجب أن يجد سالم حلا لحياته. أكمل عاما كاملا، بما حوى دون نتيجة.

سافر إلى بغداد في الأسابيع المتبقية له قبل بدء دوامه. عل معارف أخيه واخته يسعفونه بحل ... حينها، حينها سمع بخبر الاحتلال.

وفاء

لم يمض سوى شهرين على وصولهم. أي قدر هذا الذي كانت على الدوام تخشاه. أي قسمة من الله هذه التي أتت بها إلى هنا طاعة لزوجها.

- فكري بالذي يمكن أن تؤول إليه الأمور، أليس هذا هو الرحمة بعينها، طفلتك تجلس بأمان بحضنك...

بقيت مطرقة دون حراك، دون تفكير، كان الأمر برمته مفاجئا لها. انصرف مجددا هو وصديقه إلى مكان عمله. وقفت وسط الصالة حائرة. عادت وجلست على المقعد القريب من جهاز الهاتف مبحلقة فيه.

فكرت بصحة ما قاله فلاح. نظرت إلى طفلتها.

لكنها تستمرئ غيابها عنهم في تلك الأزمة، كانت ستستعذب أزمتها معهم. كانت ستقضي الليلة هناك، وحتى ساعة متأخرة قبل أن تعود إلى بيتها. الطفلة متعبة جائعة. نهضت وتوجهت إلى المطبخ لتعمل وجبة أكل.

****

لم تستطع أن تتوضح الموقف الذي اتخذته بانسياب الوقت. لم تحدد ما يقلقها بتتالي الأيام. يلازمها صداع قوي.

****

تحمم الطفلة. تنصرف إلى تنظيف الشقة. تحاصرها رائحة الخشب القديمة والرطوبة في هذه الشقة الضيقة. تدعك بالفرش القديم وورق الحيطان منذ شهرين. وكأن جيفة تختفي خلف تلك الجدران، تزداد زكامتها بين الحين والحين. عندما تساءلت بضيق بوجود عادل مرة، عن سر ذلك، أجابها بأن المؤجر السابق كان لا يأكل غير الروست، و له كلبان ضخمان، ينامان ويأكلان معه في البيت. ضحك لشهقتها ووعدها بأن يأتي لها بمنظف فعال يزيل تلك الرائحة.

الصوت مكتوم، جهاز التلفزيون يعكس ألوانا تخترق ظلمة الصالة. تجهد لأن تنير هذه الشقة دون نتيجة.

تتلفت يمينا ويسارا. ابنتها تنام مبكرا. والشقة صغيرة جدا لا تلبث أن تأتي على تنظيفها بأكملها.

ستشرع غدا بدعك السيراميك الذي يرتفع ما يقرب المتر أسفل الجدران. تتأمله جيدا. لم تمسسه يد أو صابون ربما لسنين.

****

التفكير ببيت أهلها يأخذ الحيز الأكبر من وجودها. وكأن رحلة الذاكرة توقفت عند مرحلة ما قبل الزواج. شكلت تلك المحطة صلة تواصلها مع حاضرها. تعكس كل ما حولها لترجعه عند الحاجة إلى هناك.

البيت صار هادئا في الفترة الأخيرة، بعد وفاة والدها. انصرف كل إلى عائلته. خفت غلواء الشعور بالالتزام اتجاه بعضهم. كان ذلك قد خلق حالة من الحرية نوعا ما، يمكن تمييزها في حركتهم، وساد البيت جو من التفاهم والمسالمة. امها كانت هادئة جدا في تقبل خبر وفاة الأب، مما أثار إعجابها. غيابه لم يجعل منها امرأة أخرى.

كانت تطلب الرحمة للوالد دوما، لأنه ترك لها هذا البيت ليسترهم.

كل شئ كما فتحت عينيها عليه. لم يتمكنوا من ترميم شئ فيه. سياج السطح الذي انهال في ليلة على حين غرة، جمع طابوقه ورصف خلف البيت. المرحاض الذي بني بجانب البيت، أغلق لتآكل مرفقاته. السقف الذي ينضح بعد كل مطرة، حتى حنفيات المغاسل فقد ألغيت واحدة واعتمد على الأخرى.

لكن "صيت الغنى أفضل من صيت الفقر" كما تقول الأم.

ظن الكثيرون بأن البيت الذي يتكون من طابقين إنما يدخله ما هو أكثر من الراتب التقاعدي لمعلم في المدرسة الابتدائية، وجزء من راتب وفاء.

قيمة هذا البيت كانت لا تقدر لكل منهم واعتزازهم به كان يكبر بمرور الوقت.

كان أن توجه مالكو هذه البيوت قاطبة في السنوات الأخيرة إلى استثمار ما يملكون، ليحافظوا على مستوى معيشي مقبول. هذا بعد أن اختلفت متطلبات الحياة، وشب الغلاء. حصل بعض المعلمين على وكالات لبيع المشروبات الغازية ، أو لبيع اللحوم والبيض، بينما لجأ الذين يملكون بيوتا مطلة على الشارع العام بتأجير كراجات البيوت، أو فصل إحدى الغرف الأمامية وتأجيرها كمحلات. أما البيوت خلف شارع الجزائر، فكان أن بنى مالكوها ملاحقا في حدائق البيوت لتأجيرها.

ربما تغيرت ملامح المنطقة بأجمعها، لكنهم أصروا على الاحتفاظ بالبيت كما كان.

ربما كمن اعتزازهم ذلك في حفظه لاسم عائلتهم ومكانتها، برغم ضنك الحال الذي يعانونه. أمعنت وفاء للحظة في التفكير ببواعث هذا الاعتزاز، ربما كان أيضا تشبها بالغنى، فارتفاع الأسعار، وتغير الأحوال وانقلابها رأسا على عقب في البلد كاد أن يجعل منهم نكرة. ضاعت منزلتهم التي شعرت بها منذ طفولتها. البيت حفظ لهم صورتهم الأولى في ذاكرة الناس، في الزمان ذاك، عندما كان أبوها يمر ليحيي من يصادفه في طريقه إلى مدرسته، فيرد

الناس التحية باحترام وتقدير شديدين له. كان ذلك كله قد شكل تعريفا لها، وربما مسؤولية، تدرجت بوعيها لها في كبرها.

استرجعت الشوارع المتربة حتى استقرت ذرات من الغبار فوق شفتيها، شمت رائحة القير المحروق الذي يرش به الشارع الفرعي لبيتهم. كان أبوها قد جمع توقيعات الجيران لأكثر من مرة وقدم فيها طلبا إلى البلدية لتبليط الشارع دون جدوى. ووعده المحافظ حينها خيرا حينما قابله من أجل ذلك. لكن جهوده صارت مضرب مثل حتى بعد وفاته، عندما يفشل أحد الجيران بعمل شئ ويذهب سعيه هباء.

... تلك الأيام والليالي المملوءة.

جرفها حنين كبير، ضغطت جانبي جمجمتها بأطراف أصابعها لتسكت النبض.

لكنه فلاح الذي نقلها من بقعة أرض باردة مظللة بسدر النبق مسورة بالياس، خصبة، مملوءة بالجهنمي والبرحي والجوري وعطر ملكة الليل والمنثور. وزرعها هناك، حيث الملح والرمل يدفعان بعسر بضعة زهرات ختمة شاحبة ذابلة.

****

أتى فلاح ليتقدم لخطبتها.

آه... الجيران معنيون جدا لتُربَط فلانة بفلان.

دست يدها بجيب بنطلونها، متكئة على الجدار في الفسحة بين الثلاجة والمنضدة الصغيرة في المطبخ. الوقت كان مفتوحا للزوار. بدت الأم خبيرة بمناسبات كهذه، مستمرة بتلميع الاستكانات. انتبهت إلى ثوب أمها الذي ترتديه اليوم، لم يكن أسود.

شعرها الطويل انسدل ستارا بينها وبين ما حولها. صوت الأم بعيد. رنين الأقداح والملاعق فيه صدى. باب الثلاجة وهو يفتح ويغلق بهدوء. لم تحتمل فشلها بمقاومة القلق.

أن ترفض عرض زواج تقليدي وقد بلغت السن التقليدي للزواج. أن تتسلم مسؤولية القرار. شعور قوي بالإخفاق والضعف، وهم يتركون القرار لها وتقليب الأمر بين يديها.

اجتماع عائلي لم يتجاوز الساعتين، قد حضره الأخوة والأخوات دون أزواجهم. انفض، على عجل، بأمنيات، وابتسامات، وشد لشعرها، وقبلات، وتأكيد لحرية الاختيار بالتالي.

يحاصرها كل ذلك. برغم الحب الذي يكنه الأخوة لبعضهم، شعرت بأنهم غير معنيين بأزمتها. لا يشعرون بها، وهو أمر عائد بكليته إليها. ذلك ما راعها.

****

دارت بالغرفة، تمهلت أمام مرآة صغيرة معلقة في غير موضعها أعلى الطاولة الصغيرة. انعدمت وسائل خلاصها، والإقرار بذلك يصعب ويصعب. إمكانية اتصالها بأحد ما مستحيلة، لم تجد من تتصل به. تحركت بعيدا عن المرآة. أطلقت آهة مسموعة أشعرتها بالخجل من نفسها.

النافذة في الغرفة تطل على حديقة خلفية صغيرة. البيوت هنا متلاصقة جدا ببعضها، لا حدائق جانبية أو أمامية. رائحة تبغ قوية تنقلها ريح خفيفة باردة إلى أعلى. هذه الرائحة تسكن المبنى بأكمله. لكنها وهي تشتمها الآن تظنها محتملة.لمحت المالك يتحرك بين شتلاته في حديقته الصغيرة. غليونه علامته الفارقة. جثته الضخمة تعيقه من الانحناء بسهولة. كان يجمع بضعة حبات من الفراولة في وعاء صغير. وكأنه يتحرك متمتعا بأمان مملكته الصغيرة هذه. سحب كرسيه بهدوء وجلس. فرش أدوات تدخينه بعناية على الطاولة وشرع بتنظيف غليونه ببطء شديد.

تخيلت أباها وهو يتحرك ظهرا بين البرحيات في حديقتهم. لم تكن تعبأ بالحديقة. الصيف حارق هناك، لكنه يمدهم بحبات رطب شديدة العذوبة.
جالت عيناها في تلك البقعة الخلفية. أطلقت زفرة. لم تكن تشعر بامتدادها للمكان، وكأنها في فراغ.

****

مروا بمصانع القطن الضخمة الموحشة، اقشعر بدنها لذكر الحرب. شبح الحرب يعلو كغيمة هياكل تلك البنايات. البنايات قاتمة رمادية تبعث على الضيق.
كانوا مع فلاح واحمد في سيارته الصغيرة. شئ ما في داخلها ينكر تلك المسافة القريبة جدا من ذينك الرأسين. الرأسان مختلفان بالشكل والحجم وكثافة الشعر ونوعه. تجنبت النظر إليهما. كان أحمد يتبادل حديثا ملغزا مع فلاح وهو يقود في المقعد اليمين، بينما عادل مسترسل في الحديث على يساره، وهي لا تعلم لمن يوجه حديثه... وحشية القصف الذي تلقته تلك المدينة من قبل هتلر:
- رغم كل تلك السنين يبكي الكبار جمال مانشستر آنذاك ومكانتها.

****

الفراغ في تلك البقعة الخلفية، نظيف أخضر خال من الأطفال. استندت هكذا على الجدار أمام النافذة لفترة طويلة. نهض الايرلندي بتراخ. موعد

توحده مع كأسه سيبدأ. طقس نبهوها إليه. المالك لا يحب أن تستباح خلوته بعد الساعة الرابعة.

تشعر بالبرد يشتد ويشتد. صيحات حادة تعود لأطفال، وأخرى لكبار متربصة تفاجئها، ارتقت علو البناية، قذفت ببضعة حجرات، ومدت لها لسانا لتهزأ منها.

...هل يحمل لسانهم طعم الحرب بعد تلك السنين. ربما كانت حربهم أشد من حربنا.

...لِمَ أفكر بالحرب، من قال حرب، ربما يستبقون الأحداث بما يذكرونه أمامي.

برودة مؤلمة متواصلة. أرضية الغرفة الخشبية تصر، تصدر صوتا لم تعتد عليه بعد، رغم حرصها في خطواتها.

... كان من المفروض أن يلازم فلاح البيت لكي نتابع الأخبار... وكيف بإمكانه فهم حاجتي.

ضربت بيديها على فخذيها.

... قال انه سيتشمم الأخبار. كنت أعلم بأني سأترك وحيدة هنا، انهم لا يعرفونه، لن يفهموني.

جلست على حافة السرير وهي تلم بأطراف ثوبها وتحشرها بين ساقيها.

... **سأختنق بصمتي هنا وأموت والله.**

... **فلاح، وهل سيطرأ عليه طارئ ليتغير.**

غطت وجهها بكفيها.

****

الجهاز الذي استأجره لهم أحمد يتحكم بهم. تتغير المحطات. من يد إلى يد... تقارير مراسلين، أخبار متناقلة، صور فضائية، ومقابلات تلفزيونية لا تفقه منها شيئا.

أحمد الذي تعود علاقته بفلاح إلى أيام دراستهما هنا، مازال معمرا، يدرس على حساب الدولة. استأجر لهم شقة صغيرة من أحد الطلبة من معارفه في لونك سايد.

يرافق فلاح معظم مشاويره، التي تنتهي أحيانا بسهره معهم في البيت.

... **لا يختلف كثيرا عن فلاح بأسلوبه في حياته.**

يفوقه بضخامة جثته وصوته. ورغم مدة بقائه في بريطانيا فهو ضيف عراقي تقليدي. طريقة حديثه، جلسته. وجوب الاستماع بإعجاب ولساعات إلى كل ما يتفوه به. يختار القناة والبرنامج الذي سيتفرج عليه الباقون. وهو في جلسته تلك ملك، لا يتزحزح إلا ليذهب إلى التواليت.

...لا أطيق نظراته، وسعال صدره المستمر، الملئ بالبلغم.

****

لم يختلف باقي الضيوف بين أزواج وعزاب كثيرا. تشعر بأنهم يفتقدون إلى عامل ما مشترك كي تربطهم... معظمهم من العراقيين، وقلة قليلة من العرب. عوائل مضى على إقامتهم الكثير أو القليل هنا. تسمع بأن أغلبيتهم قد تركوا أعمالهم، أو دوامهم في الجامعة ، ليتابعوا ما ستؤول إليه الأحداث بسبب الاحتلال. استقبلتْهم في الشقة دون أن تُسأل. كان هجوما جديدا عليها، يختلف بخطره. فرضه فلاح عليها دون أن ينتظر للحظة سماع رأيها. تشعر بأنهم يضيفونها مكرهة في بيتهم، وليس العكس.

اللقاءات بهم، والتي كان يتم بعضها بالصدفة، كأن يكونوا قاصدين محلات الهنود للتسوق في رشم Rusholme، أو إلى مركز المدينة، صارت وبعد خبر الاحتلال مقصودة كجزء من الفوضى التي عمت بعد الاحتلال.

وقد يقصد فلاح مكان تجمعاتهم في المطاعم التي يعملون فيها أو بعيدا عنها، مهما كلفته الرحلة. يتأخر دوما، ليس لقلقه وتحرقه لسماع ما يستجد، بقدر هوسه بلعبة الدومنة التي تتوج تلك اللقاءات. ليلتها لا يكف عن سرد تفاصيل مفاجآت المنازلات التي يخوضها مع من يلتقيهم هناك، وقد يكون أحمد أو عادل، الشاهدين اللذين يحدان من مبالغاته بعرض عضلاته.

****

في مشوار ترددت فيه بمرافقة فلاح، وبعد أيام من اعتكافها في البيت، التقوا بمعارف لفلاح بالصدفة. في هذه التجمعات تشعر برغبة في ترك كل شئ على الفور، والهرب بالحال.

لكن الطفلة جائعة. اضطرت للانتظار معهم بالقرب من إحدى مطاعم الخدمة السريعة. لم تشأ كذلك الدخول وتناول الأكل في المطعم. لا تحب الأكل في المطاعم ولا الجلوس في المقاهي حراجة وضيقا. لم تعتد على ذلك. ذلك ما أجبرت فلاح على تقبله، وتحملت من جرائه شتى الاتهامات. كانت تود أخذ الساندويتشات.الابتعاد عن المكان بالحال والذهاب إلى البيت. لكن فلاح دخل في أحاديث طويلة مع البعض. فوقفت مع الطفلة على مبعدة بانتظاره.

فجأة وصلها صوت أحمد وهو يقسم بأعلى صوته بأن الكويت لن تعود، ستبقى جزءا لا يتجزأ من العراق. وكأنه يمسك بخطاب رسمي مكتوب قد توجب عليه قراءته أمام حشد.

... ما باله... هل جن هذا الرجل.

كانت قد بدأت بإطعام البنت على مصطبة في القرب منهم، بعد أن يئست من مجيء فلاح، بالإضافة إلى إلحاح الطفلة.

... ما الذي أصاب هذا الرجل، وما الذي سيقوله الإنكليز عنا لو رأوه.

تابعت من بعيد ما يدور. لم يلبث الموقف أن تحول إلى مناوشات بالكلام بين هذا وذاك ممن في الحشد. تلقى أحمد لكمة في وجهه فسقط واختفى عن نظرها. تشابك الطلبة مع المجموعة الأولى ولم تفهم باقي ما جرى عندما حصل التصادم بينهم.

تلاحقت دقات قلبها، صار العراك شديدا. مسحت فم ابنتها، لملمت بقايا الطعام وعادت بأشيائهم إلى الحقيبة. صدر صوت عال آخر، فصرخت بفلاح ليسمعها، وهو يكاد يختفي عن ناظريها وسطهم. صاحت به ليتركهم وليبتعدوا عن المكان بالحال.

- فلاااح.

ارتجفت، كادت أن ترفع بالطفلة من على الأرض، لتسرع بالابتعاد. تخيلت بأن هناك من يحمل في طيات ملابسه سلاحا، سيطلقه في أية لحظة. أو أن ينشب عراك بالقناني.

خوف نابت في أعماقها منذ صغرها، يحضر كلما علت صيحات رجال بالقرب منها.

...لا أدري ماالذي يسكن دواخلهم هؤلاء العراقيون، لينطلق ذاك الوحش وعلى حين غرة ولأتفه الأسباب.

... ما الذي أتى بي إلى هنا، اللعنة على ذاك اليوم.

حنقت على فلاح الذي جاء بها إلى هنا.

... وهذا الأحمد الغبي الذي أثار كل تلك الزوبعة من حوله.

لم ينبس فلاح بكلمة طيلة طريق عودتهم. جلس مع ابنته في المقعد الخلفي من الباص.

جلست في المقعد المقابل تبحلق في الطريق. هدأت قليلا بمتابعتها للركاب في الباص. كان جلهم من المتقدمين بالسن. استغربت لأمر هؤلاء النسوة والرجال المسنين الذين تصادفهم في طريقها. أحدهم لا يعلم إن كان سيعود لبيته أم لا، ولم كل هذا العناء. إحساس بالشفقة ينتابها تجاههم. لاشك انه جحود أبنائهم هو الذي أشعرهم بوحدتهم، واضطرهم للخروج من منازلهم.

قفز تفكيرها إلى الوجبة التي ستحضرها للعشاء. بقايا من وجبة الأمس كانت حسما لحيرتها وضيقها بالتفكير بشأن ما تطبخه لتنتهي من هذا الواجب.

رفضت اقتراح فلاح الذي صاح من مقعده آخر الباص:

- فوف، نشتري وجبة أكل خفيفة؟

عدته تبذيرا لا مبرر له، من شأنه أيضا أن يمعن من إحساسها بالتقصير. ولم تشته النظر إليه.

رتب فلاح الصالة دون أن يأتي بكلمة، وأعد المائدة. حممت البنت، غسلت الحمام بأكمله وتحممت. جمعت الملابس التي استعملوها في كيس، هرع فلاح إلى حمله للتوجه إلى محل الغسالات.

عملت لها شايا أسود، جلست وحيدة لتحتسيه.

...احترت في أمر هؤلاء الناس. هالني ما خجلت من المجاهرة فيه... اكتشافي لتضارب ما يفكرون به، طريقة تحليلهم لتطور الأحداث.

يتكلمون عن اسقاط نظام، ويتحمسون في أن تكون الضربة التي سيوجهها الأمريكان اليوم، وليس غدا. ينسون ذكر الناس. ثم يتحدثون عن الناس، ويلعنون الجيش، دون أن يتركوا الفرصة لي باسترجاع صور من اقترنوا بالجيش من أهلي ومعارفي. ضقت ذرعا بما يتفلسفون به.

مجموعة من الأساتذة وزوجاتهم، وطلبة وصديقاتهم. عزاب، موظفين لا تفقه طبيعة وظائفهم، ولم تتمكن من متابعتهم. لهم ألغازهم، مصطلحاتهم، ونكاتهم.

تروح تفتش بنهم عن لحمة زائدة لتقضمها، تتحسس أظافرها بانفعال. كل شئ يمر كالعصف بها، يحرجها، يعرق يديها.

ترى اخوانها ومن يطل على بيت الأهل من أصدقائهم، جنودا على وشك التسريح، هم من يتحدثون عنهم، كانوا مختلفين تماما.

أن تملك موضوعية هؤلاء الضيوف أو حيادهم كان أمرا يفوق طاقتها.

... هل يعني فلاح ما يقول؟ أَأُعظم الأمور وأعقدها دائما؟ أحقا لا أفهم شيئا؟ ألم أعد أفهم شيئا؟ أم هو ضيقه بكل الطارئات الذي جعله يسكتني كلما نطقت؟

...كانوا يملكون قوة ما ليكون الحق والصواب هو في ما يصرحون به، ولذا احتفظت باعتراضاتي. لم أجرؤ على التفوه بكلمة أو الإدلاء برأي أمام نسائهم، أو مقاطعة رجالهم. رغم ما أشعر به كنت أشك بصحة رأيي.

...أتساءل دوما عما عساه أن يكون رأي أهلي، سامي... وحالهم؟

يتحرك فلاح بين المطبخ والصالة في ضيافته لهم. لا تجد ما تقوله. تترك لهم توجيه الأسئلة.

... وكأنني قد أتيت من المريخ.

تجيب عليهم باقتضاب.

... لو أمكث في المطبخ، وأسلم فلاح مهمة الجلوس معهم. ما الذي يشتاقون له؟ أهو الفضول يقف وراء زياراتهم هذه وأسئلتهم؟!

****

...لكن لا... ما صدر عن أحمد فوقني، أكد لي غبائي.

كانت تتشاغل بغسل الأطباق في المطبخ، عندما ظنت بأن الخطوات الثابتة التي تقطع الممر المنزوي الذي ينتهي بالمطبخ كانت لفلاح ومن غيره، خطوات تعرف طريقها وتملك شرعيتها. تفاجأت بعيني أحمد المحمرتين أثر السكر وهو يدخل المطبخ بحجة منفضة. استدارت لتكمل ما بيديها غير مستوعبة شكله. صقعتها كلماته وأنفاسه التي دخلت رطبة في أذنيها فجأة وهو يلف يديه حول خصرها ويكاد أن يلتصق بها. دفعته بقوة وهي تنفض يديها بلا وعي. كادت صرخة اشمئزاز تفلت منها.

... لكنني خشيت إحراجه، خشيت تقاطيع وجهه، خشيت سماع فلاح للذي يحصل. للحظة لم أفقه ما حصل حقيقة.

... أي وسط أعيش فيه ومن يظنني هذا الحقير.

كان جسدها مقشعرا، ويداها ترتجفان في محاولة منها لمسك طبق أو ملعقة.

دخل عادل إثره حاملا أكوابا ومنفضات ممتلئة. قلبها يخرج من مكانه. لم تتوان عن الصياح بوجهه بعصبية وبلا صوت كي يغادر المطبخ. كانت ترتجف، لم تنطبق شفتاها ليخرج حرف. صعق عادل، رمت الصحن الذي بيديها في الحوض، وغادرت قبله منفجرة بالبكاء.

****

...ليس هذا هو كل ما أذهلني، ما تنبهت إليه ليلتها، وأنا أسترجع بفراشي ما حصل، هو أمر نسائهم أيضا، القرف بعينه، بدأت أستعيد كل ما مر بي منذ تعارفي بهن، ضحكاتهن التي يطيرنها مع دخان سجائرهن، الكؤوس التي يرفعونها كالرجال، وأسلوبهن في الحديث، المزاح، اللبس والماكياج. لم أعرف أين أقف من كل هذا. محيط فاسد لا يمت إلينا بصلة. بل أني لم أعد أعرف فلاح الذي اندمج تماما مع جوهم فصارت لهجته كلهجتهم، عطره كعطرهم، ودخان سجائره أيضا.

وبعيد جدا ما تفكر به وما يثرثرون.

... بزياراتهم ينفتح بابي ويجتاحني هواء بارد عاصف، يرفع ملابسي ويود قلع ما حولي، يلقي علي بحبات مطر كأنها الحجارة. وبانصرافهم أشعر بوهن، وكأني انصرفت طول الوقت وأنا أدفع بالباب، كي أسد منافذي المشرعة.

...لم تكن عندي القوة، أو الرغبة لفهم موقف فلاح. راح يتصيد الفرص كي يؤكد لي، تارة صوابهم، وما أغدقت عليهم الحياة من حكمة وتبصر، وتارة كي يصورهم متسولين متطفلين، ذليلين يعتاشون على فضلات أوربا.

... لا أعرفهم باختلاف مناصبهم، ومناطق تولدهم وأهوائهم وشذوذهم. ولكني أعرف فلاح حق المعرفة. هناك أمر ما يدور بخلده. إني لأخشى تهوره. لا أود إثارة جدل ومشادة. لكنني وربما لوحدتي صرت أنزع لذلك.

****

لم يدع لها فلاح وقتا لتسترجع طاقتها. دعا صديقين قديمين له، يشتغلان في التجارة. استيراد وتصدير، مرتبطين بعقود تجارية مع العراق أيضا.

انهمكت في إعداد ما تتطلبه الدعوة لتتناسب مع ما أراده فلاح، من الدولمة والكبة، وحتى الكرزات الباهضة الثمن، وقد كلف عادلا بشراء المشروبات في طريقه إليهم.

الحديث كان ذاته عن الاحتلال وإسرائيل وأمريكا والتآمر ونفط الخليج... وعما ستؤول إليه الأحوال فيما لو ولو. حماس فلاح الذي يدفعه دوما لقيادة أي نقاش كان، ومع أي فئة كانت ، في أوجه تلك الليلة، بعد أن فعل به الشراب فعله. أصر على إن انسحاب العراق مؤكد خلال الأسابيع المقبلة وسترون، ما هي إلا اتفاقية تمت بين أطراف معروفة مستفيدة من هذه الخطوة... وبقدر ما عارضه الضيف، وبهدوء تام، بقدر ما أصر هو. لازمت المطبخ متشاغلة بأموره، منصتة لما يدور. انتهت السهرة. جمعت القناني

الفارغة وأعقاب السجائر في كيس. ولملم عادل ما على الموائد من صحون. تستأذن لتنام.

دخلت غرفة النوم، شعرت بقلق إزاء تعليق صدر من عادل حول هذين الصديقين، بعد أن غادرا. همت بأن تغير ملابسها. لكنها قررت غسل وجهها وتفريش أسنانها أولا. لكنها استدارت وعادت إليهما ثانية.

عادل قد علق بشكل عابر:

– الناس تغيرت هنا، واختلفت توجهاتها، والواحد منا لا يعرف صديقه من عدوه.

... وكأن منبها نفخ بأذني، ارتجفت، ناقضت كل انسحابي، ودفعي جانبا كل ما يتعلق بفلاح، وحياته خارج البيت.

تعليق عادل كان مقتضبا، إشارة من بعيد أو هكذا أحسست. لم يشأ توضيح ما يقصد.

نقلت لهما قلقها. أنكر عادل تصريحه بالطريقة التي استلمتها هي. ضحك منها ليطمئنها ربما. ذكرها بأنها تعيش في أوربا وليس هناك. بل انه ابتعد أكثر من ذلك ليتحدث عن نشأتهم جميعا، وحس الحذر المغروس فيهم وفقدان الثقة والشك في الآخرين، وطرائف من هنا وهناك عن عصبيتها وبرود

السكارى. وأكد لها أخيرا بأن السفارة بحد ذاتها هنا، قد تاهت، وانتهى أمرها.

لم يبعدها صداع رأسها عن التفكير بشأن تعليق عادل. أرادت منهما أن يقفا عند خوفها، أن يؤكدا لها أمانها، رجوعها، وأهلها، أمها، طفلتها.

... هل أبالغ كثيرا؟

... لا أدري، مولودة وفي فمي حذر إزاء ما يأتيني من خارج جدران بيتي.

لم تزايلها الرجفة. ولم يتقبل فلاح اتهامها له بالاندفاع، بل ألح بإنكاره بأن تحول إلى مهاجمتها والهزؤ منها.

... هذا إنذار بتصاعد نسبة الكحول في دمه.

- وما الذي تفهمينه؟ هه... أنتِ امرأة لا ترى أكثر مما في هذه الغرفة. انظري إلى الباقيات وتعلمي، افتحي عينيك.

... أن ينكشف جانب منه يكشف عن حقيقة فيه، لا يمكن للآخرين تصورها. انتقاؤه من الكلمات ما يشعره بتمكنه من النيل مني بمستوى حقير جدا.

ثم استنجد بعادل لإقناعها بصواب ما يفكر به. لم تتماسك ، كانت وحيدة، صوابه كان أمرا يدوخها فيه دوما.

... لأول مرة أسمح لنفسي بأن أظهر انفعالي بوجود غريب بيننا. رغبة عاتية تملكتني لأن يرى عادل فلاحا كما هو:

- حتى الله يترك مجالا ليناقش الواحد أمره إلا أنت، أنت العالم بكل شئ. ما الذي تستطيع التكهن به الآن، قل لي، ما هو حلك الآن.

واستدارت لتوجه لعادل كلامها بأسى مفاجئ:

- مهووس بالتفكير والتخطيط والحيل، لا أعلم ما الحياة بالنسبة إليه، وان نطق وكأنه منزّل، في كل شئ، بيته ومرفقاته و...

لم تكمل، انخرطت بالبكاء رغم محاولتها الكف. لم تستطع حمل نفسها لتتوقف. كان نشيجها يصدر من أعماق سحيقة فيها يهز جثتها بقوة. لكن النوبة انتهت فجأة. بقيت غاطسة في مقعدها، مطرقة تجفف أنفها ودموعها. خف ضيقها وشعرت بوزنها يثقل ويغرق بخدر تدريجي في مكانه.

حاول عادل تغيير الجو الذي ساد، فتكلم بحرج وبصوت أكثر منه إلى الدمدمة عن نشرة الأخبار الجوية ليوم غد، عن عطشه المفاجئ، وتنبيهه لنوم الطفلة على الكرسي.

فلاح هب على عجل كعادته عندما تنفعل ليعمل لها كوب شاي، عاد به ووضعه أمامها:

- لابد انه الصداع.

قالها ثم قام بحمل الطفلة إلى الفراش، عاد بقدح ماء وحبتين مسكنتين.

– هذه ستفيدك.

عادل اقترح بأن يصحبهم غدا لمحل اليهودي العراقي في رشم. هذا اليهودي الطاعن بالسن يعيش على ذكرى العراق منذ رحل من بيته. قال لها بأنهم سيرون محلا عراقيا قديما، بطريقة عرضه لبيع بضاعته، ونوع بضاعته. هناك جبن أبيض، زيتون في براميل، بهارات للكبة والمرق والطرشي، قمر الدين وطرشانة. وسيدير لنا اسطوانة عراقية قديمة إن طلبنا منه.

هدأت. استرجعت توازنها. لكنها لم تتمكن من رفع رأسها. بقيت مطرقة أرضا، تعبث أصابعها بثقب قديم في يد الكرسي.

عاد فلاح من المطبخ وهو يفتح علبتي بيرة له ولعادل. قال محاولا أن يمد صوته بنبرة مماثلة لنبرتها في التذمر والرفض، مصوبا نظره نحوها بين الرمشة والأخرى وهو يكلم عادل:

– هل تتصور.. كان سفر أحدنا حدثا يهز الباقين، يثير فضولهم إلى حد لا يمكنك تصوره. أي والله، وراس بنتي وراس وفاء، أنت تعلم بأن السفر كان ممنوعا، وجرس الباب يدق وتأتي زيارة الجيران مبكرة جدا ليسألوا وفاء ألا تنوين بيع جزء من أثاثكم، الكهربائيات مثلا، المجمدة العمودية، أسرة الأطفال وترد وفاء... لا، لم أفكر إطلاقا بهذا. ثم أن سفرتنا لا تتجاوز الـ...

****

أدارت رأسها تماما. وكأن مللها قد بلغ أقصاه.

ترصدهم في مشاويرها وهم يستقلون الباص، وهم يتسوقون.

... الإنكليز وكأنهم خرجوا للتو من مأتم.

... إن كانت مشاكل العراق، الحرب والشمس الحارقة قد مسحت الابتسامة من على وجوهنا، وجعلتنا نتعجل العودة إلى بيوتنا. فإني أتساءل عما ينقصه هؤلاء البشر، لكي يقابلون بعضهم بتلك الجهامة. وعما يدعوهم للركض إلى بيوتهم هكذا، وكأن القيامة ستقوم.

تحقد على بلاهتها عندما تجد نفسها تبتسم بوجوههم في كل مرة، فترى ظلالا من سخرية ردا محتما منهم.

لم تتمن أن تتعرف على صديقة هنا، لكن فضولا تحرك في داخلها فجأة وهي تسير بين العمارات المتلاصقة هذه. أن ترى ما بداخل هذه البيوت، وأن تتعرف على مكنونات هؤلاء البشر.

كانت الصور التي جمعتها عن بريطانيا أثناء نشأتها، والتي تحاول أن تنعش ذاكرتها باسترجاعها، لا تحمل مستوى متوسطا... دولة استعمرتهم زمنا،

وخرابهم كله قد حصل بسببها، مجتمعها أما فاسد مرفوض، أو متطور يركل مجتمعها برقيه إلى نهاية السلم.

****

... ربما وجدت ضالتي بصنف آخر من البشر غريب علي هو أيضا.

... أفكر بأنني ما عدت أشتاق لأهلي أو أقلق لشأنهم.

يتملكها فضول في زيارات عادل لهم، لتسمع ما يجيب به "فلاح" عندما يسأله. أو لينقل لهم أخبار الناس.

عادل يعمل منذ سنين في معمل للأدوات الطبية. وقد تاهت في بادئ الأمر بين جده وهزله، ولم تستطع إخفاء انزعاجها من أسلوبه.

... هو ساخر حتى من نفسه، حاضر النكتة.

... لم لا يكون جادا؟!

يحرج، يتشاغل بأمر ما. ينادي حينها على الطفلة ليلاعبها. يقول:

– كل شئ هنا مختلف، صرنا مختلفين، نحن لسنا نحن، فقد تغيرنا تماما، لم يبق لنا غير أسمائنا.

ويسأل هل تغير الناس هناك، فيؤكد له فلاح زعمه، بينما تتجرأ فتجيب، وهي تحاول أن تخفي امتعاضها منهما:

– الناس كما تركتها.

****

كانت تريد أن تسمع شيئا ما عنها، عن الأهل، عن مجتمعها من خلال كل شيء هنا. فجأة وجدت في نفسها رغبة مترددة في المقارنة.

...وأنا... لم تكن عندي رغبة بالزواج، شهدت دوار أخوتي ذات اليسار وذات اليمين. مللتهم ومللت صراخهم على أطفالهم.

... لم أضع قطعة قماش جانبا تخيلا لأيام عرس قادمة، ولا ادخرت صابونا معطرا بين ثنايا ما وفرت من ملابس داخلية.

- المتقدم يحمل على كتفيه أكثر من شارة، عائلة من أصل طيب، أستاذ جاء للتو من إنكلترا، يكبرك ببضعة أعوام وهو رجل مقبول المظهر. يمكنك الخروج معه ليتعرف كلاكما على الآخر قبل أن تجيبي.

فركت جبهتها بالإسمنت، وهي تدفع بالجدار. انزلق جلدها على صلابة سطحه.

- ما الذي سأتعرف عليه.

... المشكلة تكمن في وليس فيه، إن لم يكن هو فآخر، هي أنا التي يصعب علي أمرها.

حسمت حيرتها، وفرغت تخبطها كله بين ضعفها، وخوفها في تحدي نفسها.

- ليأتوا.

رفعت برأسها عن الجدار فشعرت بدوار، تمهلت وهي تشق طريقها بينهم حتى أطلقت العنان لقدميها لتنهب خطواتها درجات السلم.

****

لم ينضب عطاء أخيها الأكبر، حمل جزءا من أعباء أبيه بعد وفاته. يمر بين الفينة والأخرى لتفقدهم. جاء ليشرب معهم شاي العصر في يوم لاحق. الأم طلبت منها إطفاء مبردة الهواء، وإزاحة الستائر قليلا ليدخل ضوء الشمس. كانوا قد تجمعوا في غرفة الأم بعد نومة الظهر.

احتفظت الغرفة ببرودة حلوة. تمدد سامي على سرير امه وهو يشكو من فقرات ظهره. لم يفتح عيادته عصرا فقد كان متعبا. تثاءب بصوت عال. قد شعر بحيرة وفاء، خلع نظارته وفرك عينيه، قال لها من خلال تثاؤبه، أن حل الإشكال بسيط، إن حاولت هي أن تختلق قصة حب بينهما، لفترة، ريثما تشعر بأنها مستعدة. نظرت إليه متشبثة بكلماته. لكن وفاء بحاجة لعينة إلى نصح. ودت أن يكون سامي أكثر جدية. استدارت متشاغلة برفع الملابس المكومة على السرير كي لا تظهر شدة إصغائها. نهض دفعة واحدة من على السرير وتمطى كالقط وقال:

– إننا نحب أن نوهم أنفسنا، نراوغ أولا بأن ندخل في علاقة عاطفية، لكي نقتنع بعدها بضرورة دخولنا القفص الذي لابد منه. كل ما تحتاجين إليه هو

القليل من الخيال. صدقيني، ليس الحب هو ما تريدين، هو العمر يحاصرك، أليس كلامي صحيح يا حجية.

- وكأنه دواء.

- أجل، اغمضي عينيك وسدي منخريك وتجرعيه.

****

تمر الأيام بإحساس عائم لكل ما يجري... التدخل العالمي وسوق الأسلحة واحتماليات هجوم بري أو جوي. ولم يتمكنوا ضيوفها الذين انحسروا تدريجيا، من مدها بشعور ما، أو تقديم سلوى. أتوا بحبوب مسكنة فعالة، كبسولات فوارة لصداعها، شاي أعشاب مفيد للاسترخاء، وطرق مختلفة في التحضير، وتأكيد على ضرورة ابتعادها لفترة عن تتبع ما يحدث هناك. بل وممارسة رياضة ما كي تضرب عصفورين بحجر.

****

والموضوع لا ينتهي. بمرور الأيام وتتالي الأحداث اختفى من اختفى وظهر من ظهر من زائريهم. فضولهم تجاه بعضهم، كان في أوجه هذه الأيام، تساؤل دائم عن مصير فلان وموقف علان، في الحديث الذي يتردد أمامها على لسان فلاح وعادل.

... عادل يتعمد النظر إلي كلما تحدث باستهزاء عن اختفاء أحمد. يلتفت إلي كلما جئ باسمه، بعد أن أوشكت النتائج أن تكون مخالفة للتوقعات، كما يعلق ساخرا.

وفلاح يهمهم في مكانه، مؤكدا فهمه للموضوع، منتقلا إلى مواضيع أخرى.

****

هي الأخرى قد تقلبت، ليس المحيطون فقط. انقلب عندها موقف الرفض، لكل ما كان يصدر هناك... في البصرة. ورفضت اللحم البارد الذي يأتي به فلاح واقشعر بدنها منه، ما تراه على شاشة التلفزيون من برامج سخيفة، ما يثنون عليه من تعليقات تصدر في الجرائد. وما تقوم به الجمعيات الخيرية من مساعدات. الشقة برائحتها النتنة، وتلك المدينة الرمادية المزدحمة التي تضيعها. كل ماله صلة بهذا المكان مقرف، دهين، زائف، وحرام.

****

تتناول وجبة الغداء مع ابنتها ظهرا، تغسل الصحنين وتلم ألعابها المتناثرة حولها. تدخل الغرفة معها لتنام. تأخذ بدورها قيلولة.

تسرع لتلحق بالضوء المتبقي للنهار. تأتي بصينية وضعت فيها كوبا، ووعاء سكر صغير، وملعقة وابريق شاي. تسرع لتحيي طقوس شرب شاي العصر.

لكنها وعندما تريق الشاي في الكوب، تكون ذرات من الفضة قد أغشت عينيها وسط الظلمة التي أطبقت على الصالة تماما.

تحتسي شايها الأسود بصمت. تبلع حبتي المسكن وهي تشعر بأن رائحة ورق الجدران إنما تنفث من قبل كائن مجهول يختفي في مكان ما في هذه الغرفة.

****

ماذا عساه أن يحدث هناك. فبرغم متابعة الإعلام لما يجري، لم تستطع أن تتوضح شيئا يعينها على توقع أمر ما. فلاح ملَّ حيرتها وأسئلتها.

... هل توقفت الحياة هناك؟

تدخل من يوم إلى آخر دون المسك به، من برد إلى برد، من قلق إلى آخر. تدور في الشقة ذات الأرضية الخشب غريبة. وكأن الأرض تتحسس اختلافها بكتلتها، دمها، أنفاسها. تضع الخطوة ولا تضعها.

وألفة كل شئ ممكنة هذا ما تعودته هناك بالذات، لكن اضطراب أمورها جعل من محاولتها أمرا ميئوسا منه. تزفر خائبة من نفسها.

وفلاح يكاد لا يستقر في البيت حتى يغادره. عودته كانت في ساعات متأخرة باستمرار.

... لست مستعدة لكي أسأله.

... أهو عمله الذي انهمك به؟ أهي مصالحه التي يركض وراءها؟ أم شقراوات هذا البلد وملاهيها؟

... أم هي زوجة أحد الضيوف التي أوصلته بسيارتها قبل أيام حد مدخل البناية بعد منتصف الليل؟

هيام

... جزء ثان من سلسلة حروب ستنهينا ولن تنتهي، أيعقل هذا؟

لكنها عزمت هذه المرة على أن تلازم بيتها. قرارها بالبقاء هذه المرة لم يناقش. لن تعترض الأم ، وسالم أصابه الهلع منذ إعلان ضم الكويت إلى العراق. لم يفاجئها ذلك. لم يمض على زواجها الكثير حتى اكتشفت عجزه عن تقبل الحياة بكل هذه المتطلبات، ظنا منه بأن تلبية شروط العيش في البلد صعبة جدا.

تصل البيت. تقطع ممرا صغيرا من الإسمنت، ثم تقفل الباب خلفها، نزولا عند طلبه. يبدو لها المطبخ معتما، والبيت موحشا، وكأن ساكنيه قد سافروا، أو انهم أغراب عن المحلة وأهلها. تذكر جيدا العائلة التي انتقلت بالفرع الموازي

لهم عندما كانت طفلة. هذه العائلة كانت حديث المحلة بسبب باب بيتهم المقفل على الدوام. اختلقت الناس القصص والأقوال عنهم.

تدخل المطبخ لتلقي بحمل الأكياس أرضا. كانت البضاعة المسروقة قد ملأت الأسواق. حاولت أن تشتري ما تظنه حلالا. تفكر كثيرا بما آل إليه حال الكويتيين. يذهلها بلاء البشر هذا. هل هو امتحان الله أم سخطه. وعلى مَن ولِمَ؟!

اللغط والسخط في كل شبر من السوق. تتعجل انهاء مهمتها.

... انتشرت عدوى التخزين. صار أمرا ضروريا مرة أخرى.

... ومتى اعتقنا هاجس التخزين.

تسقي صباح الخير، نبتتها الوحيدة المصلوبة في شباك المطبخ، لونها الوردي جدا يضحك روحها فتود لو تلاعبها.

تتوجه بخطوات كسلى إلى الحمام للتوضؤ، مارة بغرفة النوم.

عاد من عمله، نائما على بطنه، دافنا رأسه تحت الوسادة كعادته.

... ازدادت ساعات نومه.

...لم الحرب ثانية يا ربي.

تنشر فوطتها بالهواء. تسرح أمام سجادة الصلاة في جانب من غرفة نومها.

... ألم يكن الحال أفضل لو تجنبوها.

تستغفر ربها لسرحانها... بالنسبة لها فتهدئة الجو بالبيت صارت أمرا يتطلب منها جهدا إضافيا. التعليق الذي يصدر من سالم يواجه بسخرية من الأم، ومن ثم بمشادة تنتهي بأن تندب الأم حظها وتهدد بأن تجمع ملابسها وترحل.

تحركَ في سريره. نظرتْ إليه دون أن تحرك رأسها، رفع رأسه ووضعه فوق الوسادة وهو نائم.

سجدت، تدعو ربها لأن يغفر لها ذنوبها، ويرفع عنهم هذا البلاء.

تنهي صلاتها، ترفع فوطة الصلاة وتهز رأسها مرتين لينتشر شعرها كما كان، مطوقا وجهها، تضع السجادة ومربع التربة جانبا.

... لم تكن حقا صلاة.

تلقي نظرة أخرى عليه. تستغفر ربها مرة أخرى.

تتوجه إلى المطبخ، تختار كاسيتا كي تباشر عملها.

تدخل صديقتها حياة، ابنة الجيران، حاملة إليها صحن حلاوة الطحين التي تحبها من يد أم صالح. تطلب منها الانتباه إلى حرارة الصحن. تلح عليها بالجلوس، فتقول أن عليها العودة، فمازالت بثياب العمل وموعد الغداء قد حان، وان أمها عاندتها وطبخت مرقة قرع اليوم، فتصب هيام من مرقة البامية

في صحن وتناوشها إياه على عجل قبل أن تغادر، مع سلام للعم والخالة وصالح.

يدخل سالم ليستفسر بانزعاج عمن كان هنا، ومصدر كل تلك الضجة واللغو. تتبرع الأم بالجواب على سؤاله من عقر غرفتها، ليكون ذلك حسما ليوم مشحون ينتظرها حال عودتها من عملها.

****

جاءت فرصة شراء السيارة مواتية عندما عرض عليهم جارهم المقيم في الكويت شراء سيارة جاره هناك. المبلغ خيالي لبساطته. كان أمرا جديدا أتخذ بعد ضم الكويت كمحافظة، فقد سمحت السلطات بحق البيع والشراء بالدينار العراقي بعد أن يتم تحويل أوراق الملكية من قبل الجهات المختصة. أكد الرجل لهم بأنها تجارة حلال:

- بيع وشراء يشهد الله.

قد اضطر للقسم، ولوصف ما يدور في الكويت من حال.

- إن جهز المبلغ فستكون السيارة أمام الباب في الأسبوع القادم بعون الله.

****

نجاة التي بدا زحف السنين واضحا في بشرتها ذاك اليوم، هي التي أقرضتها المبلغ بالسر. سحبتها إلى غرفتها وسألتها عن المبلغ الذي تحتاجه. وعندما كادت هيام أن تبكي تأثرا، قالت لها نجاة:

- كل ما هو مكدس في هذه الغرفة من الإبرة وحتى ملابس الطفل سأبيعه. كنت أنتظر اليوم الذي أتزوج فيه، لكن قسمة، أشعر بأني ميتة.

انخرطتا سوية بالبكاء ثم سكتتا فجأة. بقيت نجاة ممسكة بحزمة الدنانير بيدها وهيام جامدة محتارة في مكانها على الفراش في الأرض. لكن نجاة نهضت وحاولت أن تضحك:

- الفلوس مثل هذه الأغراض، لاداع لها بعد الآن. والتسديد الله كريم.

عندما دخلت هيام البيت مع النقود، كان الحال قد قام ولم يقعد بعد، فالحكمة التي تؤمن بها امها جاء الوقت لتكرارها. بدأتها بالهمهمة بدعوى مخاطبة نفسها، وبالتالي مخاطبة هيام وهي تقصد إسماع سالم:

- إن تذكر الناس بحاجتهم يتذكروك.

رد عليها وهو يدير لها ظهره:

- نعم، مجانا.

كان باردا جدا وهو يرد. انفعلت الأم واحمر وجهها:

- لولا معزة الجيران لي لما صادفتنا هكذا فرصة.

تملكتها رغبة بأن تلقي بشئ ما على الأرض فلطمت خديها بقوة.

****

لم تفكر بموديل السيارة ولونها. وتلك اللعبة التي ستعلقها تحت المرآة لتتدلى أمامها. كانت تخشى ذلك، لم تفهم السبب. ربما كان الأمر سيان. مجيء السيارة سيساعدها كثيرا بالرفع من معنويات سالم. سيكون ولاشك منشرح الصدر. لن يحسب للصغائر حسابا. وربما سيقلها صباحا في طريقه إلى مكان عملها. ستدير له أغان لفيروز، يكفي أن ينساب ذلك الصوت. ستكون فرصة كذلك ليتجاذبا أطراف أحاديث شتى لم يتسن لها لحد الآن تبادلها معه. بعيدا عن امها. أن تضع راحة يدها على فخذه وهو يقود، وتحكي له عن اشتياقها لحضن طفل.

لكنها عادت لتحاول فهم هذا الإحساس الغامض بداخلها، مالها تطفئ فرحة كانت قد انتظرتها طويلا. تشعر بضيق.

****

تجلس أمام مرآة صغيرة على الطاولة في المطبخ وهي تفرك جلدة رأسها بزيت الزيتون. تقوم بتلك العملية، التي كانت جزءا من نظام عطلتها، بغير ذاك الحرص والارتياح المعهود، وكأن أصابعها تتمرد عليها. راحت أصابعها ترتخي

قليلا قليلا حتى جعلتها تكف وتسرح بعيدا عن المرآة. لم تشعر برغبة بالمواصلة. للحظة لم تجد سببا معقولا لكل ما يدور وما تفعله.

اجتاحتها الرغبة لأن تبتعد. تمنت لو يمثل أمامها بطلها ذاك ليفعّلها. تذكرت مواعيدها الحارة معه، عطر صابون الحلاقة الذي يستعمل، اغتسالها وصلاتها بعد كل لقاء به. تذكرت رأيا طرحته أمامه، إعجابا وانبهارا كبيرين منه، مسلسل فتاة في العشرين لصباح عطوان، روعة عبد المطلب السنيد وحيرة شذى سالم. قالت له بأنها اكتشفت رجولة هذا البطل في هذا المسلسل فجأة وعشقته. تخيلت يديه وهمسه. يبدو أن عطشها لصدر قوي حنين دافئ لن يروى، وستبقى القبلات الحارة المتصلة والالتحام العنيف حبيس أفكارها، وأحلامها ليس إلا. راجعت أدوار شذى سالم وهناء محمد في كل أعمالهن. شوقها حارق لأن تنفصل عن ذاتها وتلتحم بهم. متى تنضم لذلك العالم، لِمَ تحاصرها ظروفها بهذا الشكل. لم يقيدها هذا الواقع. الأدوار تدور بفوضى برأسها. يتتابع الرجال المعجبون بالمثول أمامها... ملكة، عاشقة، خائنة. تقول لها المرآة بأنها ستقوم بأجمل دور يوما. تكاد أن تبكي لتفاهمهما.

سمعت جلبة في الخارج، نهضت على عجل وهي تعصب رأسها بربطة التقطتها من على الكرسي. نادت على أمها.

- يوم، جاؤا بالسيارة.

وقفت الأم بصفها تراقب ما يجري من النافذة، تهلل وجهها عندما رأت السيارة تقف أمام الباب.

قالت هيام:

- لم يبدل رقمها بعد.

استدارت الأم تجاهها قلقة لرنة صوتها :

- لم لاتفهميني ما الذي يجري، وجهك مخطوف، هل هناك ما تخفينه؟

- لا أمي، لا، لكنني أود الانتهاء من هذه المسألة، أود الانتهاء من كل شئ.

غسلت يديها وخرجت من المطبخ.

اتصلت بخالها تطلب منه المجيء لفحصها. وتم ركن السيارة بمحاذاة الباب.

نادت سالم دون أن تسمع جوابا منه. سلمت النقود بكيس للبائع بعد أن انتهيا من عدها، بحضور الجار أبو صالح وخالها وأمها.سلسلة مفاتيح السيارة تتدلى من يدها. غاص قلبها وهي تفتح مربع السلسلة المعدني. كانت تحمل صورة طفل وطفلة. بلعت ريقها ولم تتفوه بكلمة. نظر إليها الخال. وجدته متعبا حزينا. تبادلا النظرات. خيل لها تفهمه لما دار بذهنها. أخبرته بسرها بأنها ستبدل تلك السلسلة. تذكرت سالم، تلفتت وسطهم بضيق تبحث عنه.

استأذنت لتدخل البيت:

- سالم، انظر، مفاتيح السيارة.

-

- سالم، لِمَ تدّعي النوم؟

-

- سا...

لم تدع الأم الرجل التحرك من مكانه قبل تناوله الغداء معهم. دعت أبا صالح أيضا ليشارك أخاها والبائع الغداء.

- أين سالم، ليجلس مع خالك والرجال لحين إتمامنا الغداء.

... **لن ينتهي هذا اليوم.**

تتنهد. تنظر إلى الجمع المنصرف تماما ما بين وصف وسرد للأحداث.

- الله كريم.

... **الله كريم**

تتردد تلك المقولة إلى مسامعها عدة مرات في الساعة .

... **خلت الكلمة من معناها.**

... **أستغفر الله.**

جاءت الأم بالدجاجة، التي أوصت أم حسين لأن تشتريها. يجب أن يجري دم عند شراء السيارة. ناولت الخال سكينا، رفعت الأم عباءتها عن الأرض وهي تبسمل، وتكرر سؤالها:

- هيام، أين سالم.

فكرت هيام بأن يومها طويل جدا:

- سيأتي.

نفرت من فوران الدم على الأرض وعلى يد خالها. خشيت أن يغمى عليها. سارعت الأم بطبع كفها على باب السيارة. تلوح بيدها المصبوغة بالدم أمامها:

- لم يطل ليبدي كلمة بِشأن السيارة، أتعجبه أم لا.

أخذت السكينة من يد خالها، وسارعت بالدخول مختنقة:

- يكفي يا أمي، اتركيه لحاله.

وفاء

عادل يدخل حاملا إليها خبرا من ضمن ما حمل. أنبأها عن مقترح بالانسحاب من الكويت، يتأمل الكثير من الأطراف موافقة العراق عليه.

قال:

– ستفرج الأزمة قريبا، كل المؤشرات تدل على ذلك، وقبل حلول العام الجديد إن شاء الله.

بدا مرحا جدا وهو يتبرع بإعداد الطعام لهذا اليوم.

– وأين فلاح؟

– لقد حملني هذا الكيس، لأوصله إليك، ولأنقل لك هذا الخبر. خرج مع صديق لشراء جهاز تسجيل ذي الاسطوانات المضغوطة. سيعود مباشرة بعدها... زوجك على ما يظهر أبو بيت.

ابتسمت لكلمة أبو بيت.

– قلتَ سيتأخر؟

تملكتها الحيرة ثانية.

****

... الخوف وأنا أتخذ قرار السفر. ارتجفت وأنا أعد احتياجات السفر. خوفا منه؟ فراق أهلي؟ تشاؤما؟

هل هربت هذه السنوات لتشعر الآن بأنها بقبضته ولن تفلت منه. تكرر لنفسها... وما الفرق؟ هي معه، يتقاسمان فراشا، يأكلان، يتسوقان، يزوران الأصدقاء، ويتعشيان كل خميس في النادي. صوت العقل الذي استعمله الكل معها، طوال الخط، تغلب على حقائق أخرى. وعندما كشف أمره مع طالبة، كانت أختا لجارة تسكن في الحي، أكد لها بأن الأمر لا يعدو عن كونه نزوة. في البدء راعها رفضها العنيف له، لدناءته وجريه المستمر وراء شهواته. صرخت بوجهه:

- نزوة؟ ... لو كانت هناك مشاعر بينكما لبدا الأمر أهون.

... إذ خطر لي ذاك التصور ارتعت، فكرة أن يكون هناك ارتباط عاطفي بينهما أشعرني بضآلتي.

لم تصدق نفسها وهي ترى حياتها تحيد بمسارها لتشبه فلما عربيا. تفيق من شرودها، لتراه واقفا أمامها وبحركات مسرحية مضحكة يؤكد لها بأن الأمر مجرد زلة. ترصده صامتة وهو يتحدث بحضور الآخرين عن مشكلتهما، عن توسله أمامهم ومحاولته استعطافهم إلى الحد الذي يثير تقززها وحرجها. تسخر من اقتتاله لتكون أمامهم دائما جانية، ويكون هو المجني عليه.

... وأنا كبطلة فِلْم يضيق بها الخناق ويود أكثر ما يود أهلها مصلحتها، ألا وهي رجوعي إلى بيت؟

لا تكفكف دمعا، لم تكن هناك دموعا. لكنها عادت إلى البيت كمن يبحث عن حلقة مفقودة. لم تكن قبلها الأمور على ما يرام، مقابل بحثها باتجاه ما هو مشترك لتمسك به. منذ ذلك الحين بدأت، وبمعاندة شديدة للخوف بداخلها، بحثها بصمت عن كل ما من شأنه مختلف بينهما. عن علاقتها الفعلية، ما يربطها به، وعن كل ما يفصلها عنه ويؤكد خطأ اجتماعهما. خطوة مرتجفة بقيت معلقة.

****

في المطبخ ناولها عادل كيسا آخر، فقالت بمزح:

- هل هو هدية؟
- نعم.
- هل أفتحها؟
- بالطبع.
- لم نعتد فتح الهدايا بالحال، أمام الناس.
- لذا وضعتها في كيس ولم أغلفها.

استأذن عادل بلف منشفة حول جذعه، وتحرك كخبير بشؤون الطبخ. تركها تقلب المجلات العربية المهداة منه في زاوية من المطبخ الصغير. بين ملاعبة الطفلة، وهي تتشبث بأذياله، وتحريك اللحمة وقطع الخضار في القدر، تلاحقت أسئلته التي أفلت فيها فضوله الكبير. سألها وهو يحرص على إزالة بقع الطماطة من على سطح الطباخ:

– ما الذي يجعلك تتمسكين هكذا بشأن عودتكم، ما الذي يربطك بالضبط بهناك.

– وما الذي يدعوني على اتخاذ أمر بالبقاء هنا.

– مستقبلك والأطفال، الأمن هنا والاستقرار، الآن مثلا مقارنة، بما يجري هناك من أحداث.

استهجنت بسرها اختياره لمجلة نسائية عربية كهذه. ألقتها جانبا. لفت نظرها كذلك السعر المثبت على الغلاف.

قالت له:

– إني متأكدة من أنني سأفضل نارنا على جنتكم هذه، إن اكتشفتها. كما إنني لا أعتقد بأن فلاحا سيقبل بوظيفة ما هنا إن توفرت له، ويفرط بمركزه هناك.

دفع لابنتها بصحن مملوء بالجزر قشره بعناية، وتناول قطعة جزر مقشرة وقدمها لها، وكأنها أغلى ما يملك.

... **يحاول أن يخفي نشاطه**.

اندس ظفر بين أسنانها. نطقت البنت عاليا بكلمات إنكليزية لقنها إياها.

****

يتحرك الهم بداخلها. هذا الاحتراق الذي مارسته لأيام متتالية أنهكها، امتزجت الوحشة بالألفة فانجرح الصمت.

... **فجأة أرى أن من الأنسب أن أكون أنا تماما. وليس ما يجب، لقد تعبت**.

تألف صوتها وهو يقول بإحساس كامل بداخلها:

–لم تعد حياتي تتعدى حدود البقعة الجغرافية التي تشمل المسافة بين بيت أهلي وبيتنا.

– أين تسكنون.

– دور الأساتذة، عند ساحة سعد بالضبط. بالقرب من كراج بغداد.

– لا أذكر إن كانت هناك دور للسكن.

... **يميل كل شئ إلى الصحراوية**.

– حي سكني يضم أبنية جاهزة واطئة، تتجمع لصق بعضها، الاختلاف بسيط جدا في تصاميمها. كما فصلت السيارات المصفوفة أيضا البيت عن الآخر وميزته، فهذا قد تعين للتو وذاك أستاذ قديم.

لون الحشيش النابت أسفل جدران البيوت يقاوم عطش الصيف فيزداد التصاقا بالإسمنت، تتخلل كوماته الصفراء المتفرقة، بضعة سنابل من ورد الختمة المتدرجة بحجمها وبشحوب لونها الوردي. لون الكونكريت يجابه من يدخله عبر بوابته المحروسة. جو يخلو تماما من رطوبة اللون الأخضر وروائه.

... لم يكن عادل أو غيره الذي يحاكي دواخلي. كان قرارا، قد نوقش فيَّ، دار دورة، ثم أخرى فصدر. يتوجب علي أن أجمع ما يشتتني. كما لو أحدث نفسي، أنصت لها خافضة بصري، وهي تقول:

– هي ليست محاولة فهم أحدنا للآخر، نحن مختلفان،لم أستطع أن أجد وسيلة لنتخاطب معا روحا لروح. عقلا لعقل. أنتهي دائما مع فلاح بأن يستجيب كطفل لأوامري، أو أن نتبادل التهم وأقسى الألفاظ كطفلين. انقطع خيط الألفة بيننا بعد السنة الأولى، صارت رابطتنا الطفلة، التي لم يكن كلانا يجرؤ على كسرها. تماما مثل سيناريو فلم عربي.

وكأني حبيسة مرحلة إعدادي لحياتي، متخيلة ما يمكنني أن أصادفه وما يمكن أن أفعله. وكأن وعدي لنفسي بحياة حقيقية لم يبدأ الشروع به حتى الآن.

صمتت لتسحب نفسا، ولتطلق زفرة طويلة. دفعت بخصلة شعرها إلى ما خلف أذنها. رفعت رأسها، كان المطبخ وهي تنظر إليه يتسع باتساع صدرها.

... **الخطوط ليست دائما مستقيمة**.

... **قد تكون هي العلة ذاتها. يجب أن أغفر لنفسي هذا البوح**.

تكمل حوارها:

- وكأنه ارتاح أيضا إلى ذلك المشوار، الذي جعل كل منا يمضي إلى حياته بعد تأدية واجبه للآخر. بعد فترة نوم الظهيرة تعبر بنا السيارة ساحة سعد عصرا، لتعود وتلف حولها ليلا. يوصلني وابنتي ويذهب إلى مشاويره. يعود بعدها لاصطحابنا. أنتظر هذا المشوار. بل أني في الغالب أتهيأ له منذ الصباح وأن حدث ما يعرقله، تعكر مزاجي اليوم كله. المشوار كان يغنيني إلى حد بعيد عن الدخول بتعقيدات حياتنا معا.

****

بين اندماجها فيما تقول، كان صوت آخر مواز يتساءل. متعة عادل الغريبة لسماع أحاديثها برغم التكرار الذي لم يكن سوى ذاك اليومي المألوف هناك، عندما تعيد إليه بعض تعليقات يتداولها الشباب هناك، أفكار تبنتها البنات،

برامج محلية تقدم، وأسماء مذيعات يذكرهن. وقد ينتقل الموضوع فجأة ليصبح شخصيا بحتا، يدور حوله، وجارة مسيحية وقع في حبها ثلاث سنين يود لو يسمع أخبارا عنها، انعزاله، وأسماء المطربين الذين يعجبوه.

يلوح ذاك الامتنان واضحا في هيأته الماثلة أمامها، والمستعدة لخدمتها إن أمرت. وقد يهرعان لحل أزمة تواجه الطفلة فجأة، أو تقوم بكي قمصان فلاح، بينما هو يسمع نشرة أخبار، لكنها تواصل، تجيب مرحبة، متفاجئة لغرابة الأسئلة التي يوجهها:

– أنت لا تشبهين العراقيات اللواتي أعرفهن، أقصد التكلف في طريقة تزينهن، الشعر، الملابس. لا تضعين مكياجا.

تضحك دهشة وخجلا. عيناها تحلق بعيدا عن ضيق هذا المكان. لا تعلم أين تحط بهما. وروحها وما بها من لوعة مكشوفة أمامه. تتنقل بين دفاع وهجوم أمامه، انتقاما لذلك الحيز الصغير الذي تشغله.

أن تكون هي بجهلها، خجلها، حيرتها، أزماتها كان حلا مناسبا.

... تنبهت إلى أن يأسي، تذمري، وارتبا كي كان مصدر مناصرة عادل لي. شئ ما لم أحدده يود لو أعيد صياغته ليكون ملكي، ليكون لي ما يميزني.

****

لم يكن لديها هاجس حيطة معه. لم يكن ذلك لأمر رئيسي عندها البتة، اللذة كانت تكمن بهذا الإحساس الذي كانت تستزيده منه، وتنفصل بتلذذها به لوحدها. يتابع بخفية حياتهم أمامه، وكأنه يبغي فهم أو تأكيد شئ ما. يتابع أسئلته السخيفة لها كلما حانت له فرصة، واستمتاعها يكبر بالإجابة عليها بتتابع الأيام. تود لو تلقي بحمل ثقيل سُلِّمَت إياه ولم تدري لِمَ، ولم تسأل متى سيسترجعه أصحابه.

... وكل هذه السنين، ولم يتسن لي التفكير بمحتواي، وكأنني الغرفة التي قفلت في الأسطورة، بيدي المفتاح وممنوع علي فتحها.

فضوله يفضح شوقه لبلده، وان سألها عما تفعله الفتيات لتزجية الوقت هناك، أو حتى عن موعد استيقاظها، وما اعتادت البنات فعله صباحا.

****

... أقول أعض يدي، شفتي، ألتهم أظافري، أدور ببيتي... بفراغي. أهرب من أحاسيس كثيرة يصعب علي تحديدها.

- أدخل الحمام، أغسل وجهي دون النظر بالمرآة. أعبر الصالة، تواجهني المكتبة بخشبها المكبوس ولونه الاصطناعي. يصطدم نظري بتلك الأسلاك المذهبة التي تؤطر أبوابها. أهي مكتبة، أم تراها خزانة أواني، ومعرض تحف. لا أدري ما الصحيح الذي يجب أن يطلق عليها، ربما كان الأجدر إطلاق اسم

سفينة عليها. تأخذ المساحة كلها بين الجدارين. ابتلعت ولازالت تمتلك القدرة بابتلاع ما يجئ به من أواني خزفية، وأجهزة كهربائية، ومزهريات، وتماثيل، وقطع لمنحوتات خشبية صغيرة، وحيوانات صغيرة من الكريستال.

في أوقات فراغه، بل في مشاويره للتسوق، يشتري فلاح ما يصادفه، وما يظن أنه صفقة تجارية لم يفطن لها غيره. صار ديدني أن أستل وأخفي في جوارير معرضه كل يوم قطعة، يغيظني ما يبذله من جهد في تصفيفها، وما أبذله من جهد في تنظيفها.

تتلبسني حالة من اليأس وأنا أفشل كل لحظة في إصلاح عطب ما في حياتي.

****

قد يكون لما يقوله عادل فعله بعد انصرافه، أو بعد يوم. لكنها كانت تصغي، وتسأل، وترد.

... لا يمكن لأحد بأن يعلم بما أفكر. حتى هو، وليكن هو، من دون وعيه، جبهتي ومرآتي.

وبطريقته في الحديث المحملة باللوم إزاء ما تقول، يرد عادل لاحقا:

– مكاتب الخطبة والزواج موجودة هنا أيضا، الطريقة التقليدية التي تصفينها لي موجودة هنا، لكن بصيغ مبتدعة تبدو أكثر تربوية وتحرر.

وبحرقة يعيد:

- وقد ترين شريحة كبيرة لا تمسك بكتاب لتقرأه، إنما تدخل المعلومة هنا من النافذة كما الباب والمدرسة والشارع. الحرية التي تتحدثين عنها، ليست سوى ضياعهم هنا. لسنا فارغين بل هم، هو عيب حكوماتنا التي تعيدنا كل يوم خطوة إلى الوراء.

تمسك بما تسمع. قد تنعقد مقارنة خاطئة وقد لا تفهم تماما. لكنها تدخل الحوار ليستمر يومها، فيفترس يأسها:

- تلومني بشرى وتحثني على التفكير بالاستفادة من الظروف. هي لم تستطع إقناع خالد زوجها، بقبول مساعدة طالب جامعي عنده، مقابل حصولهم على خط للهاتف، معاملة الحصول على رقم هاتف قد تتجاوز الخمسة سنين.

يهز عادل رأسه مبتسما وكأنها تلقي له بنكتة. رغم معرفته بما تقول تبدو التفاصيل كنوادر يستمتع لسماعها لأول مرة فيتوهج غرورها.

- عند بشرى الأمور مختلفة، تقول دوما... الغريب فيك يا وفاء أنك تفكرين وكأنك لم تعيشي هنا. تتصرفين بسذاجة، بلا واقعية. وكأنك دون كل النساء من يعاني، ولكنك بالمقابل مستسلمة أيضا. هي مرنة، وجريئة وذكية لا تخش في الحياة شيئا. أنا لم أر ضرورة في استمراري في عملي بغض النظر عن رغبة فلاح بذلك. جو العمل كان صعبا علي تحمله بالرغم من انه لم يتعد وظيفة

كتابية، شروط الانتماء وحضور الاجتماعات، والتبرعات، مسيرة مبايعة في عز الظهر، ومسيرة تأييد أو تنديد بعد الدوام، ومدير يتحكم، ورجال أمن يتنصتون في المراحيض، كل هذا جعلني أهرب.

بشرى لا تجد ضيرا من استخدام العلاقات لتمشية ما يستعصي. لم يمض على تعيينها كمدرسة في إعدادية للبنات سوى بضعة أشهر، حتى حصرت أسماء من تستفيد من أهاليهن.

وكأنها تقبض على الكلمة الشاردة دائما، وتقوى على قولها:

– وحتى خالد... كان معرفا بالنسبة إليها، وهذا ما لم أستطعه أنا. لم تتردد بإقناعي اثر خيانة فلاح لي باعتباره وسيلة آخر الأمر. قالت... نعم، وسيلة للدخول للمجتمع، اكتفاؤنا الجنسي، الأطفال.

يشرب عادل بيرته بهدوء يحرك هدوءها، يبتسم دائما، يطمئن على الطبق الذي أدخله الفرن. ترتبك قليلا. يعود ليجلس مرة أخرى.

تستغرب حماسه باستماعه إليها، بميله إلى حياتهم، التي شعرت ببعض الحرج بادئ الأمر بوصفها له، كونها أكثر من عادية. الدم يصعد إلى وجنتيها ويفضح انفعالها. تركت التفكير بما تقدم وما تؤخر... قالت له وهي تشك في ما تقوله، والذي تقوله أكان من أجلها، أم من أجل الرجل، الذي بدا اهتمامه واضحا بها:

- لا أشعر بدوري، بل لا أشعر بأن هناك دورا لأحد، الآن شعرت بهذا...

صمتت طويلا. نظرت إليه وهو يتحرك بهدوء حولها، يرفع صحنا، يفتح الثلاجة ويتناول شيئا. خفضت رأسها، لا يستوقفها جسده. لا ترى ثقلا له.

... روحه بريئة تنتشر، تستوعب الفراغ المحيط بها.

عيناها لا تحطان على مستقر وهي تكمل بحيرة:

- أنا أيضا لم أشعر بامتلاكي لشيء يوما، ولم تكن عندي الرغبة كذلك.

بشرى

لو نفض رماد سيجارته في وعاء النبتة في الصالون، لأعلنت حربا ضروسا ضده.

لم تشأ بشرى السفر إلى أهلها في الحلة، بعد التهديدات التي ازدادت حدتها، والمهلة التي تحدثوا عنها قبل القصف الجوي. كما رفضت اقتراحه بشأن السكن مع أهله في بغداد لحين انتهاء الأزمة، بحجة أخته.

برغم ماتظهره اخته وما يبدو عليها كانت عاطفية، وحنونة على الطفلين. كان ذلك أيام الحرب الأولى، قبل ثلاث سنين. تريد أن تبقى حيث هي. وكأنها بذلك تنهي معضلة اقتلعتها من جذورها فجأة. في هذا المكان بدأت ببناء مستقر نفسي لها. شعرت بعمق به وهي تقترب من الثلاثين.

ملأت خزانة ملابسها بثياب أجنبية تعوض بها ما حرمت منه. فرحة بنفسها وفي بالها آلاف المشاريع. مدّرسة تتوسط الباقيات في غرفة المدرسات. تولهت بها أكثر من طالبة. يخطفن أمام باب غرفة المدرسات، لكي يضبطنها في

صورها الأخرى. تأكل، تشرب، وتدخن. دسسن برسائلهن بين ثنايا أوراقها. بطاقات، عبارات، وجمل يتداولها الأحبة والعشاق.

بضع سنوات من الخدمة حتى رشحت لأن تكون معاونة مدير، ستتولى مهام أخرى في المستقبل القريب.

كبر الطفلان، وولى زمن الحفاضات وتدبر أمرها، وزجاجات الحليب وتدبر أمره. صار بإمكانها التفكير بأشياء كثيرة أخرى.

...لكن هذا الطارئ لابد له من أن يزول.

شبح الحرب... مرة أخرى، هذا ما أرعبها وجعلها تتمسك بالإبقاء على كل شئ في مكانه. لم تجرؤ على مفاتحة خالد بعد، هي تخطط لشراء محل بيع ملابس نسائية وأطفال في شارع الوطني. اتفقت مبدئيا مع المالك. تنوي تغيير الديكور وواجهة المحل، واختيار اسم للمحل. لإقناع خالد بموضوع كهذا تلزمها خطة مدروسة.

كما إن خلافها معه على أشده في هذه الفترة. أكدت له اقتناعها التام بلا جدوى الهرب والبقاء حيث هما.

- البصرة أو بغداد لهما نفس الاحتمالية بالتعرض للقصف، لن يكون هناك مكانا أشد خطورة من مكان آخر.

معظم العوائل في الحي السكني قد حزمت أمتعتها كون المنطقة مكشوفة تماما. مع ذلك لم تكترث. تفضل البقاء بالبيت في أسوأ الأحوال. ذهب البعض لتفحص الملجأ الخاص بإسكان الأساتذة، ورؤية مدى صلاحيته، للاحتماء والمبيت. تخيلت اختناقها بمجرد الدخول إليه. لطالما قرأت عن ملاجئ الحرب العالمية الثانية في الروايات. صور الرعب والظلمة والبرودة باقية في مخيلتها.

****

لم يكن بإمكان خالد الالتزام بقوانين البيت هذه الفترة. مزاجات الناس اختلفت أيام الاحتلال كثيرا.

خالد يردد دوما:

- وكأننا نعوم بالمجهول.

ترك البيت والأطفال على حين غرة، وبالتحديد قبل القصف الجوي بيومين. لم يكن معلنا حينها أمر ما. الناس تترقب متوترة ما سيكون عليه مصيرها. لكن هذا لم يكن يعني بأن الأمل بانتهاء الأزمة لم يكن قويا. أمر الانسحاب المتوقع لن يأخذ سوى بضعة أيام، لتعود الأمور كما كانت عليه. هذا ما كانت ترجحه. لم تتذكر إن كان أساس خلافهما المباشر هو الكمبيوتر، الذي اشترته من سيارة، كانت تركن على جانب من الشارع العام عند ساحة سعد.

أم الملابس التي كانت تشتريها بالجملة وتكدسها في غرفة الأطفال، أم الحمام، الذي نسي كعادته، أن ينشف مرفقاته وأرضيته، بعد استحمامه صباحا.

وضعه أخلّ بإيقاع البيت وقوانينه. ولم يكن أمر تجنبه والانصراف عنه كذلك كافيا. ضاق بتفاصيل الأخبار المنقولة، والمسموعة، والمرئية، سواء عبر المحطات أم البشر الذين يلتقون بهم. لم يكن واسع الصدر، هادئ البال. التطورات التي تترافق مع الأحداث في الخارج، والداخل، كانت تثير سخريته واشمئزازه بدرجة تثير حنقها عليه. كلما خرج، عاد بمزاج أسوأ مما كان. ازدادت عصبيته. الاختناقات في محطات البنزين وزحمة الأسواق، ومرأى اللون العسكري الذي عاد من جديد ليصبغ ساحة سعد. كل ذلك كان من شأنه أن يفرغه من حيويته بشكل غريب وغير طبيعي، ما يجعل تقبلها له أمرا صعبا.

****

كان الوقت ظهرا عندما أقلها التاكسي، راجعة للبيت مع الجهاز الذي اشترته.

...إذن قد عاد مبكرا فسيارته مركونة أمام الباب.

كانت هي قد اضطرت إلى وقف دروس تعلم السياقة مرة أخرى.

... هاهي الحرب مرة أخرى تخرب علي خططي وإلا كنت استعملت السيارة الآن. لكن ما باله قد عاد مبكرا؟

عندما نادت عليه من ليساعدها في حمله، لم يجبها. اضطرت لنقل الأجزاء الواحدة بعد الأخرى إلى المطبخ، رغم تأفف السائق لبطئها. وقف السائق ممسكا بباب الصندوق الخلفي، متضايقا من سخونة الجو، من المجهول الذي يترقبهم، رعونة السائقين في تلك الظهيرة، طسات الطرق التي قادته إليها، وجنون هذا العالم. نقدته أجرته. نصحته بأن يتوجه إلى بيته بدل مقابلة الناس بهذا الوجه.

اجتازت المطبخ وعبرت ممرا صغيرا إلى الصالة. الصالة كانت مظلمة. الستائر مسدلة، وهو غارق في مكانه. قد أتى على نصف قنينة العرق.

كادت أن تنفجر احتجاجا على حاله اليائس هذا. تمالكت نفسها، ولجأت إلى الثلاجة لتدلق قنينة ماء بارد في جوفها. صبت آخر قطرات الماء البارد على قمة رأسها.

... لاأفهم وضعه.

لن تدع لخالد من أن يفسد عليها فرحتها وفوزها بتلك الصفقة. وكانت الطامة الكبرى عندما زفت له خبر شرائها للكمبيوتر. وهي تشير بيدها إلى جهة المطبخ، ثار بوجهها. ألقى بسيل من اللعنات هكذا دون مقدمات.

اتهمها بالطيش والطمع، معترضا تماما على فعلتها. مسحت القطرات التي تسر سحت تدغدغ جانبي وجهها ورقبتها.

وهي التي ظنت إن شراءه كان صفقة تجارية، عدا عن حاجته الماسة له. لطالما تمنى حصوله، ولو على طابعة إلكترونية يضعها على مكتبه في البيت، يطبع ما يحتاجه في محاضراته وضرورياته الأخرى. كيف إن حصلت له على كل هذا مع ديسكيتات وألعاب للأطفال.

... **ألم يكن هذا تقريبا الحديث المتكرر لزملائه في العمل؟!**

ذقنه غير حليق، ملابسه متغضنة وهيأته مرتبكة، أنفاسه مشبعة برائحة العرق والدخان. وقف في مكانه أمامها:

- ماذا لو كان الجهاز مسروقا من بيت تركه أصحابه، أو حتى لأناس اضطروا لذلك.

- القصص التي يتبادلها الناس قد أثرت عليك. ولم القلق فنحن دفعنا ثمنه، وبرضاهم.

- وما أدراك بصاحبه الحقيقي.

- لا تبالغ بالأمر، هذه مسألة لا تعنيني الآن.

تركها وتوجه إلى غرفتهما بخطوات سريعة. تبعته محتجة على أسلوبه الفظ في التعامل معها. طلبت منه أن يذهب إلى المدينة ليرى ما بها:

- طوابير من السيارات المارة بالبصرة في طريقها إلى الأردن. كانت تتنازل في كل محطة عن قطعة ناوية الاحتفاظ بما خف حمله. الناس تريد مالا لتنفقه في سفرها لا أحمالا... المقيمين أيضا استغلوا الفرصة، وصاروا يأتون ببضاعة في كل يوم، الناس تبيع وتشتري برضاها... أنا لا أفهم... الكل بدأ يتكلم عن الحلال والحرام الآن، مازلت تتعب دماغك في كيفية تفسير الأمور، والتحليل. وأنت تعلم بأن المشكلة الكبرى هي كيفية العيش، هذا هو المهم.

قطع الجدال فجأة بإشارة يائسة من يده. دخل إلى الحمام قبل أن تصل الباب وصفقه. تحدثت إليه عبر الباب، دون أن يجيب بكلمة. خرج عاري الصدر، بعد أن غسل وجهه وشعره. وقفت أمامه تهتز انفعالا، أزاحها عن طريقه وتوجه إلى الغرفة.

وجهه متجهما يميل إل الأسى. ارتدى قميصا انتزعه من الدولاب، بينما كانت تكيل له أقسى التهم... توقف عن الحركة، تأملها مستاء... بهتت أمامه. معانيه جادة هذه المرة. قال محاولا أن يبدو هادئا، انه سيسافر.

صرخت بانفعال:

- حسنا تفعل، المكان لم يعد يسعنا معا.

انفعاله كان واضحا. ترك دخان سيجارته يدور في أرجاء المنزل، وسار على قدميه باتجاه ساحة سعد.

لم تستطع بشرى يومها إلا أن تجمع ما على مكتبه من أوراق لتمزقها. عصبت رأسها وهي تصرخ بالطفلين ليبتعدا عن طريقها.

... كان يجب أن أدعه يغرق في مكانه حتى يأتي على زجاجة العرق فيموت وأسكت.

... لِمَ لَمْ يكن حاله من حال الناس، ليحترق البلد بالذي فيه، ما خصنا نحن؟

... حرام علينا نحن؟ ماذا عن أسيادنا الكبار.

مازالت النار تضطرم بداخلها.

... لير ما سيجنيه مقابل عنجهيته؟

... لو لم يكن هو كنت أنا التي خرجت وارتحت.

زحزحت كل أثاث المطبخ إلى الوسط لتدعك الجدران خلفها، بقيت نظرة عينيه الغاضبتين أمامها. عادت بالدواليب الثقيلة إلى مكانها، وشعرت براحة أخيرا، وهي تدعك أرضية الغرف بخيبته.

****

كل ما كان بإمكانها فعله هو الانتظار. المفاجآت صار يعمل حسابها. لم تقبل دعوات الجيران، والأصدقاء للانتقال معهم عازمة على تدبر الأمر لوحدها.

اتصلت هيام مرة أخرى، لكي تقنعها بالبقاء معهم دون جدوى. واضطرتها أم هيام لأن تقسم بأن تتصل عند الحاجة، كما نصحتها بضرورة ملء ما لديها من قوارير ودوارق بالماء.

تنكر أمام نفسها في انه انتقاما لموقفه. لم تملك إلا الرفض، وكأن الموقف بأكمله لم يتوضح لها تماما. تطورات ما بعد نبأ الاحتلال تفاجئها، السوق والتخزين، التهديدات، موقف خالد، وعلاقتهما. يحدث كل شئ في تسارع. تنكر عنادها، لم تحتج إلى أحد ما يوما. كانت دوما على ثقة بقدرتها في تدبر أمورها، وفي كل محنها.

****

تدبرت أمر أبيها. لقنته بزواجها درسا. نبأ زواجها من أستاذ في الجامعة، جعله يرسل بطلبها، عبر أحد طلبة الأقسام الداخلية، ليبارك لها وهو يفرك بيديه.

... عل دنانير خالد تبارك جيبه.

إنها تفهمه جيدا. ولم تشأ أن تخيب أمله، كما أن خالد ألح على ضرورة ذلك. سافرت برفقته ليتعرف على العائلة. دخلت البيت متأبطة ذراع زوجها بعد مقاطعة دامت أكثر من سنة. رائحة المرحاض الذي يتصدر مدخل البيت، الإضاءة الخابية، والرطوبة التي تزفرها الجدران تواجهها.

لم يعرف أبوها طيلة حياته في أي مرحلة دراسية كانت. اشتبك عليه أمر أسمائهم، بعد زواجه الثاني. لم يكن منتبها إلى وجود أحد من أبنائه، والأمر الوحيد الذي يشغله هو جيبه. دكان العطارة كان شاغله، وقد أرغم بعضا من أبنائه على ترك مدارسهم، للوقوف بجانبه ومساعدته دون أجر يذكر. كانوا يتلقون الإهانات من يده، لسانه، ونعله دون أن يجرؤ أحدهم على الاعتراض. ضاقت بسلطته، وبخله، بالطعام، الملبس، وحتى في شراء مصباح لغرفة أو حمام. ضاقت من حاجتهم المستمرة حد اضطرارها للسرقة أحيانا.

كاد أن يقتلها تدخل زوجة أبيها بأمورها، ونعتها لها بالمجنونة. تكررت نوبات الصرع الذي كانت تعاني منه بعد وفاة والدتها. أولى سنوات مراهقتها. ظن الجميع بأنها تقف عند حافة الجنون. طردت الأقارب وتعاويذهم وهي تمسك بألم رأسها. وذات ليلة هددت زوجة الأب بالسكين، فابتعد الجميع عنها.

****

هل يعقل بأن يكون لكائن ما، متجسد بامرأة، هذا التأثير الكبير، ليغير وجهة حياتها. ليجعلها تصحو فجأة لترفض هذا التقهقر والانهيار.

إنها مدرسة اللغة العربية " ست ليلى ". مرشدة صفها، تلك التي كانت نورا أضاء لها حياتها. كلمة منها ذات يوم، هي التي جعلتها تشعر بأهميتها

كإنسانة، أسوة بالطالبات الأخريات، لاسيما المجتهدات منهن، والغنيات في الصف أيضا. كلمة حملتها حنانا واحتراما لشخصها، حتى كادت تتلفت يسارا ويمينا لتتأكد من أنها تعنيها.

قالت بهدوء:

- نعم، بشرى، تفضلي.

وبدأت بشرى بقراءة إنشائها بصوت مرتجف. كان الفرح يغمرها مما جعلها تؤمن بما اخترعته بكتابتها. طغى على صوتها شيئا فشيئا. عدته مؤثرا عندما سمعت صداه في آذانها وسط هدوء الصف.

... يا إلهي.

دارت بالبيت وهي تحضن توقيع مدرستها. ست ليلى، تردد وقع الاسم بداخلها، كل مرة بتأثير مختلف. شعرت بأنها لا تملك إلا أن تؤله هذه المرأة.

... فيها شئ نوراني، إنها إلهي.

ستكتب لها اليوم صفحات وصفحات تملؤها بما تشعر اتجاهها. لا لن تضايقها في هذا. ستكتفي بأن تمر بغرفة المدرسات غدا باكرا لترى وجهها. وداهمها خوف شديد. أن يحدث ما هو ليس بالحسبان فتختفي ليلى. لا ستضيع كل آمالها. ستنتهي في ذلك الجحر.

انكبت على دراستها بفعل السحر الذي تملكه مدرستها. بفعل تمييز مدرستها وخصها دون الآخرين باهتمامها. بالكتب التي كانت تأتي بها للصف للاستعارة.

تفتحت لها عوالم جديدة. تبنت بفضلها صور حب مختلفة. أحبت رغبة بتوسيع عالمها. أحبت لتكتب. أحبت لتغلب.

وصرف القلم، كتبت بثقة... إن الاكتشاف لا يأتي إلا من خلال التجربة. الكتاب ما هو إلا وسيط، يبعث الاطمئنان والثقة فينا، قبل أن يسلمنا، أو يدفعنا إلى التجربة. وبها، بالتجربة نستدل الطريق. تحت التجربة نتحسس عوالمنا، تصير العيون والأنوف والأفواه بأسمائنا، بحواسنا. حينها فقط يرسخ شيء في الأعماق.

مرت أشهر دون أن تتمكن من تسليم رسالتها التي عنونتها " إلى امها الروحية ليلى". تعبر الحدود الرهيبة لغرفة المدرسات، وهي تضغط على الورق الذي تحضنه بين يديها، دون أن تجرؤ على أن تطل في داخل الغرفة. يتسارع نبض قلبها، يسيل عرقها وتعصف أحاسيس غريبة بداخلها، تجعلها تولي هاربة من هذا المكان. لطالما تأملت هذه الحدود من بعيد، لطالما بهرها اجتياز بعض الطالبات لتلك المنطقة ودون أدنى رهبة. عندما كانت هناك مسألة ما

تتطلب منها العبور ، كان كل ما يمكنها عمله هو الانطلاق ودون التلفت يمينا أو يسارا. أي جبروت يملكن هؤلاء المدرسات وأي سحر.

****

أوصتهن الست ليلى بأن يكتبن دوما، قالت لهن أطلقن خيالاتكن واكتبن. عن البدء، حواء والجنة يوما ، كن وزيرات مثلا، خادمات، كن شهرزاد، تخيلوا قصص حب واخلقوا لها نهايات... اكتبن، اكتبن واكتبن.

... قالت اكتبن، فقد حبا الله المرأة القدرة على التعبير والتوصيل بالكلمة، دون كل مخلوقات الدنيا ومخترعاتها.

وكان أول فعل لها حين عودتها ذاك اليوم هو الدخول في الغرفة والانزواء وحيدة لساعات. دنت من أوراقها تحت السرير. صفت مجموعة منها، تأملت بياض تلك الأوراق برهبة. كتبت برجفة على الورقة الأولى منها اسمها.

****

اكتبن عن الحضارات، فالكتابة انطلقت منا. اكتبن عن بابل، بابل "مدينة الكل"، اربطن بين مدينة الآن و ‘‘المدينة العامرة". كيان ظهر من اللا شئ. وسط تلاطم أمواج البحار والعواصف. بضعة قطرات مزجها مردوخ بالتراب فوق حصير مجدول بعرض البحر. خلقنا، وجاء من بعدنا الكون كله.

وكأن ريحا تعصف فتفتح نوافذ في أعماقها. تتحسس وجهها، تمر بها الكلمات كالطوفان مصورة لحظة بلحظة. انه الكابوس الذي يلازمها، هو ما تسمع. أم حياة عاشتها سابقا. عاد اهتزازها فوق موج البحر. إذن أنا من خلفتني الإنسانية، وحيدة وسط ذاك البحر، وعمرت شواطئها بعيدا عني، أراها ولا تراني. عقابي، قدري الذي لا مفر منه.

أوراق رطبة تكدست تحت فراشها، أوراق وأوراق فاضت أسطرها حتى اسودت لتنفض عنها رعبها من دون جدوى. بل صار الإحساس بها يلهب الحمى بجسدها، ويدفعها إلى الهذيان.

هبت من مكانها واقفة منتصف الدرس. موجة تعلو موجة. تهم بقول شئ، البحر يبلع بدايات الكلمات، تشعر بأنها ستتقيأ حال فتح فمها. صداعها شديد، تندفع الكلمات إلى أعلى، دفعات تتجمع في الحنجرة. تضع يدها على فمها. انه الدوار مرة أخرى. مدرستها تتفوه ببضعة كلمات، الجدران تميل ببطء، تهرع مهرولة خارج الصف.

تخشى إغماض عينيها. تشعر بالحال بعمق البحر وتموج حصيرة القصب، تتشبث بالأطراف. منظر الماء الذي يحيطها من كل جانب مروع. تشخص بالبعيد، وحيدة وسط كل تلك المخاطر، علَّ ربوة من البردي تلوح بالأفق، أو بناء. تصحو بعد الدوار ذاته الذي غيبها، ليرجعها إلى مكانها مرعوبة.

****

مضت قدما في أيامها الدراسية، تتحسس في منامها حرارة الكلمات التي تتوسدها، وهي تسمعها لليلى حين تجتمع بها يوما.

تسلمت قبولها في جامعة البصرة. لم تشأ البقاء في مكانها، ولم تطق سماع هذر الفتيات من حولها. انطلقت تسير وحيدة وهي تفكر. سكن مجاني وراتب يسد نفقتها إن أحسنت التصرف.

اشترت زجاجة عطر صغيرة من محل الكماليات. هذه المرة شاءت أن تشتري وتدفع ثمن حاجة، تعبر بها عن امتنانها الحقيقي لمدرستها. تمنت أن تكون الهدية خاصة لا تليق إلا بليلى. لم تشأ مغافلة صاحب المحل أو مغازلته لتسرق ما تريد. هذه المرة تدبرت أمر المبلغ ولتدفعه مرة واحدة.

غلفت زجاجة العطر بعناية كي تهديه لمدرستها. اغتسلت. سرحت شعرها أمام كسرة المرآة. توجهت إلى باب البيت، لكنها عادت وألقت بعباءتها جانبا. انحنت تحت الحنفية الواطئة في حوض الاغتسال، جعلت الحنفية تصب. كان الماء باردا جدا، خفف قليلا من شدة توترها.

عندما دخلت الشارع الفرعي الذي يحوي بيت ست ليلى، ترددت. تعثرت الخطوة وسرت رجفة في الركبتين. ودت لو تستنجد بأحد ما، كي يدفعها لأن

تطرق الباب. لكنها قفلت راجعة إلى البيت متحسرة، آملة أن تسنح لها فرصة أخرى.

****

شعرت بابتعادها عن البيت بارتياح كبير. البدء من جديد منذ اللحظة الأولى. دخلت في تفاصيل هذه المدينة الكبيرة و مشاغلها. لم ترها ولم تتعرف على أحد من ساكنيها من قبل. كان يحلو لها أن تفك أسرارها بنفسها، كما لم يفعل أحد، والمجال للاكتشاف يكبر بكبر هذه المدينة التي فتحت لها شوارعها،جسورها، أسواقها وأهلها.

طالبات الأقسام لا يعرفن غير الأسواق والمحلات في شارع الوطني، سوق حنا الشيخ، سوق الهنود، وفروع نهايات شارع الكويت. بينما هي تسير بمحاذاة الأنهر، دليلها داخل مدينة الأنهار، تحت ظل أشجار الصفصاف الكبيرة، غير مبالية بالمارة والشمس. الأنهار ترسم المدن، وتكشف الضفاف عن قصصها، نهر العشار أوصلها يوما إلى الفراهيدي وجبته الواسعة، وآخر أعاقتها البيوت دون تتبعه، ثم اكتشفته من جديد عندما كانت بصحبة مجموعة من الطلاب في متنزه يحمل الاسم ذاته، نهر ومتنزه الخورة. ولو أفسحوا لنهر الخندق طريقه ذاك لفتح لهم جنة ترميهم على ضفاف شط العرب.

شاركت الأخريات غرفهن في القسم الداخلي. لم يكن السكن في قسم داخلي جنة. تدرجت في اتخاذ قرارها، لم تكن تنوي العودة ذلك الصيف إلى بيت أبيها وزوجته. طردها الأب لعصيانها. لم يكن أمامها إلا أن تخطط للارتباط بخالد خلال الأشهر القليلة المتبقية من ذاك العام. تأملته وهو يروح ويغدو في ممرات القسم، معتدل في تعامله مع الطلبة، مقتضب في حديثه، لم يكن في مظهره ما يعيب.

...أشيب، طويل القامة، في الأربعين من عمره، غريب الأطوار، بوهيمي.

لم تر في ما نقله البعض إليها عيبا.

... نقيب العزاب، من أصحاب السهر والقمار، وموائد الشرب.

كانت تفكر بأن من شأن الوظيفة التي يشغلها واسمه أن يلغي كل هذا.

شهق الكثيرون بل الكثيرات استغرابا لفكرة ارتباطها به. لكن الفكرة اختمرت. لم يكن بالإمكان التخلي عنها. لم تنكر في أنها طاردته زمنا في أروقة الجامعة، وقاعاتها لكي يشعر بوجودها. في المرحلة التي تلتها أدركت ضيقه بالأساليب التقليدية بطلب المساعدة في بعض المواضيع، وقد عدتها هي الأخرى مكشوفة أيضا. مناعته زادتها إصرارا. استعانت بعد شحذ لقواها بفطرتها، ووحي كم القصص التي مازال أبطالها يلعبون أدوارهم برأسها.

اتخذت من المباشرة أسلوبا في الحديث معه. حدثته عن نفسها، عن أهلها، عن جنونها، وعن كل ما فكرت به وخططت له .حدثته عن القسم الداخلي والطالبات. عن مشروعية كل ما يفعلنه في الخفاء.

... يتعوذن من الشيطان لذكر كلمة جنس، كأس، رقص ولا حول ولا...

ذللت له فارق السن، لما كانت لم تكمل بعد الثالثة والعشرين، حين دخل عليهم القاعة لأول مرة مدرسا لمادة الفيزياء

****

خالد كان مترددا جدا بإمكانية تحمل مسؤولية تكوين أسرة. أطال الشرح في مسألة تعوده حياة العزوبية. قال لها بهدوء بعد أن سحب نفسا عميقا من سيجارته بأن محاولات أمه وأخته قد باءت بالفشل. كما مل الأصدقاء الخوض في الموضوع بعد أن لمسوا عناده.

أسرته تقليدية، يحظى فيها الذكر بمكانة خاصة، حرصت فيها الأم وأخته الكبرى، على تولي أمور البيت. لم يجرؤ يوما على غسل صحن في حياته، معتقدا بأنه يعتدي على حقوق سيدتي المنزل. حتى اضطرته الظروف أخيرا، حين وجد نفسه وحيدا عندما سافر. لكنه ما لبث أن وجد صديقة أعانته في ذلك.

كان هذا حصيلة إلحاحها عليه بالتحدث عن نفسه. كان يود لو يختصر حياته بكلمة أو كلمتين إن أمكن.

****

حضنت الأطفال وحيدة في الليلة الأولى للقصف الجوي، صرخت بأعلى صوتها تلعنه. تصاعد الغل فيها. ودت لو تحرق خالد والأمريكان، لكنها ما لبثت أن حبست خوفها أمام عيني الطفلين. كانا يسألان عن الاطمئنان في عينيها.

خمنت في أن مواقع الانفجارات كانت بعيدة، فقد تحدث الأصدقاء عن خلو المنطقة تقريبا من المنشآت العسكرية، الجسور، المخابرات، المولدات الكهربائية، ومراكز الاتصالات.

ضمتهم إلى صدرها .

وفاء

فلاح يمارس رغم الأحداث يوما اعتياديا نقله من الهارثة والبصرة إلى هنا. يتحرك دون أن يعترضه عارض، لا يخجل من السؤال والتوسط والتنازل.

... تماما كما عهدته هناك.

يدخل البيت فجأة ليلقي بالمدخل أو على طاولة المطبخ ببضاعة ما، وكما كان يأتي بخضرة ما، أو رطب يتوقف في طريقه ليشتريه من أحد البساتين في الهارثة، عثر على بضعة مزارع هنا ليأتي بما تقع عيناه عليه. يدلف المطبخ ليأكل ما هو بمتناول اليد، يقبل ابنته ويعود إلى عمله.

... بمرور الأيام تتكشف لي حقائق دون وسيط، فأنا من اللواتي يفوتهن الكثير.

أصدقاء فلاح صنفتهم إلى قسمين، بل أكثر ربما، لكنها لم تستطع أن تجد تعريفا كاملا لكل الأصناف، ماعدا صنفين رئيسيين ربما.

الصنف الذي كان مبعوثا على حساب الدولة، ويخطط للعودة لارتباطات شتى. زياراتهم كانت قصيرة متباعدة. أو يكون فيها فلاح قد آثر مقابلتهم خارجا.

... كانوا أكثر قرباً بطباعهم وتفكيرهم إلى من في الداخل، مقارنة بالصنف الآخر، ربما أكثر محلية، ومحافظة، واتصال بما هو هناك، لكن مباشرتهم كانت منفرة.

الصنف الآخر هو الذي كان معارضا.

وهو الذي لم تفهمه كثيرا، يتحدثون دوما وعلى مقربة منها، وبصوت عال عن حرقتهم، عن أملهم الذي قرب الآن بتغيير الحكم، ثم اعراضهم عن كل ما يصلهم، استعمالهم لكلمة تخلف، بينما يصفون لها نكبة الناس برغم جهلهم لما يحدث هناك، وكأنهم عنوا بذلك إقناعها باهتمامهم الفعلي بمصير الأهل.

وقد يختلط الأمر عليها أحيانا فيصعب التصنيف. يمتزج الطالب، وهو قلق بشأن تدبر دفع أقساطه التي كانت تدفعها الدولة له، باللاجئ، المعارض بالمناصر، الأستاذ بالتاجر ومشاريعه التجارية الكبيرة، أو عامل التنظيف، بالمقيم في الخليج سابقا، وهو يبكي مصالحه وسياراته التي تركها هناك، ويحتار أيبقى ويحصل على معونة اجتماعية من بريطانيا، أم يعود للكويت...

... وأنا في غربتي بين هؤلاء البشر، أخشى أن يترصدنا أمر ما.
... أفضل عزلتنا، على تلك العلاقات التي يفرضها فلاح علي.

****

عند عودته، يخلع قميصه، الذي انتشرت فيه دوائر العرق. يلقيه على السرير بقربها. عيناها في المجلة التي بحضنها. يلقي بمنشفته على كتفه ليتوجه إلى الحمام. وقبل أن يغادر الغرفة، يدور عليها وهو ممسك بمقبض الباب، وبحركات من يديه وجذعه، تراه فيها غريبا تماما عليها، يقول بتوعد:

– تشعرين بالقرف مني. لأني أحاول أن أضمن لكم ما تحتاجونه. لم لا تحلين محلي لتجربي العالم خارجا؟

تجمد في فراشها. ها هو يمسك بعنقها. تدرك في أنها تضعه بالمواجهة. هي لا تقوى على رؤية العالم بالخارج. إنها تخشاه. ولا تستطيع تدبر أمرها لوحدها فيه، وهو يعلم بأنها لا تصلح لذلك.

كبرت بظل أبيها ورفقة أمها سعيدة قانعة. لم يثر العالم الخارجي فضولها. وان عاب اخوتها عليها ذلك.

اعتادت على صورة ذاك الأب، الذي تقاعد من خدمته كمعلم في أواخر الستين من العمر. متفانيا في خدمة بيته وبلده، لا يرى في العالم إلا طيبته. ربى أبناءه، الامتداد، بالمثل ذاتها. عندما يجتمع الأخوة والأخوات في

المناسبات، يكون حديثهم المشترك، هو الحظ الذي لم يحالفهم في حياتهم. يلقون اللوم بود على الأب الذي كان يزن الأمور بميزانه قبل الشروع بتنفيذها. بسبب هذا عانى الجميع في مواجهتهم لصعاب الحياة.

عيادة الأخ كانت مستشفى خيريا للفقراء ومجانا للمعارف، الأخ الذي بقي بوظيفته دون ترقية، والأخت التي تعيش مع زوجها المعوق الذي احترق داخل دبابته في الحرب الأولى. إن حالف الحظ أباهم بتمكنه من البقاء مستقلا طيلة فترات حياته، فقد كان لذاك جرائره مع الأبناء. أمها لم تبخل في حمايتها لها. تجلس مستكينة تحت جنحيها هادئة. بقي اهتمام الأم بها سبب احتجاج الأخوة وموضوع مزاحهم. موظفة تعود من عملها فتجد الصينية جاهزة بصحونها، والخضرة بجانب منها ، والقدور على الطباخ، محتفظة بدفئها، بانتظار وصولها.

****

ولى عادل ظهره لها، وهو منشغل بضبط محطات التلفزيون. يتابعان أخبار القصف الجوي، قضمت اظفرها، تأملت فقرات ظهره الناعمة التي برزت خلف قطن التي شرت الذي كان ملتصقا على جلده:

- ما قيمة حياتي إن لم أكن بين أهلي، فيرون الأطفال وهم يكبرون، ما اشتريت، ما ابتليت به.

هناك انحناءة خفيفة تميز قفاه وتبرز عموده الفقري. استدار فجأة. أسرعت بخفض بصرها، تشاغلت مع طفلتها التي كانت تشغل حضنها. جلس على كرسي مقابل.

– أما زلت مرتبطة بهم إلى هذا الحد؟ لك عائلتك، طفلتك، زوجك.

نظرت إلى حيث علبة المناديل الورقية، علمت انه سيمسح يديه بمنديل ورقي كلما أنهى عمله، إن لم يستأذن ليتوجه إلى الحمام. قالت بفخر تود أن يصله كاملا:

– لا حياة لي بدونهم، لا أشعر بقيمة شئ بدونهم، لا قيمة لبيتي أيضا دون إحساسي بقرب بيتهم.

– الأمر يستحق التجربة، الناس هنا تختلق الأحداث كي تطلق عليها اسم تجربة، تحب المغامرة، المجازفة.

– لنسلم على أرواحنا، الله يخليك، طول عمرنا بلا مستقر، أي تجربة؟

تناول منديلين فرك بهما يديه منهيا عمله:

– إذن كان من شبه المستحيل إقناعك بالسفر.

شعرت بأن وجبات من الفرح وان كانت صغيرة بدأت تداهمها. تشعر بشيء من الخفة لا يمكن اخفاؤها. دفعات صغيرة من الاهتزاز تنشط من عضلاتها، تزيد من ضحكها، تصبغ وجهها بحمرة محرجة.

أجابته ضاحكة:

– قضينا الأيام المعدودة قبل سفرنا بعراك دائم، كدت لولا التدخل أن أنسف خططه. بدأت أحزم أمتعتي بانتقام، قلت لأمي بإمكانكم استعمال كل ما نقلته، على الأقل يمكن لأحد الاستفادة منه، غير الطباخ لم ألمس، الفيديو لم أرفع عنه غطاءه، فلاح يستعمله فقط ليرى أفلامه الخاصة... هل يثير انفعالي الضحك؟ أمي كان لها نفس رد الفعل هذا، قلت لها... طبعا فأنتِ ترين كل ما يأتي من الرجال بديهي ومقبول. استعملي الفرن المايكروويف، له دفتر إرشادات في صندوقه. سيجن جنون فلاح، إن سمعني الآن فهو أعز الأعزاء آخر ما اقتنى. أعد به وجبة يتيمة تمتع بها وحده مع ابنته.

جاء عادل بكوبي الشاي، ووضع أحدهما أمامها، أدارت الملعقة بالكوب ورشفت رشفة:

– لن أشرب شايا حقيقيا هنا، أنت لا تعلم بأن فلاحا قد يفقد صوابه لمجرد سماعه بامتلاك فلان لسلعة ما جديدة لا يمتلكها هو، لا يهدأ له بال إلا باقتناء أخت لها، أو ما هو أفضل منها.

وألفت نفسها تضع طفلتها جانبا، وتستأذنه دون خجل لتذهب إلى التواليت.

****

تمنت لو تكتب لأختها هذه الساعة، أن تكشف لها عن قلقها عليها، أن تحدثها عن أشياء كثيرة جديدة، وتسألها عن أخبارها باهتمام فعلي.

وأن تكتب لبشرى.

...لم أخف ارتياحي لعادل عن أحد، لكن الكتابة عنه لبشرى، فكرة شطبتها، بمجرد حضورها ببالي. لن تفهمني، ولا أحب أن أشرح ذلك. سأجمعه إلى جانب الكثير، الذي لا يخص أحدا سواي. سيفسر الموضوع بأسهل طريقة يمكن أن يفكر بها أي شخص، أو أية صديقة. ما يتبادر للذهن اثر أول كلمة. كما أنني أشعر بخصوصية تلك المسألة. إنها لا تمت بصلة لا لعادل أو لآخر غيري.

فلاح لم يكن يظهر أية بوادر غيرة اتجاه مرافقة عادل لها في التسوق، أو للتنزه مع الطفلة، أو مرافقتهم للطبيب أو الصيدلية. يتصل بها أحيانا ليطلب منها تكلفة عادل بالقيام بكذا أو كذا، معتقدا بأنهم يستغلون عادلا أحسن استغلال.

... هذا هو أقصى ما يتلذذ به، ويشبع به رجولته.

يصطحبه في مشاويره، ولإتمام معظم أشغاله. وعندما يتصل ليبلغها بمرور عادل على الطفلة، يعلمها بالوقت نفسه بأنه سيتأخر لبعض الوقت.

... ربما كان ذلك، وبحدس مني لطريقة تفكيره، غير متيقن من رجولة عادل.

لو رأته أختها لألقت أيضا بوابل من الأحكام والتحليلات بين يديها. لنعتته مباشرة بالميوعة لنعومة وجهه. و... لا يرهب، ولقالت عنه بأنه يحب أحاديث النسوة، ومؤدب بشكل مبالغ به لا تفضله الفتيات، ولم يحسن الغرب من ذوقه باختيار ملابسه، محدودب الظهر، وساقاه قصيرتان معوجتان، وحذاؤه يشبه حذاء مدرس الرياضيات أيام المرحلة المتوسطة.

حمدت الله إن اختها لم تكن هنا، لطالما أفسدت عليها رأيها بكثير من الأشياء التي كانت تحبها.

... صادف إن اشتريت بدلة أحببتها ما لبثت إن جعلتني أقرف منها وبعتها لصديقة بخسارة.

****

البرد كان شديدا جدا في هذه الشقة. المدفأة لا تفي بالغرض. الايرلندي حذرهم من تكلفة الكهرباء، فيما لو استعملوا مدفأة كهربائية.

تقتصد أكثر وأكثر وتقنن في مصروف البيت. بات جزءا من خلافاتهم يدور حول شراء فلاح لكل هذه الأجهزة التي كدست بجانب من الصالة الضيقة.

قلقها يتزايد عندما تفكر في مصير إقامتهم.

لكنها تخفي قلقها بشأن انفعالاته. فهمت جزءا منها، عندما دخل مساء وأخبرها:

– لقد تحدثت مع المختصين، احتمال، أعني ربما كان هناك أمل بتمديد الفترة إن اضطرتنا الظروف.

– وهل سأقضي الأشهر هذه بمراقبتكَ، وأنت تدخل وتخرج وتتسوق. ما الذي سيمكنني فعله غير هذا.

– وهل اختلف الأمر لديك كثيرا عن هناك، فوفي خانم؟

لا تعي ما يجري، تحير في ردها، وقد ضمت في سخطها الغرب إلى المحيطين من حولها أيضا. نظرت إلى فلاح. بدت بدانته واضحة في مقطعه العرضي، خطر ببالها ما يكون قد مر بباله، صاحت:

– ثم، وما علاقتهم بنا، لقد عرفتهم جميعا وأني لأرتعب لفكرة أن يؤول الحال بنا لو بقينا هنا إلى نفس المآل. ننفض عنا هذا الكابوس، ويضحون هؤلاء الذين تعاشرهم أهلنا وأصدقاءنا. نأخذ صدقة ونمضي لنؤثث بيتا من جديد ونطعم أطفالنا وننام. لكن ليكن في علمك، فأني لن أبقى يوما واحدا هنا لو فتحت الحدود.

– بل من الآن، لم لا، ستحررين فلسطين وليس العراق فقط

****

... لِمَ يحدث كل هذا؟

هي لم تحلم بأكثر من مشوارها اليومي من بيتها إلى الجزائر حيث أهلها، لقاء الصديقات، ولعب الأطفال من حولهم.

... ما الذي يحاول عادل قوله؟ ولماذا لا نتأنى قليلا؟ ... ما الذي يفكر فيه فلاح.

تجنب فلاح مصالحتها كل هذه الفترة، ولم يسع كسابق عهده لأن يراضيها.في حالات خلافهما كان صمتها دائما سلاحا مدمرا له، لا يطيقه على حد قوله، يظل يحوم حولها حتى ينطقها.

ورغم ذلك، حاول عادل اليوم المرور بين الآونة والأخرى بالمطبخ، وكأنه يطلب منها الانضمام إليهما، للشروع بحديث جدي قد كلف به.

... تمعنت فجأة في تفاصيل وجهه، وجه عادل سمح لا يخفي دماثة خلقه... له عينان صغيرتان لوزيتان، حنين، بارد جدا، يشعرني بالأمان، من الوجوه التي تمنح تطامنا، راحة.

ارتياحها بات جليا لتواجده، تركته يظهر. رغم تقارب أعمارهما، تشعر بأنه أكبر منها سنا. بقيت صيغة محددة في التعامل بينهما، حفظها احترامه الشديد لها، رغم الألفة التي نشأت بينهما. كانت وكأنها تريد التأكد من

ذلك دوما. احترامه لها هو الذي جعلها اكثر انفتاحا معه، وجرأة بإقدامها على خوض مغامرة الإنصات.

... لكن انفتاحي معه كان أكبر، عندما يغيب عني. أو يكون في مخيلتي. يختلف كثيرا عنه عندما نلتقي. أتخيله ممسكا بيدي، أتصور هـ بحضني. لكنه وهو يمثل بين يدي، يبدو كل ما كان قد دار بداخلي، ومخيلتي غريبا علي مرفوضا قطعا.

أبقى عينيه في عينيها وهو يهم بطرح اقتراحه. ولم تشك في أن" فلاح" كان من كلفه بالأمرين، فقد كان قلقا، يركز بنظره على عادل ينتظر نطقه:

– من غير الممكن إيجاد حل غير اللجوء إن انتهت مدة البعثة.

– إذن لننتظر، أنا لا أستطيع التفكير بالأمر إن لم تنته الأزمة.

– الفرصة مواتية الآن فليس الأمر بالهين كما تظنين.

– لا أريد أن أتجمد من البرد هنا، كما أنني أشعر وكأنني في سجن، لا أطل على أحد ولا أحد يطل علي.

يقول فلاح على الفور:

– أحمد قدم طلب لجوء سياسي.

وكأنه لم يسمع ما قالت، وتعجل بما فكر به، فبان التراجع واضحا فيما لحقه من تعقيب:

- ولكن ... تبقى المسألة مجرد فكرة طرحت علينا.

ترصد الاثنين، فلاحا وهو يزم شفتيه حيرة، وعادلا الذي بدا تردد فلاح غير مفاجئ له.

... لكن عادلا بدا أيضا وكأنه كان مكلفا بمهمة أنجزها وانتهى.

... وكأنه تمنى أيضا، انتظر أو توقع رفضي مسبقا، فارتاح للنتائج التي انتهينا إليها. كان هذا كل ما ود سماعه قبل أن ينصرف.

لم ينظر إليها، استأذن وانصرف على عجل.

انصرفت إلى الفراش.

المطر يختلط بحبات الثلج، يرتطم كذباب على زجاج النافذة. رؤية الظلمة من خلال النافذة تعصر روحها. تستدير إلى الجانب المعاكس. ضيق السرير يحدد حركتها، ويباسة فراشه تجعلها تتقلب أكثر من مرة.

... وددت لو أتبع عادلا لأسير معه هكذا دون هدف، دون كلمة، حتى المطر الذي مقته منذ لحظة، ظننت بأنني بحاجة ماسة إليه، ليتخلل جمجمتي، لأغتسل به، بحاجة لأن أملأ كفي به وأبرد جبهتي.

دخل فلاح الغرفة فتظاهرت بالنوم. زفر بصوت عال، أطفأ الضوء وصفق الباب بشدة وانصرف.

****

لم يستجد من مجرى الأمور في مانشستر إلا الأسوأ، الذي حجبه موسم أعياد الميلاد وهدايا الأطفال عن أن يظهر،

بل حجب الأصدقاء عن زياراتهم الثقيلة على نفسها بتلك الفترة.

... بقي عادل هو النافذة التي أرى من خلالها العالم.

تتمهل في فراشها، تشغل صحوها بالصدى. تستقل الباص لوحدها في تسوقها من الهنود، وذهابها لغسل الملابس، تنزهها مع الطفلة واللعب معها. تحولت ضحكاتها وضحكاته في بالها. حل محلها صدى كلمات جادة وأسئلة.

... أو يعقل هذا، وأختي أينها لكي تسمع. كنت أفكر في أن موقعنا في القعر لو قورنا بهن هنا، بل أني مازلت متشككة في هذا الأمر.

لكن ما يقوله عادل بثقة يزعزعها، يحرك تساؤلا بداخلها، ودت لو يتوقف ويستأذن ليخرج لحظتها. ودت الاختلاء قليلا تلك الفترة والتفكير بنفسها، أمور كثيرة رفعت من حرارة جسدها ليل نهار.

... أحدّث بشرى وهيام. تأتيني أختي يوميا، فأسلمها كل ما عندي.

... وان لم أكن قد فهمت كل ما قاله لأول مرة، ولم أدرك المعنى الفعلي لما كرره مرارا، لكنه إحساس يوحي بالتذبذب.

نغمة صوت عادل كانت تميل إلى الاستهانة، بكل ما يمكنه امتلاكه هنا، وما تشعر بأنها تنتقصه:

- لا تظني الكمال فيهم نساء ورجالا، لديهم مشاكلهم، وكل ما تقولينه له شكله الآخر بالمقابل، العصرية التي أضفت الرتوش على تفاصيل ومشاكل البشر هنا هي التي تجعلك تظنين بأنهم متطورون.

- لماذا أنت حاقد عليهم إلى هذا الحد؟ أيكون بسبب تهميشهم لنا كما تقول؟

- ليس هذا، كل شئ فقد طعمه هنا، مصنع، مغشوش، يبتعد عن جوهره، كالطماطة والخيار، هل تشمين له رائحة؟ هل له مذاق حقيقي؟

خالد

شعر بدوار وهو ينهض فجأة ليجد منفذا للضوء. أدار رأسه قليلا، تراقصت دوائر أولية وثانوية، ملونة بألوان الطيف.

جلس في غرفة الضيوف المعزولة عن باقي مرفقات البيت. تناثرت ملابسه يمينا ويسارا. طاولة صغيرة مسحوبة من مكانها بين الأرائك، وضعها أمام كرسيه الذي واجه النافذة. أنزل جانبا قنينة عرق وضعها في صف قناني البيرة

الفارغة التي ملأت الأرض. طفحت المنفضة بأعقاب سجائره. أزاح جزءا من طبقات النايلون والبطانيات وأكياس الرمل التي ثبتت بإحكام على ردفات الشبابيك الأربع.

...**لم نلبخ الشبابيك**.

في بيته في البصرة اقتصرت احتياطاتهم على بضعة طبقات نايلون وبطانيات. معرفته بالأسلحة الكيمياوية تثبط من معنوياته.

دخل الضوء من الجزء العلوي من خلال زجاجة الشباك العليا، ضوء أبيض حليبي لامع. شعر بدفئه. هكذا يستطيع أن يشعر بأن صوته يخرج من حنجرته، ومخاوفه تصلها. هكذا يصيخ السمع عل صوت أطفال يصله.

****

حرص الكل على الابتعاد عنه ما عدا امه. برغم ضيقه، عصبيته، ونهره لمن في البيت، لم تحترم الأم رغبته تلك. اعتبرت ذلك ضربا من الجنون، كفرا. أن يكتفي بالتدخين والشرب ليل نهار، غير آبه بالمكان الآمن الذي كانوا يلجأون إليه، والأكل الذي يتناولونه.

****

اجتاحته رغبة عارمة بالركض في شوارع بغداد في الليلة الأولى للقصف. ارتدى ملابسه وهم بالخروج، وقف أخوه الأصغر أمامه عندما ركل الباب محاولا

كسره. عاد إلى هدوئه معتذرا، وطلب من أخيه بأن يتركه. اعتكف ثانية في غرفة الضيوف.

لم يكن قد استوعب الموقف بعد. أن يبقى بانتظار انتهاء فترة الهجوم الجوي أمر لا يمكنه احتماله. لا يعلم كم ستطول، قبل أن يتمكن من السفر إلى البصرة.

... بل ربما لن أتمكن من العودة بعدها.

إعلان بدء الهجوم الجوي الذي بدأ بقصف الجسور يعني استحالة الوصول إليهم.

يتنفس دخان سيجارته.

... أكان ضروريا قرارك أيها التعس، أن تترك البيت هكذا لتعلن عن اعتراضك، أي اعتراض، ما الذي تنكره وتعتبره إجحافا بحقك، تخليك وقت الشدة لتحفظ ماذا... كرامتك؟

... يالك من رجل، ما الذي نويت قوله لها بسفرك هذا.. ما الذي تقوله لنفسك الآن؟

... هل هي الحرب التي أرعبتك، تسليمها إياك مسؤولية عائلة؟

... ها أنت أمامها الآن، لم لم تقل ذلك بدل هروبك هذا؟

****

في الساعة الثانية ليلا، قرأت أمه سورة بصوت عال، بينما انكفأت أخته على القرآن، تقرأ بلا صوت.

استعاد البيت جوه القديم جدا للحظات. لم يستطع أحدهم ملازمة مكانه حتى عادوا واجتمعوا ثانية في غرفة المعيشة. تركوا ملجأهم في الغرفة الخلفية. علموا مسبقا بأن أيا كان سقفهم، فلن يقيهم شر هذا النوع من القنابل.

أصوات الطائرات وانفجار الصواريخ وتشظيها، هز البيت وتحركت الأرض تحته. عندما نظر إلى كل واحد منهم، تملكه غضب شديد، تقبلهم لما يحصل لهم كان قاسيا عليه، أهاله صمتهم، قادته قدماه فجأة نحو السلم، تسلقه بخطوات واسعة. فتح الباب الحديدي الصدئ واندفع خارجا.

وجد نفسه يتوسط سطح الدار المكشوف. يتأمل كرنفال الحلفاء.

... لم تحدث في التاريخ نذالة أحقر من هذه، ماذا سيكتبون في هذا وكيف سيزينونه؟

يدور حول نفسه ليتتبع مساقط الصواريخ بصدر مفتوح للريح الشتائية الباردة.

أمسك بحافة السياج لئلا يسقط، شعر بدوار مفاجئ. لقد شرب الكثير منذ الصباح.

اتكأ على الجدار، برودة الإسمنت تخترق ظهره، اندفعت مرارة معدته إلى بلعومه، ثنى ركبتيه وتسرسح بطيئا ليجلس على الأرض فاتحا ساقيه.

ناشدته أمه وهي في قعر الدار بأن يتعقل وينزل، لكنه لم يستطع إلا أن يلبي نداء روحه.

لم تكن الحياة لتعني شيئا بالنسبة إليه، لم يكن يكترث بمصطلح الصحة وشروطه، ولم يزر يوما طبيبا ويأخذ بنصيحة ما وقائية، تاركا الأمر دوما لجسده، مقدار ما يتحمله، والوقت الذي يحدده، ليقف فيه أنذاك عاجزا أو ميتا.

معنى الحياة الفعلي فاجأه الآن، وهو يتمنى خلاصه منها بشدة، تأكد من أنه واع لرغبة قوية بداخله لأن يموت. صخب الموت أمامه، سرب آخر من أشباحه يفرغ حمولته أمام عينيه، تتبعه المضادات فتشتعل السماء مرة أخرى.

لكن أيختار موتا بهذا الحجم من البلاهة؟

وجد نفسه مرجلا يهتز لهدره. ضم ساقيه وسحبها إلى صدره ليضع رأسه على ركبتيه.

... أفي هذه اللحظات نشعر بدواخلنا، مالنا، ما ملكنا. غريب عندما تعي بأن داخلك حي.

نهض ليقف منتصف السطح المكشوف، تحت السماء التي صارت أكثر قسوة من هذه الأرض. وقف ليتحمل مسؤولية بقائها وحيدة مع الطفلين في هذه الليلة.

... تحدي هستيري لامع.

رفع يديه عاليا، يشير إليهم. ألوان تتلامس دون أن تمتزج، تتداخل لتلخص عمل عقولهم وبربريتها.

توفزت أعصابه، أخوه ينادي.

صرخ هو بالسماء التي تلونت لتكون معهم، وهو يعي تماما جنونه.

...كيف يمكن للحياة ألا تدعنا نعدل من مواقفنا؟

... لكنك لم تكن معني بمراجعة موقف ما، تصحيح فعل ما.

ويضرب آخر على رأسه ويقول له، قصيرة جدا هذه الحياة، وفيها توجب أن تكون حذرا. ما تقترفه من أخطاء سيقيد ضدك، أخطاؤك تبان، هنا في هذا المربع الصغير يكمن خطؤك، لا يمكنك التراجع عنه أو شطبه.

عاد وأكد له بأن ما يعذبه هو حال الأطفال وهي لوحدتهما. لكنه لم يكن مرتاحا والآخر ليس مقتنعا. فداحة ما سيكون عليه الحال إن حدث مكروه لهم، حسابه لنفسه هو ما يشغله.

لم ير أمه وهي تمسك به من ذراعه وتشده باتجاه باب السطح. تنبه إلى نفسها المتسارع واستنادها عليه. سرب طيارات يقترب. تماسك، جاءته القوة ليحملها ويدخل بها الدار.

****

حشر الوسادتين تحت ظهرها لتسترخي، داهمها ألم حاد في صدرها. جلس بجانبها يفرك أطرافها وصدرها ليستقر نبضها. دثرها ببطانية إضافية تبث الدفء فيها. ظل مبحلقا فيها. لم يخلف الهلع إلا بقايا جسم ضئيل ناحل. تلك المخلوقة المسكينة تمسك بأعمدة هذا البيت، وتشدهم له. لم يغفر لنفسه إساءته لها، برغم الغضب الذي مازال يحاصره.

فتحت عينيها الدامعتين لتطمئنهم، بينما أمسكت بيده تحدثه بصوت ضعيف مخنوق معاتب:

- كنتَ دائما العاقل الهادئ، تعوذ من الشيطان وادع ربك ليحفظهما لك يا ابني، ادع بأن يفتح لك طريقا لتصلهم، ربك لا يترك عبده.

هدأ الجو بالخارج. ترك أمه تغط في نومها بعد أن طمأنه انتظام أنفاسها. تحرك بهدوء فرضه سكون الفجر في هذا البيت.

جال بين الغرف.

... الغرف احتفظت بشكلها المرسوم بالذاكرة.

كالطفولة وبرغم العتمة، تسربت خيوط ضوء مشوبة بالحمرة من بعض شقوق السواتر التي صفت. تعرف إلى زوايا الغرف... تذكر تلك الخيوط الضوئية التي تتراقص فيها ذرات غبار، وكرات صغيرة وأشكال مخلوقات عجيبة، كانت تنقله إلى خيالات ممتعة في طفولته. بحث بعينيه عن تلك الجوهرة الشفافة المثلثة الشكل، والمصنوعة من البلاستيك فلم يجدها. كانت تتدلى من خيط مثبت بالحافة الخشبية للشباك. تدور دورانها الأبدي ببطء متوسطة هذا الشباك. تنتشر بقع لامعة بفعلها عندما يخلد الجميع لأخذ قيلولتهم اليومية. ينفخ نفخة صغيرة لتهتز، فتتوزع دوائر ضوئية كاملة، أو بيضوية من الألوان في أرجاء الغرفة. أطياف ساحرة قد يتوضح تدرج ألوانها أو يمتزج. وقد يمسك بنهاية متراقصة حارة لبقعة حمراء أو صفراء، وقد تنطبع نهاية باردة باللون البنفسجي المغموس بالأزرق على يده الصغيرة فيشعر بدغدغة لذيذة.

كم كان ينقضي من الوقت وهو في خلوته، يحصي عدد الدوائر الملونة على الجدران والستارة والسجادة، يصنفها، يعين أجملها، ينتقل من السرير إلى الأرض، إلى قاعدة الشباك، ويهبط مرة أخرى إلى الأرض. عالم مسحور بفعل اللون، خاص به، خيالي، لا وجود لأحد غيره به.

طعم النفتالين مازج لعابه. رائحة الغرفة تنقله إلى ذكرى صرخة أمه التي أعلنت له وهو طفل فاجعة فقداهم لأبيه. كان حينها في إحدى خلواته مع تلك الجوهرة. اختفى خلف الباب. ظن الصرخة جزءا من فعل عالمه الساحر.، بل هي التي أخفت جسد أبيه من ذلك السرير، الذي كان ممددا فيه طويلا.

الساعة ذات الصندوق الخشبي، مازالت تصدر تلك التكات التي تعكس نظام البيت ورتابته.

... المكان ذاته، أما نحن...

ما بهت هو اللون. كانت مخيلته في الطفولة تمتص الألوان. الألوان كانت مفتاح الذاكرة لديه ومازالت.

دخل غرفة أخته. كانوا يتقاسمونها جميعا. رتبتها بما يلائم طبيعتها. صارت الشراشف الصغيرة التي تغطي كل قطع أثاثها تشبهها، مكواة منشاة.

... نظامية تفوق عسكريا بصرامتها وقوانينها.

هذا ما جعل تفكير بشرى بأمر سفرهم ليجتمعوا هنا غير ممكن. ما عانته بشرى، في إقامتها الأخيرة هنا جراء تعامل اخته معها، جعلها تفضل البقاء هناك. لم تتمكن من نسيان الخلاف الذي حصل، بالرغم من مرور أعوام على ذلك. السبب كان دخول الطفل، الذي لم يكمل الثالثة، بحذائه المحمل بالطين من الحديقة، واتلافه لسجادة غرفة المعيشة.

... اتهمتني بالانحياز إلى زوجتي، بإفساد أطفالي بهذه الطريقة من التربية، بالغرب المأخوذ به، بإنكارنا لوجودها واحتقارنا لها، وبتسخيرها لخدمة الذكور ونسائهم في هذا البيت.

كان شبه نائم في مقعده عندما طلت عليه بالأمس. لم تفه بكلمة واختفت.

... نظراتها بالحق تقول إن هذه المرأة لا تثق بي، ربما بعض الظن بتناقضي، تصورها بأني عدت غريبا، أو برعبها منا نحن الأخوة، أو الرجال الذين لم يتسن لها التقرب منهم واكتشاف حقيقتهم.

وهو يقف على أعتاب باب الغرفة في هذا البيت، يشعر بأنه يخلف صخب هذا العالم وراءه. لكنه أبعد ما يكون عن هذا الاحتياج الآن. سقط رماد من سيجارته على عتبة الغرفة. نظر مليا إليه. ألقى بنصف السيجارة المشتعلة فوقه ودعسها بقدمه بحركة نصف دائرية، كررها ثم سحب العقب. امتد على الأرض خط مائل من رماد أسود، وعقب مدعوس ببقايا تبغ لم يحترق تماما.

****

قال لصديقته التشيلية التي كانت مصرة على فهمه:

– لم أع هدوء منزلنا، وانعزاله عن مسار المجتمع وسكونه حتى سفري.

صداقة تخللتها فترات حب، جنس، انفصال، لكنها دامت طويلا دون تحديد شكل ارتباط.

– لم يكن هذا يعني بعدي عما يدور في الداخل اجتماعيا أو سياسيا. كان تورطا كاملا جرى بصمت.

جاهر به أول سفره، وكان أن تحلق حوله بعض الأصدقاء الذين تشاركوا معه في انفتاح قرائحهم لمناقشة ما يعيشونه، وما يطرأ على العراق من تحولات. لكن ومع السنوات، انكمش، عاد ليحتفظ به لنفسه. وقبل أن يبتعدوا، قال:

– تبقى لكل إنسان قناعاته، يحتفظ بها لنفسه. مخالفة الرأي لابد أن تثير اعتراض فئة أو شخص ما. الحلبات السياسية لم تنجح مشاريعنا، لا في الخارج ولا في الداخل.

اهتمامه بمجاله وفر له عروضا كثيرة للبقاء هناك، ما أثار استغراب الكثير من أصدقائه.

– تعود الآن؟ في وقت قد لا تجد فيه ما تعمله هناك، وتحت ظل ظروف ذلك النظام والحرب.

... النداء الذي كان بأعماقي أتعبني. لماذا يشكون بتأكيدي على غربتي؟ لي وطن أزهو به، أعمل له، أهيئ له طلابا من بعدي، أعود فيه لأهلي.

ردّ لينهي سلسلة النقاشات والحجج، وليؤكد لنفسه بأن خطواته كانت دوما سليمة راجحة:

– العزلة مغرية، والإحساس بالغربة ملهم نعم، لكنني سأجد متعة أكبر في البحث عن سبيل لإيجاد مكان لي.

ودع جماعته قبل أسبوع من سفره، وسلمته صديقته ألبوم صور، وانفعلا بشدة عند الوداع في المطار.

****

ترك للظروف تحديد موقع له عند عودته، وصادف أن يكون المكان بانتظاره، كما توهمه مرة، وأن يتحسسه قريبا إلى نفسه، سواء الوظيفي حيث يجب أن يكون، أم الاجتماعي.

... لكن أن يحكم الناس عليك بالكلاسيكية حين يتعرفون عليك فأنت ولاشك ترى ذلك في وجوههم. تتساءل حينها، وما هو المفهوم المعاكس الذين يطالبون به... العصرية، التجدد، الحداثة، أنا لم أعثر على خيط يدلني عليه.

... أو توصف بأنك مسلكي... المسلكية...آخ، كلمة لم تطرق مسامعي منذ زمن أبي رحمه الله، كان مسلكيا. كلمة هادئة بسيطة، تحقِّر إن شاء أحدهم من شأن الفرد، أذهلني استخدامها حتى هذه اللحظة، رغم تغير القاموس اللغوي كثيرا بعودتي .

... الأدهى من ذلك أن تتهم بالوصولية، وما الذي وصلت إليه، أو أهدف إلى الوصول إليه؟

حوَّل تلك الأحاديث، بتصميم شديد منه، لتكون أشبه بالمزة لسهرات العزاب من أمثاله. لديه القدرة على عزل نفسه إن شاء. وكأن غشاء يلف بوعي روحه، يبطنها ويعزلها، يزداد سمكا كلما وصله إيعاز بالخطر. الاختلاف والتعارض يصبح ممكنا. والحياة بتلك المستويات المتباينة من الراحة والسعادة والرضا، تفرض اتباع ميكانيكية ما.

... أكلُّ ما نتكبده، ما هو إلا وقاية للروح من السحق والتخريب؟

وعندما يقع العزاب على أشكالهم تكون التهم المتبادلة بينهم امتداد ألفة.

- أنت انصرفتَ بصمتك لتدلل على رضاك ومناصرتك.

يشعر بأنه غير مضطر للدفاع، وبأنهم لن يتمكنوا منه، ويحرص على أن تحتفظ معاني وجهه التصميم ذاته.

ولم يكن له صوت مسموع عندما قال:

- أهذا ما يشغلكم، مهمة توزيع شهادات تقييم لهذا وذاك، أما الاحتمالات الأخرى فتكاد تكون مستبعدة جدا، رفض الصيغ المطروحة أمامي للتعبير عني، أم إن المعارضة تعلن هنا عن طريق الانتماء إلى الطرف الآخر فقط.

... ويبقى أمر هو آخر ما أفكر في المجاهرة به، فمنذ أن عدت وأنا أحافظ على إبقاء ذينك المستويين من تفكيري بحالة توازن، قدر المستطاع، الذي يقال والذي لا يقال، لكن الذي لا أود قوله هنا حجة تسكن أعماقي ويعز علي أيضا قولها... كيف للإنسان أن يُقيِّم من دون أن تكتمل دورة حياته؟ ولعلي قلتها في إحدى نوبات سكري.

****

الحديث الذي بدا للغالبية مألوفا أثار اشمئزازه، النقاش الذي حرك دواخل الناس ليرى أحدهم، بأن الكويت هي حق فرطوا به وكسب لم يفلحوا بتحقيقه من قبل. أو أن يقال بأن هذه الخطوة بحد ذاتها عين التحدي للغرب. البعض كان مهووسا في الاستفادة من الموقف، وبقدر طموحه، الذي قد يكون أقصاه شراء مكيف، مكنسة كهربائية، أو أن يرى الآخر فرصته حانت ليضرب ضربته بالاتجار والمقامرة بكل ما لديه.

التفرج وحده هو الأمر الوحيد الذي بإمكان المرء فعله دون مخاطرة، وهو أمر يمكن للمرء من خلاله إعلان رأيه ، في زمن معقد من المستحيل ألا أن يزج المرء في معمعته.

في جلسة سكر خالصة انضم إليها أصدقاء حميميون صعّد العرق، وبضعة أنصاف ليمونات، دون أية مرة سواها من غلواء مشاعرهم، مخاوفهم، وغموض الصورة وأبعادها.

حين أجبره الأصدقاء على الإدلاء برأيه حول الحرب والاحتلال انقسموا، وقد اختفت سرية التصريحات، إلى مؤيد ومعارض، ثوري ومحافظ. الأغلبية راهنوا على انتهاء النظام. أقروا على أن انتهاءه يعني قطعيا بداية جديدة للعراق.

... ليس لادعائي التبصر والذكاء، إنما أي تحليل سيكون ناقصا أو مستبعدا مادام الغموض يلف تلك الخطوة، هناك حلقة مفقودة جعلت من الموقف ما يشبه الطلسم.

وأعلن الكثيرون عن استيائهم لتشكيكه بالتحليلات، ونظرته التشاؤمية للأمور. بقي يستمع للجدل العنيف الذي تقاتل الكل من أجل أن يُسمع صوته فيه. توزع الجماعة إلى حلقات لتناقش رأيا، تراه بلحظة يكون وطنيا بحتا، ولتحل الحلقات الصغيرة فجأة ليتكلم الجميع كل من مكانه وبوقت واحد، عن شراء سيارة أو مولدة كهربائية، وأكياس رز ذي نوعية ممتازة.

في حين نهض أحدهم متمايلا في مكانه وقد تقدمته بطنه، ليرفع نخب الغرب الذي أرسل إليهم ديمقراطيا فذا مثل خالد. وعندما شربوا النخب كانت عيناه

جاحظتين وهو يصوبهما نحوه، وجزءا من لحم الليمونة قد نبت في شواربه و لسانه الثقيل يؤكد:

- لقد اكتشفت بأن تبني الديمقراطية التي ننشد، والتي اعتقدت بأنها صعبة التحقق، في مجتمع لم يفطم عليها سهلة جدا، لا تتطلب منا إلا التخفي، التمييع بدعوى حق الاختلاف، التعدد، والدم البارد إزاء ما يدور .

انخرط البعض في الضحك، بينما لزم البعض الآخر الصمت.

****

شعر بنعاس فغفى على سرير أخته التي تركت الغرفة، ونامت إلى جانب امها. أيقظته رجفة قوية اعتورت جسده فنهض ليتطلع حوله... حلم جميل لا يدري لم انتهى برعدة عنيفة... كان صوت الأطفال منتشرا بالجو حوله، جو ضاو مشرق، وبشرى بين قسوتها، وانفعالاتها الطفولية، متربعة في حضنه وصدرها يلامس صدره، تقرص خدوده كعادتها، عندما تريد انتزاع ضحكة منه.

نفض رأسه، تلفت حوله بهلع.

... شئ مرعب أن تفز من نوم عميق، وسط ظلمة حالكة، تجهل إن كان الوقت ليلا أم نهارا.

إحساس كئيب يغيبه عن المكان، ويعزله عن العالم. شعر بأن الكثير قد فاته، فقام مسرعا، وتوجه إلى الحمام. ضحك عندما فتح يديه للحنفية منتظرا الماء، قال لنفسه بصوت عال

... يجب التأقلم مع ما يستجد والتعود عليه.

لم يرغب بتفريش أسنانه. خرج من الحمام بحال أفضل وبنشاط محسوس، ليتابع ما استجد من خلال محطات الراديو الذي تركه في غرفة الضيوف.

****

... أي هدر لطاقة الإنسان؟ أي رعب يعيشه طفل كل ثانية؟ أي عبثية تتملك الطالب، الأستاذ، الجندي هذه اللحظة، أي استهلاك سيئ للإنسان؟

فكرة واحدة مكنته من الانتظار تصارع معها وقبلها. هل كانت سهلة عند طرحها فصعبت بعد أجزاء من الثانية؟ أم كانت صعبة جدا سهلت اثرها مباشرة؟ ... لم يشأ التفكير.

... أيحسب هؤلاء الكبار خطواتهم؟!

لم يعلن عن معارضة أو انتماء، كانت السلطة تتسيد بداخله، ورمزه المحسوس داخلي، له أذرع إخطبوط وأسنان قرش. تسلل إلى السطح ليلا مرة أخرى، ليختلي بنفسه، وليفكر بها مليا. ليفكر في نفسه، زوجته، وأطفاله. يسيل

لعاب السماء وهي تشتعل بالحق ادعاء. رأى السطح المكان الأنسب ليخاطب الجميع. بل ليعجل العالم الذي يرسل ما يريد قوله عبر هذه السماء. وليعجله ويدعمه باتخاذ قراره.

جامد في مكانه، مستند بظهره إلى السياج البارد.أخذ يدخن وهو ينظر إلى الألوان النهارية التي تتوهج عن بعد أمامه. جعل أصوات القصف، خلفية لحساباته.. يفكر في مقدار تلك النفايات النووية التي يلقي بها تحضر العالم. تشبع ممعنا التفكير فيها. نفث دخان سيكارته ببطء. هبت ريح خفيفة جافة فتوهج جمر سيجارته.

... الألوان شحذ الذاكرة، زوايا الرؤية دقيقة ومحسوبة فيزياويا، لكن ما الذي يحكم مسرح هذا العالم؟ أين حدوده؟ أي الزوايا تظهر ماذا؟

مسرح العالم يقربه من حسم الدور الذي سيلعبه.

... مسرح مفتوح لا تحكمه نظرية ولا قانون، يحركنا مرة مهرجين، ومرة متفرجين، أدوات يملكها الحكام.

... يفتح الستار لتشهد بعينيك ظلمه.

قرصه البرد، سحق عقب سيجارته بحرقة بالجدار، واتخذ القرار.

****

لأخيه صديق منذ أيام الدراسة بإمكانه مساعدتهم حال انتهاء القصف.

... لكن كيف؟

انهمكوا يخططون لذلك، بينما فتحت أمه سجادة الصلاة، على الأرض بقربهم.

بشرى

حشرت نفسها والطفلين في الغرفة آخر الممر الصغير. كانا هي وخالد قد غطا الشبابيك الثلاثة الصغيرة في الغرف بطبقات من البلاستك. ثبتا بطانية على شباك المطبخ المطل على الحديقة.

لم تشأ لبخ الشبابيك بالطين. القدر لا مفر منه. والبيت الذي لم يكن سوى قاعدة كونكريت، وخشب مضغوط، لا تحتمل أعمدته الحديدية كلمة حرب مرة أخرى.

توقد المصباح كل مساء لساعتين، يغرقون بعدها في ظلام دامس. نفذ تقريبا ما لديها من نفط وغاز، بعد أن قصفت محطة توليد الكهرباء في اليوم الأول للقصف.

تتحرك في النهار وهي تنظر إلى الباب بين الفترة والأخرى.

صوت المفتاح يدور في القفل، ثم يطق طقتين لينفتح الباب بعدها فتراه أمامها. اليقين بعودته كل مرة هو الذي يقودها لأن تتخيل الباب وهو ينفتح فجأة، أو يتناهى إلى سماعها صوت القفل بعد دخوله.

تتسمر عيناها في خشب الباب.

... أيكون قد غادر العراق، حشي جيبه بأوراق كثيرة. ربما، يمر بأهله ليستدين مبلغا، و ملابس من أخيه.

...لا، لن يثقل حمله بملابس، يحتمل قميصه لأسبوع دون الإحساس بضرورة تغييره.

... حمل أي حقيبة أو كيس يضايقه كثيرا.

... أنا من أنبهه في كل مرة ليأخذ حماما. أنا من تشترط عليه كي قميصه وبنطاله، تلميع حذائه قبل أن يخرج.

...قد يكون السفر هو ما خطر بباله لحظة مغادرته البيت.

... لا أكاد أعرفه... لكل إنسان مفاجآته، وما أدراني.

كادت أن تصرخ بأفكارها التي استمرت في عنادها.

... لن يتصل فقد أغلقت الحدود ربما، وتقطعت أسلاك الهاتف، وربما لا ينوي العودة والاتصال بنا.

... أيكون قد فر مني، ومن الأطفال، وكل ما يحيط به.

أتعبها حمل رأسها.

****

تتأمل النبتات الصغيرة التي ذبلت في المطبخ، نظرت إلى الدلو البلاستك الموضوع على حوض الغسيل. الماء المتبقي بالكاد يكفي. قصفوا محطات الكهرباء، ومن ثم محطات تكرير الماء.

مدت بقدح صغير لتسرق جرعة بسيطة للنبتات، لكنها عادت وسكبته ثانية في الدلو. سلقت العدس المتبقي في الكيس، أضافت له ملعقة من معجون الطماطة وحركته. المجمدة تنفث رائحة كريهة بعد انقطاع التيار الكهربائي. لم تحو سوى أكوام من الخبز والصمون.

شرعت بإطعام الولدين دون أن تنبس بكلمة. لم تستطع سماع هذرهما والجواب على أسئلتهما، برغم عذابها الليلي إذ تتذكر ذلك.

الطفلان لا يتركانها للحظة، يحملان لعبهما وألوانهما والأوراق ويتبعانها.

... الموت ظلي الذي لا يمكنني خنقه. يزداد قتامة في أوج إحساسي بحياتي، بقدر تحرك دواخلي، انفصالي عن خالد والطفلين، قرب خالد مني، حاجة طفلي إلي.

الوقت يمر بطيئا. نفدت ملابس الأطفال النظيفة، الداخلية منها. نظرت إلى ثوبها، لم تستبدله هي الأخرى منذ أسبوع، لباسها الداخلي أيضا. كان يجب أن تغسل بضع قطع ضرورية لهما لكنها لا تقوى على ذلك.

... كل شئ دبق ووسخ.

أجلت ذلك وتركتهما في ملابسهما. تداركت بسخرية من نفسها بأنها لا تملك ماء.

فتحت بابها الخارجي. كان أبو سحر يتمشى بالقرب من داره مع سحر. طال شعره الأبيض. تسارعت خطواته اتجاهها. قال لها بأنه لولا هستيريا أم سحر لذهب إلى الصيد اليوم. صبره ينفد بدون أكل السمك. اقترب أكثر وهمس باتجاه أذنها:

– لم لا، لنذهب إلى نهر الخورة أنا وأنت، ونترك الأطفال عندها. قولي لي أهناك أجمل من موت كهذا؟

شعرت بحزن كبير يغطيها. لحيته البيضاء أضافت له عمرا. ودت حضنه. ألح كثيرا من أجل انتقالها إلى بيتهم. رفضت مغادرة البيت.

****

مجموعة ألبومات الصور تملأ الجزء العلوي من المكتبة، لمحتها صباحا وهي تمر بالصالون. شبه ضوء، خيط رفيع قد تسلل من أعلى النافذة وأضاءها. سطعت في مخيلتها سلسلة من صور. مررت أصابعها على الكتب التي صفت في رفوف المكتبة. كتبها قليلة إلى جانب المجموعة التي صفها خالد. كتبه في الغالب باللغة الإنكليزية، ورق صقيل لامع وعناوين يعرف كل من يتأملها بأنها علمية.

لم تمسك بكتاب لتقرأه منذ أيام الإعدادية، انشغلت بالدراسة والزواج والأطفال. خالد لم يجلس يوما ليقرأ كتابا أيضا، نادرا ما رأته يستل كتابا.

انشغلت عن قراءة الكتب قليلا قليلا، واكتفت بتصفح مجلات آفاق وألف باء والمرأة، انتقاء قصة هنا، وقصيدة هناك. لكن هذ التقليد ما لبث أن اختفى هو الآخر. عندما تمر بمكتبة تشم رائحة الكتب المدوخة، تتذكر القراءة وتشتاق إليها. تقرر أن تشتري كتابا أو كتابين غدا، لكن أمورا أخرى كثيرة كانت تسحق هذا الشعور. انشغالاتها تسحبها بعيدا.

خالد اكتفى بوظيفته واختصر اليوم بلقاءاته مع أصدقائه، أو البقاء في البيت دون عمل يذكر.

... ما الذي فعلناه كل هذه السنين؟

شعرت بأنها لاتجرؤ على الخطو خارج عتبة هذا الباب. مشوارها الطويل الذي تقطعه إلى الزبير يوميا ماعاد. شعرت اثره بفراغ. ربما سُدّت المنافذ إلى هناك. مازالت الناس تتوافد بأحمالها عائدة من الكويت أو عابر ة. صوت السيارات يوحي بذلك في النهار. فكرت بأن تصلي، تبتهل إلى ربها كي ينجيها مع الأطفال من مخاوفها، لكنها وجدت الفكرة سخيفة، أوراقها مكشوفة ولن يسمعها أحد، كما إنها لم تُصل يوما، لم يعلمها أحد الصلاة أبدا. لم تر غير

امها راكعا أو ساجدا. عندما تتذكرها تشعر بأنها كانت يوما ما طفلة. ذكراها يرجع بها إلى طفولة غامضة مشوشة، جزء كبير منها يملأه سخطها.

عادت بالصحون إلى المطبخ، وضعتهم بجانب الحوض، صادفها مرأى النبتات التي توشك على الذبول مرة ثانية. توقفت عندها. أخذت الأصيص بعد الآخر لتلقي ترابه ونبتته بعصبية بكيس القمامة. انتبهت إلى المجمدة. لابد من إفراغ محتوياتها التي تعفنت. رفعت الكيس بعد الآخر باشمئزاز وألقته بكيس القمامة. أصابها دوار خفيف، ثم هاجت معدتها ولم تعرف طريقها إلى كيس القمامة.

جعلت تتقيأ وحدتها المفزعة بحوض الغسيل. بدأت نفسها تحوك لها الدسائس مرة أخرى، وهاهي تشم رائحة خيانتها المنفرة.

****

طرق الباب بقوة ظهرا. فزت من نومها. نهضت وهي تشعر بأن معدتها بحال أفضل. الطريق إلى الباب كان كافيا لكي تفكر باحتمالات عدة. كانت أم سحر، يقف خلفها بخطوات أبو سحر وسحر. حملا طعاما ودلو ماء. قالا انهما طبخا وجبة كبيرة من اللحم المخزون في المجمدة. الاثنان ضجران ولا يدريان ما الذي يجب فعله. جلسوا جميعا في الصالة.

بدت لها أم سحر غريبة بوجهها المغسول من المكياج، وشعرها المعقوف إلى الوراء. حملت معها صرة وضعت أثمن ما تملكه فيها. لم يبد أبو سحر مباليا. انتقد زوجته لعدم حملها لصورة زواجهما أيضا. بشرى تحبه لهذه الخصلة. كان ينقل عالمه معه أنى ذهب، هازئا، غير مكترث بما يدور. تعليقاته مضحكة ، ساخرة ، ومباشرة ينتظرها من حوله.

لعب كثيرا مع الأطفال. تحدثوا عن خالد وأمور أخرى كثيرة. كررت رفضها مغادرة البيت.

****

الخوف يترصدها عند حلول المساء. أتت بألبومات الصور وراحت تقلبها تحت الفانوس النفطي. ألبومه الذي جمعته له صديقته التشيلية كان سميكا جدا، قلبته معه لليال لتعرف كل صغيرة عنه هناك. فجأة حطت صورة وفاء أمامها... كانتا تتمتعان كثيرا في التعليق على تلك الصور، وبحضور زوجيهما أحيانا. لم تتحرج بأن دعت فلاح ذات يوم لأن يتفرج على صور اعتبرتها وفاء خلاعية، ولم تر أيضا ضرورة لاحتفاظهما بها.

ضحكت في سرها لاتهامها العلني المستمر لوفاء بالتخلف، واحمرار وجنتي وفاء جراء ذلك. كان وجهها يصطبغ خجلا بحمرة فاضحة تزيدها حراجة.

****

عندما ذهبن مع هيام إلى قارئة الفنجان تلك، سرا وبدافع الفضول، وبعد إلحاح كبير منها ومن هيام المسكينة، التي كادت أن تبكي توسلا، وافقت وفاء بصعوبة لكنها لم تستطع مسك نفسها عن الضحك. اضطرت إلى لكزها عدة مرات مخافة أن يطردن. يكبر استغرابها. وفاء ساحرة غير مبالية بكل ما يمر بها.

... برغم اختلافنا نحن الثلاث، كان هناك رابط ما يكسب لحظات اللقاء غنى مطلقا وانتماء يشعرني بالقوة والثقة. يتوج حين يجتمع الأزواج ليكونوا مثار حديثنا وتعليقاتنا.

...التقاطع واضح في مساراتنا لكنها ربما المزجة التي خلقت هذا التناغم.

****

بدا خالد في جميع الصور هادئا. هناك حيز خاص غامض فيه، يميزه، يخفق له قلبها رهبة. لِمَ تحترم ذلك الحيز ولا تجرؤ على العبث فيه؟ النقاش يحتد حتى تراه يقطع حديثه فجأة لينسحب. لا يعني صمته موافقته. يزيدها ذلك احتداما، تصرخ، يقف أمامها بجثته الضخمة وقميصه المتغضن، الذي لا يجد ضرورة لخلعه إلا عند النوم، حائرا مترددا في وجهته قبل أن يذهب إلى غرفته.

... يضيق بأي شكل من أشكال النقاش.

يتركها تقرر بعدها ما تراه مناسبا.

... لم تكن فكرة إنجاب طفل هينة بالنسبة إليه.

ما فتئت تستفزه في آرائها واتهاماتها له، ولما حوله. يثيرها ذلك. اللعبة التي اكتشفتها بخبرتها. تتعمد فرض رأي لها فقط من أجل أن تشعر بحرارة ما في أعماقها، تفاعلها، وهي تراه منفعلا. تكاد تمسك عن إطلاق ضحكة فرح لانتصارها. تراه حقيقيا أمامها. تبتسم، يتذمر، تهابه، يزايله هدوؤه محذرا إياها من مغبة تكرار ذلك.

تدع انتصارات النهار وخيباته جانبا عند مجيء الليل. تدور بالبيت، تتمسح بجسدها على جدرانه. حينما تتحقق من وجوده بكفيها تمسك بالعالم كله.

...والليل سكر، صلح وهدنة.

يكون فيه خالد قد خلق لفعل الحب. يمكن لعينيه أن تغوص في أعماقها، أن تعطيها الأمان لتتكور في حضنه هادئة أحيانا. أو أن تمتثل بلا حد لرغبتيهما.

مررت يدها على وجهه الطيب، لامست شعره الأشيب. سالفيه، كفيه الكبيرتين. كان يقنع بالقليل، لم يكن مترفعا، هذا ما يصفه الجميع به بادئ ذي بدء. وكأن حاجتها إليه اجتمعت في راحة يديها الاثنتين فأسرعت بضمهما.

له قدرة عجيبة لمستها فيه منذ البدء. يملك مفاتيحها وهي تقاومه. كلهن كن غبيات. خالد يوصف بين أوساط المدرسين والطلاب والطالبات، بأنه متكبر، صعلوك، منسلخ عن جلده، أضاع أصله ودينه هناك في الغربة.

خالد منفصل في عالمه عن أهله، أصدقائه وطلبته. من الممكن أن يشرع لها قانونا إن توجب الأمر ويتبناه. يدعم هذا السد الذي أقامته خوفا على روحها. الأمور تسير معه من غير لف أو دوران، رغم مراوغتها أحيانا. وقالت لها زميلة أخرى بأن العوائل المحترمة لا تزوج بناتها لأمثاله. هو يبطل الحاجة للدفاع. سألها ذات ليلة بهدوء وهما يشاهدان فلما أجنبيا أمام التلفزيون عن حياتها قبله:

- بطولاتك، من كان فارس أحلامك مثلا، من كان الأول.

ابتسمت ولم تنظر باتجاهه، بقيت ساكنة مبهورة. شدها إليه، ضحك فخانتها نفسها هذه المرة.

انهارت كل السدود وهي تشتم نشوته:

- هيا، بي فضول لن تستطيعي إشباعه، هيا بالتفصيل، تارة أغمض عيني لأتخيلك، وتارة أثبتها في عينيك لأقرأك.

... كيف سافر؟

صورة له وسالم قبل زواج كل منهما، تذكرت القميص الأحمر الذي أخفته عنه. ضحكت لاختلافها معه في اختياره لألوان قمصانه، فهو وبرغم هيأته الرزينة تلك يرتدي دوما ما يصرخ من الألوان. لم يعر اهتماما لانتقادات البعض أو تعليقات الأصدقاء. لم يتردد بلبس البرتقالي الصارخ، البنفسجي. كان يقول لها بأن الألوان تكشف عن خفايا النفس ونوازعها. انتقاء اللون، محرك ومؤشر للدواخل. في سفراته إلى بغداد كان يأتي لها من شارع النهر بما لمع وبرق من ملابس. لم يكن على معرفة بتفاصيل كثيرة، إلى حد يثير ضحكها. ولم تتردد بارتداء كل ما أتى به متباهية.

تعرفت على إمارات الرضا و الضيق في وجهه، في صوره المختلفة. لم يكن رضاؤه صعبا. لم تكن تتفحصه كهذا من قبل، اقتربت منه أكثر، لم تمعن في تحديد شكل عينيه الصغيرتين... أنفه كان أدق من أنفها...الولدان أخذا عنه أنفه تماما، فمه البنفسجي اختفى خلف شاربه... إنها ولاشك تفهمه إلى حد بعيد.

وسالم يقف جامدا في الصورة بجانب خالد، ورغم رزانة الاثنين فقد خلت هيئة سالم من الدلالة. وكأنه مركب متعادل التكوين. اعتقدت بأن هذا الصديق كتاب مفتوح. فكرت فجأة وللحظات بأن تدثر الأطفال وتخرج

مشيا إلى بيت هيام، لكنها ارتعبت عندما تخيلت الطريق الطويل الذي يجب أن تقطعه للوصول إليهم.

****

لم يشأ خالد تدخلهما في مسألة ترشيح هيام زوجة لسالم، لكنها أصرت.
كانت هيام وامها بمثابة الأهل لها عند زواجها، كما كانتا قبلا حين ينضب مصروفها، وحين تداهمها كآبتها الحادة.
بعد تجربة هيام الأخيرة مع أحد طلبة الآداب وصدمتها، خبرت كل خلجات صديقتها. قالت لها:
- دعيك منه، الرجال لا ينضجون قبل الأربعين. أنا أفهم معدن هؤلاء الشباب... شباب اليوم تائهون، يتمنون الارتباط بمن تقودهم.
قدرت حالة اللا استقرار التي تعيشها بحثا عن زوج، وهو أمر لا يمكن للرجال فهمه. هذا ما قالته لخالد الذي اختلف معها في ذلك الأمر.

... بمقدار ما أزجه في التفاصيل اليومية يبتعد.

...كان يخشى اصدار حكم أو تقييم، و... توريط الآخرين بأمر عده على قدر كبير من الحساسية.

وهي تستنكر سلبيته تلك.

****

الخلاف لم ينته معه حول سياق حياته العز وبي، لا مبادرته، ركوده، نسيانه، وكسله، لومها المستمر له، فقدان صوابها لعدم اكتراثه بأمر ما يتسوقه، عندما يدع الباعة من قصابين وبقالين، وميكانيكي السيارات يغشونه. كل ذلك يتكرر بين فترة وأخرى. ضيقه بتحمل المسؤولية، اعتماده الكلي عليها في متابعة الأمور داخل المنزل وخارجه، وتربية الأطفال. كلها كانت أمورا لا يمكن لأحد السكوت عليها، وان استطاعت أن تجبره على الالتزام بعض الشيء وأن تتركه على حاله بعض الشيء. ظنت بأن خلافهما، وغيابه من البيت تلك الليلة لم يكن ليدوم حتى يعود متأخرا كعادته.

... ما الذي تغير؟

****

افتقدت يأس وفاء، وجدته معينا في لحظات كهذه... وفاء هي الوحيدة التي لا تثير فيها روح المنافسة، احتاجت لهدوئها ذاك، صبرها، زهدها، كانت ستشاركها هذا الآن، إنها في أمس الحاجة لذلك. سفر وفاء ترك أثره في تخطيط أيام الخميس والجمعة.

... خالد من أشد المعجبين بها، شأنه شأن الغالبية من الرجال.

لم تكمل رسالتها لحد الآن. ما كانت تبدأ في شئ حتى تتركه، حتى الطعام.

اختلفتْ لفترات عديدة مع وفاء كعائلة بسبب فلاح. لا تستطيع إخفاء نفورها من هذا الرجل رغم علاقتهم به، وكثيرة هي متاعبه، أولها إحساسها بعدم احترامه لها، الذي لم تتمكن من تحديده أو التصريح به. كان إحساسا يتولد بنظرته لها، مصافحته، عدا عن مشاكله التي تسببت في ابتعادهم عن بعض لفترات كجيران. يثيرهم بخله وحبه للكسب على حساب الآخرين. باع لهم سيارة بسعر غشهم فيه، بعد أن بركت السيارة منذ يومها الأول أمام الباب.

لم يشأ خالد ولأجل وفاء وسامي، إفساد العلاقة جراء ذلك. لكنها لم تحتمل رؤية فلاح لفترة طويلة برغم الحلفان والقسم الذي كرره أمامهم. وبقيت تعبر لخالد عن استغرابها الكبير لبقاء وفاء معه.

... ربما كان هذا هو ما أفتقد، استقرارها، لكن بقرارة أعماقي أنبذه، أقرنه بضعفها الذي يمعن فلاح باستغلاله. أنا أخشى أن أشعر بارتهان حياتي بوجود خالد، أهذا ما هو مختلف بيننا.

...أم انه قدري بأن أرى ما حولي مهتزا أبدا... أنظر في صفحة الماء، تهددني الأمواج دوما.

****

لم تتحرك من الغرفة إلا بقصد الإتيان بشيء ما للأكل من المطبخ. تنهر الأطفال كلما تشبثا بها أو تبعاها. الظلمة تحيطها والأمل ينسف بانفجار صاروخ وإنبات شظية.

في الساعة الثالثة ليلا صحت فجأة، كانت مذعورة، شعرت بجفاف حلقها، داهمها قلق شديد بشأن خالد، تخيلته يظن موتهم، أحست بألم كبير لإيلامها له، لقسوتها معه. افتقدته وودت بشدة لو تتنفس وجوده الكثيف في الظلمة.

****

كانت الساعة قد تجاوزت الواحدة ليلا. قال لها ليلتها:

- الماء يصعد قويا في الأنابيب ونوعا ما باردا.

يستحمان معا. وقفت صامتة تحت الدوش، جلس في الحوض أسفلها يشرب الرذاذ المتطاير من عريها. الصمت أكل الدقائق، لا يخرقه إلا خرير الماء وهو ينزل في فتحة الحوض. مرت ساعة على صمتهما، وجنونه. ظهرها إليه، قال:

- سأبقى ساعة أخرى، من أجل أن تصلي إلى نتيجة.

الماء يحتويهما، كان ثملا، وكأسه لم يفرغ. يعيد إشعال سيجارته المرة تلو المرة. تدور تجاهه، ينظر إليها مليا. تنهي خصامها معه وهي تثني ركبتيها لتجلس في حضنه.

قالت له في الفراش وهي تشاركه ثمالته:

- أتدري، انه ارتخاء الثلاثين، هذا المفترق الجميل الذي يغذي نفسي بالغرور.

****

اعتزازها كبير بتحقق حلمها، أن تقف إلى جانب اللوحة في الصف، بينما يتأملنها الفتيات بإعجاب. تسلمت هذا الدور كمن تسلمه منذ سنين. تشعر بذلك وهي تخط بإصبع الطباشير على اللوحة، وهي تنفض ذراته من على ملابسها، وهي تذكرهن بواجب الدرس المقبل. لم تعتبر الطريق إلى الزبير طويلا، بعد أن استلمت أمر التعيين الأول. لم يكن ببالها أي فكرة للانتقال من تلك المدرسة. خمسة عشر كيلو مترا تنقضي رواحا ومجيئا بنداء وتوق للفضاء. لم تر صحراء حقيقية قبلا، لكنها رأت بحرا مائجا في كوابيسها. تجد بهذا الطريق زحفا آمنا باتجاه الصحراء. أحبت المدرسة وطبيعة الناس في تلك المنطقة. تميز كل شئ تماما عن البصرة. جو صحراوي، لهجة غريبة ولباس نسوي خاص، الشوارع الضيقة، المسجد، السوق والبضاعة الأجنبية المتنوعة الآتية من الكويت، بيوت الزبير القديمة الطينية المتراكبة فوق بعضها، أبوابها الخشبية الصغيرة المتآكلة ونقوشها، فتحات بيوت وكأنها تخص أقزام الأساطير. جو من روائح البخور الخاصة منبعث من داخل تلك البيوت يثير

الغموض، رائحة ممزوجة بخيط من الغنى، القدم والاكتفاء الذي تتمناه. تشبع أنفاسها به. تميزهم هذا الذي تشعره يدفعها إلى التقرب منهم. لقد رأت وذاقت طعم الكمأة لأول مرة هنا ربيع هذا العام. دعتها أم طالبة لتناول الغداء معهم. وأهدتها مدّرسة صديقة لها ثوبا هاشميا صعقت لجماله.

****

تدبرت الأمر مع أمومتها، بأن كلفت المعينة التي تقاعدت من عملها بالمدرسة لتعتني بالصغيرين. كانت تلك المرأة قد صارت جزءا من حياة الطفلين، ولم تقلق بشأن ذلك كثيرا. اهتمامها كان مقننا، فأكثر ما يضر الأطفال هي العناية المبالغ بها، ماعداه فهو ادعاء تبالغ الأمهات بإبراز دورهن فيه.

****

الصور إعادة مُرة إلى الماضي، لا تلجأ إليها في أزماتها النفسية هذه.

طبيب الأعصاب الذي كانت تعاوده بسرية تامة، شك في أن يكون السبب عضويا. أكد على ضرورة مقاومتها لتنتصر على أزماتها.

لم تفهم جيدا ما عنى حينها، حاولت وحيدة لكنها فشلت، مظهر الأخوة الذي يشي بالفقر واليتم، البيت الذي بات بلا روح زاد من كآبتها، تبعثر

كل ما فيه بعد وفاة أمها. تراكمت الوصفات والحبوب المهدئة التي تخفيها تحت الوسادة، دون أن تشفي روحها المعتصرة دائما.

إنها إنسانة عدائية، تود إيذاء من حولها بسرها. كانت تعترف بذلك لنفسها، ولا ترى في أن لها يد فيه. مازالت تذكر أسماء اللواتي حقدت عليهن لغنى آبائهم، واللواتي كن متفوقات، واللواتي كن نظيفات، مؤدبات وعاقلات، تحفظ أسماءهن الكاملة، مواقع مقاعدهن في الصف، وما كن يرتدين، شرائطهن، ومقدار مصروفهن، وما يصحبن معهن من فاكهة، وساندويتشات.

عندها تأملت شبابها بالمرآة، جمعت خصلات شعرها الأسود الطويل ورفعته إلى أعلى. رأت في صورتها شبها لإحدى البطلات في السينما، ليست قبيحة... شحوب لسوء التغذية، بثور ستختفي وأسمال ستحرق... إنها لنفسها، وجدت نفسها تستحق حياة غير هذه التي جاءت بها خطأ هنا.

****

ارتكزت على مرفقها وهي مضطجعة بجانب الأطفال.

خالد الذي أحبته عازبا متمردا هانئا بوحدته، وبعد مجيء الطفلين، صار يمضي ساعات طويلة معهم، ويمتنع عن التدخين في تواجدهم. يربكه علو صوتها، ويتبرم من تعنيفها لهما.

تساءل قبل وقت ليس ببعيد، إن كان بوسعهم شراء بيت أكبر مساحة:

- ما رأيكِ بأن نشتري بيتا في الصحراء.

حينها طغى الفرح، شعرت بأنها تقف بتوازن على قدميها. سيكون البيت براحا، اتساعا بلا حدود، ستدق أوتادا في الأمان، ستنتمي إلى قوم وتحمل اسمهم.

****

تكاد الآن أن تشير إلى اليوم والشهر من هذه السنة التي أدركت فيها معنى الحياة فجأة. دارت إليه تتخيل أخذ شفتيه لشفتيها، صدره، أنفاس سكره، طعم فمه، ورائحة الدخان في مسامات جلده.

شعرت بأنها تملكه بيديها. وما بقي هو وجوب تمتعهما. وستدفع بمعوقات تافهة جانبا. التجربة تجعل من تقييمها لما تملك بركتها. ستتباطأ لتغرف مما يعطيه ولتمنحه بارتخاء ما يشعره بها. ما اكتشفته هو ذاك المد والجزر غير المحسوب في الأخذ والعطاء بينهما، أدركت تحقق مستوى يطلقها كي تحقق أعلى تناغم مع حياتها. تريد من الحياة ما هو من حقها، مستعدة للنزال.

****

لكن الدموع سرعان ما جفت، إذ أفزعتها القنابل. يوم آخر يجب أن ينقضي. يمكن للخوف أن يُبلع، يُمضغ، أن يوزع على أجزاء هذا الجسد فيتبدد. لتدفع كماً بالشَعر، وكماً بالأطراف، وكما في البطن.

يوم آخر يجب أن تبحث فيه عن عزم آخر، تحمي فيه طفليها. وجودها ضروري. ضربات هذا القلب آن لها أن تهدأ. وجودها وهي تتلفت حولها الآن تغير. لا تفسير لديها غير تربص المجهول لها. ولا سلاح تستعين به سوى عزيمتها. وجودها تشكل مرة أخرى، اثر عامل جديد. وجودها هذا اليوم سيتشكل دون فسحة تذكر لخالد.

****

عندما صحت شعرت بشدة فراغ البيت من حولها،، شدة صمت الأثاث وموت النبتات والصور. تغيرت ملامح كل ما حولها، وكأن علاقتها مع المكان قد اختلت في هذه اللحظة. صار كيانها آخر. مررت يدها على رأسي الطفلين. كيانها ذاب مع الأطفال بلحمة واحدة دون الشعور بافتقاد ما. جمعت شتاتها، لا مكان للأمس، جلست، ضغطت بيديها على صدغيها. فكرت في كيفية عبور هذه الأيام لتضمها إلى الماضي دون رجعة.

الجزء الثاني

وفاء

وكأن مجريات الحياة أجلت إلى إشعار آخر. تشهد الحرب من خلال التلفزيون كأي انكليزي. تحيطها الصور التي التقطت عبر الأقمار وتقارير الصحفيين.

... مناوشات ونقاش، وإعداد وجبة طعام، كي ننهي يومنا

أيام كان فيها حتى الإحساس بالبرد غريب.

... بل صرت بلا إحساس. تفكيري يتجمع في نقطة واحدة، ما الذي سيكون عليه الأمر بعدها، ولم يكن غير ذلك لواضح بداخلي.

عادل وفلاح يدخلان في متاهات ذكرياتهم بمتعة، لابد من بيرة لتبقيها مشتعلة. هذا الشتاء لم تشارك امها فرش السجاد وفتح حقائب الملابس الشتوية المطوية على كرات النفثالين. يوم طويل ممتع، يصفّون فيه الملابس الصيفية في حقائب، ينظفون السقف والزوايا بالسعف ليتخلصوا من أنسجة العناكب. يمسحون زجاج النوافذ، ويجلسون في مسائه متمتعين بهيئة البيت الجديدة، المعطر برائحة بالشاي الذي أعد على المدفأة النفطية، ممزوجا برائحة خزن الملابس والسجاد.

تراقب عادلا وهو يتحدث عن أيام الدراسة. كانت معالم وجهه تكتسب طابعا آخر أكثر رجولة. تشعر حينها وأصابعها تتخلل شعر طفلتها، بأن له

عالما ذكوريا مليئا بالأسرار والمغامرات والمعارك. تداعيهما بالحديث ينسيه وجودها فيفلت لسانه سبابا وتعليقات تقربه إلى الشباب الآخرين الذين اعتادتهم حولها.

يفرد للبنت الكثير من الأهمية. يحملها على ظهره ويدور.

...إنني، لم أفكر، ولو لمرة بشأن مستقبل الأطفال، حياتهم وطريقة وظروف نشأتهم، وتعليمهم، وان كان فلاح يفكر طول الوقت، على الأقل بما من شأنه ضمان مستقبل مادي لابنتنا، ولأخوة لها يحلم بأن يزرعهم اليوم ببطني قبل الغد.

...غير حمايتها لم يساورني قلق ما.

بالرغم مما تشيعه الجلسة من حميمية، لم يتوان فلاح في خلواتهما الأخيرة عن نقل حوار سبق وان دار بينه وبين عادل، يبرز من خلاله ما يظن من شأنه إفساد حكمها عليه. أسلوب السخرية الذي يتبعه فلاح وأصدقاؤه مع عادل، كان لفراغهم، لتعطشهم بإيجاد ضالة لهم يبرزون من خلالها رجولتهم، ومزاجهم يحدد الضحية القادمة.

تجمعات رجال، أساتذة، مثقفين، فنانين، تشبه تلك التي كان فتيان المحلة ينتمون إليها كي يشعروا بالأمان. تسخر في سرها. رمشة عين فلاح تفضح ما يقصده حين ذاك. يفهم صمتها، فيجاهر بسخريته لها، بانفعال:

– أنت لا ترين خللا إلا في زوجك.

****

لم تحدد ما يدور بذهنها. حالة بدأت تلازمها وتحاول الهروب منها. كان فكرها مشتتا. ويدها ترتخي حينما تحاول دعك خشبة ما، أو صحن.

قال عادل وهي تنظر مليا في عينيه:

– جربي، حاولي أن تقولي لنفسك بأنك إنسانة سيئة، حاولي أن تظهري أمامي بكل ما ترينه سيئ أو شرير أو قبيح فيك.

لم أفهم... أو أنكرت إحساسي بمحاولته لشدي له... حدست بأنه سيدور بعينيه بعيدا عن عيني.

– هذا ما يقلقكِ، حملك الذي تتحدثين عنه. هو صراعنا في الحياة، أن نحصل ليس فقط على درجة مقبول، بل جيد جدا، وان لم نستطع ذلك. هناك من يفرط في تزويق نفسه وتأنقه، وآخر ينزوي في ركن، كل ذلك من أجل إخفاء حقيقة، اعتراف بما نقدر عليه ومالا نقدر.

... وما أدراك بأن هذا ليس ادعاء مني.

...أود لو أكذبه.

أشك في قوله:

– ثقي بأن هذا العالم لم يعد يهمني. لا يهمني اعتراف أي كائن فيه بي.

قالها وهو يعالج حذاءها الذي انفصل كعبه أثناء مشوارها مع طفلتها.

وكالحلم تتردد في بالها كلمات وتجيش بصدرها انفعالات. تسمع نداءه في ليلها فتعتصر روحها، يعلو الصوت بحيرة، وصراخه يتكرر.

... لماذا يتلو النداء بعد النداء.

... عودي إلى هناك، عودي.

****

...آخر نور للنهار يغيب في النافذة أمامي، لكنه ليس نورا، لن يطلع نور هنا.

الورقة معصورة في يدها. كانت في الموزع الداخلي أمام شقتها في الطابق الثالث للعمارة. بحثت عن زر الضوء. المصباح يتدلى من سقف العمارة حتى أسفلها بواسطة سلك أصفر، حمل رواسب الزمن. ضغطته فانكشف نور خافت في أسفل العمارة أضاء الورقة المرتجفة بيدها بالكاد. دفعت بقطعة النقود بقوة إلى جوف جهاز الهاتف القديم. لم تجرب استعماله من قبل.

جاء صوته واضحا. ارتبكت، لم تتوقع سماع صوته بهذه السرعة. لم يلتقط إلا بضعة كلمات مما قالت. اختنقت ببكائها. هدأ من روعها بكلمات لم تسمعها. ووعد بأن يمر بها بالحال.

شعرت بجثتها وهي تختض من البرد، التصقت بالمدفأة، محاولة أن تتماسك. كانت طفلتها تلعب قريبا منها، دنت وقبلتها، شربت دموعها. ضرب الباب بحذر. مسحت وجهها بيديها، ودفعت بخصلات شعرها إلى خلف أذنيها. فتحت الباب واستقبلت عادلا مرتجفة.

خطا خطوتين إلى الداخل وأقفل الباب من خلفه، ووقف في مكانه.

كانت أمام آخر يتحدث معها.

مربعات قميصه تبرز من خلف بلوزته الصوفية. تشعر بنظره وهو يجول بين يديه، يديها، الطفلة، والتلفزيون. لحظات حتى هدأت.

... وكأنه قد فهمني، احتواني بين ذراعيه وأسمعني كلمات وطمأنني.

دنت منه.

...أود اختبار قوتي، سأغلب قوة شد هذا الجسد الضئيل أمامي.

...آلامه شديدة تكاد أن تقوس ظهري.

انتصبت في وقوفها أمامه. ميزت رائحة جسده التي تظنها تعود إلى استعماله لصابون للأطفال.

... لأعدل من كل هذه الخطوط التي لويتها في داخلي.

... يهدر إحساسي به حتى يكاد يفقدني وعيي.

جزّأتْ النفس الواحد بتقطع إلى دفعات.

... ربما كان ذلك ألم الاستقامة.

...فهمت تساؤل عينيه.

وردت عليه بعينيها. لم يتقدم خطوة أخرى إلى الداخل، كان لا جدوى من الوقوف طويلا. خطوته عادت بمسارها العكسي ذاته.

وانصفق الباب.

... على استقامتي.

****

أحيانا تتساءل إن كان لقلق فلاح تأثير عليها لتكون بهذا المقدار من الإرتباك. ما الذي يجعله في شك وخوف دائم هكذا في حياته.

... أنا بلا أهل، أقف عارية، وحيدة تتشبث طفلتي بي، بل ان البصرة قد دمرت تماما وماتت أمي.

كان فلاح قد جن في ذلك اليوم، لم تعلم برفقة من أمضى سهرته، وكأنه يتقصد اختلاقه لأسباب ثورانه، واحتجاجاته. وقد رجحت بأن للسكر دخل في ذلك. كانت قد اعترضت على الحجة التي قدمها إليها من أجل سفره المتكرر إلى لندن. وبأسلوب المهدد وقف عند مدخل الصالة وصرخ:

- أيهمك الأمر؟ ما الذي تحاولين إقناعي به، ما الذي يهمك أنت. لاشئ إلا نفسك، أنت لا تشعرين بي، ليس بذهنك إلا الأهل والعودة.

- لنغلق الموضوع، هذا أمر انتهينا من نقاشه.

لم تشأ تحريك عضلة في وجهها، كانت تنظر في عينيه. زيف كل شئ بينهما صبغ وجهه والمكان من حولهما.

أربكه ثبات نظراتها فجاء صوته العالي حاملا نبرة مهددة:

- أعرف كيف يجب أن أعاملك، سأذلك والله، وليكن معلوما لديك، الجوازات بحوزتي. سأتلفها أمامك. سأمزقها ورقة ورقة.

- ..

- هل خرست، تبقين صامتة، تكلمي، أم ان هذا الحمار الذي أمامك لا يستحق؟

ربما توقفت مداركها عن العمل. جرجرت قدميها إلى الفراش.

... لأنطمر فيه... البيت كالقبر. من أين يأتيه شره الذي يرفده بأفكار كهذه. غريب هذا الإنسان علي.

****

الشوارع بدت لها متشابهة والبيوت والعمارات ذات اللون والهندسة، قرميد السقوف، والمداخن، الإعلانات التي تلقى من فتحة الباب علينا والدعايات التجارية في التلفزيون، زجاجات الحليب، القمامة والمناداة بمصنفاتها. منافسات الأسواق والتنزيلات، نشرات الأخبار تتوالى، تصريحات متحدثيهم،

إحصائيات جديدة تذكر عدد الجسور المقصوفة والصواريخ والقوات المشتركة ورقم الغارات.

...لاشك أن زمانهم قد اندرس.

لمحت رعب الفكرة في وجه فلاح.

... طبعه الحاد معي.

الحديقة الخلفية التي كان الايرلندي يوليها كل اهتمامه، أنبت البرد فيها أعشابا وحشائش لا لون لها. علت حتى غطت السياج بأكمله. تلك النافذة التي تنقل لها جماد المكان واستقراره كل مرة. صارت تنقل لها صورا مشوهة غائمة.

****

...لا أدري من أين نبع هذا الطمع، لا يشبه طمع فلاح للأكل والمال والجنس. انه انفتاح فجائي على كل الحقيقة. شره فجائي لكل الحقيقة، وكأنها كانت غائبة. وكأن فكري قد تعطل كل هذه السنين.

...الطمع نبهني على ضرورة سرقتي لشيء ما. لكني لا أشعر بحقيقة انحرافي.

... غريب هذا.

... كان من شأن حتى الخطوة الصح أن تقلقني. لأول مرة أخطو خطوتي بدون توتر. يسبقني فكري حارا لاهثا، يجتاز معوقات لا يخطر ببالي إمكانية اجتيازها يوما.

... جسدي الذي لم أشعر به يوما كافيا مشبعا، صار يبدو مقبولا عندما أنظر إليه... بامتلائه، رخاوته، بحيائه، ووظيفيته.

...نقلتُ لعادل كل هذا دون كلمة.

... كنت أريده.

كان عندها وقد نامت الطفلة في غرفتها.

...لم أفكر بما يشغل "عادل"، بما في رأسه. فكرت بالذي نشترك فيه أنا وهو ... سبب تعاستنا.

... هل يستحق هذا كل هذا العناء والعذاب، انه التزامنا المضني تجاه هذا العالم لقاء ارتباطنا به.

...أأخطئ بالتعبير عن نفسي، أم أني بعيدة في تشخيصي لما يجري أمامي.

...سافر فلاح إلى لندن، هكذا من أجل المتعة ككل مرة.

...عادل أمامي ليتفقدني وطفلتي.

... عادل ينتظر سفري بفارِغ الصبر، ليتخلص من مأزق وقع فيه.

... وأنا أجلس أمامه أنوب عن العراقيات هناك، بل عن باقي جنسي كما يجب، ولأثبت له بأن الذي حفر بداخله، وبباله، باق كما كان عند مغادرته... منذ خمس عشرة سنة.

...لكنني ومنذ أيام أعيش حالة هزء غريبة من كل شئ. شلال غضب عنيد يجرف ويقتلع كل ما في داخلي. أحاذر فيه ألا يكون عادل ضحية. أسخر من أمي، أخي، فلاح ، عادل.

... وبالمقابل أمامي فرصة الاختيار الحر. أمامي إنسان يمنحني أعلى درجات الثقة به، من دون أن ينبس بكلمة. ولالتزامه، الذي أشبهه بالتزامي، يقول أؤمري.

... ربما بصمته يقول لي... قرري ولو مرة واحدة.

... أ قَبِلَ بأن يكون أداتي ضمنا .. حقا؟

... أنا؟... لا... لم أقبلها له، بل إني انتقاما لخسارته دنوت.

... لم تكن في ذهني صورة أحمد، أو فلاح والدقائق الخمسة التي ضاجعني في ظرفها باكرا، قبل سفره هذا الصباح، ولا أمي وجهلها، أو امتهان سامي للسخرية. كنت أحاول أن أزيح عن طريقنا أنا وهو هم اعتبارات كثيرة ثقيلة، لنرى الأمور بوضوح.

...وأغمض عيني لأقبل طفلتي، أهدهدها لتنام.

وعادل كان حتى لحظة تقربي منه ساكنا تماما، مراقبا. نبضه اخترق ملابسي، شد صدري إليه، صدري يعلو ويهبط مع صدره، أكدت لنفسي بأن اختياري حر، فكان أن استكان جسدي أخيرا وارتخيت بالتصاقي به وخفّت رجفتي. تحركت يداي تتحسس وجهه، شعره وصدره. شدني إليه، تداخل زفيري بشهيقه. استنشقني بأناة فرحت أتامل، وأنصت. حملني بهدوء يقابل هدوئي، جال بي في أماكن مجهولة من قبل، حاورني بصمت وببطء شديد في السرير، ومن ثم بإحساس قابل إحساسي حتى النهاية.

كانا يجلسان على حافة السرير، خافضي البصر.

...كان يريد التأكد من أن التكوين الذي أمامه حقيقي، عربي وأنا بجسمي الحي الذي يعرفه. أم أنا انسانة لا يكاد يلمسها حتى يشك بيديه.

... أم إن التي حضنها خيال، كان شديد الرقة معه لئلا يختفي.

... انتهيت، وأنا في حضنه إلى انه خائب متورط أكثر مني.

... كل ما فكرت فيه في تلك اللحظة هو نسيانها... هل يقوى هو على خطوة كهذا؟

ارتدت قميصها وهي تنظر إليه، دفعته برفق عنها، وجلست بجانبه.

... انه يخشى البقاء، كما يخشى الهروب.

... أنتَ لم تأخذ مني كما لم أمنحكَ شيئا. نحن نتقاسم.

لم تقل له كلمة. حضنها ولربما لثلث ساعة كانت هناك كومة حزن ثقيلة رخوة مرمية على كتفها.

... تركتْ رطوبتها وغادرتْ.

****

النافذة ملاذها الدائم إلى جانب الموقد، الأواني، والتلفزيون المكتوم الصوت. هذا الصباح كان الايرلندي وكأنه بانتظارها عندما نزلت. ابتسم لها بطيبة، أفسح لها الطريق، داعب شعر الطفلة وناولها قطعة حلوى مغلفة. شكرته بخجل. شكت بأنه كان ثملا. تحرك حزن بداخلها.

****

عادل غاب، سألت فلاحا مرارا عنه وهي تشد بيديها ستارة النافذة.

... أتعجل عودتي.

أجابها بأن عادلا مشغول جدا.

...كان ذلك ما أردته.

... عادل كان روحا هائمة يسهل خنقها.

بدا لها زاهدا وكأن نظراته صورت لها ما يدور بباله.

... وكأن الذي يبحث عنه أمر يجهله هو نفسه، أو تلك التي يبحث عنها خيال لا وجود له، إن كان هذا الأمر هو ما يعذبه.

قال لها بأن لا روح لهؤلاء البشر هنا ولهذا يشعر بالموت. لم يستطع الاندماج مع أصدقائه من العراقيين والعرب للهوة التي كانت بينه وبينهم. أهمل نفسه، لم تفهمه تماما، وكأن حياته لا قيمة لها بكل هذا التيه الذي يعيشه.

... عدم استيعابي له يزيد من إحساسي به، يحرك لوعتي. ربما وقفنا عند محطة واحدة، كل في عالمه. كلانا لا يملك حلا لمشكلته. وكأنه توقف عند مرحلة لا يستطيع الانتقال منها والمضي قدما، أو ربما لا يريد التزحزح عنها.

... لكن هذا التحقق الذي منحني إياه كان جميلا، لونا من النشوى، زخما من طاقة اكتفيت بها. أتأمل فيها حد التقوقع والسكوت، بل اعتشت عليها لأفكر بقراري.

****

ظل فلاح ملازما البيت معظم وقته بعد عمله اليومي. يكاد كل منهما يتراجع عما يود قوله كل مرة. الأخبار والصور تزيد من تزعزعهما.

يدور مرتديا بجامته، يتمدد أمام التلفزيون بالصالة، يعود ليدخل الغرفة أو ينشغل بإعداد وجبة طعام في المطبخ. تركته ليفعل ما يشاء وما يقرر.

يرد على مكالمات الأصدقاء، وقد تحول إلى مرجع عسكري فجأة، يرجح هذا وينفي ذاك. يضاجعها، يراقبها، بينما يسأل عن قوانين اللجوء وحقوقهم، وهو يؤكد بالوقت ذاته احتمال ترشيحه لرئاسة القسم في كليته حال عودته، إن مرت الأحوال على ما يرام، ولم تتم الإطاحة بالحكم.

****

اتصل عادل. أجابه فلاح ببرود. كانت في المطبخ.

... يسري فيَّ فعلنا ذاك المساء، وتفاصيل استجابة جسدينا

... سرت الرعدة، خط لمع بين صدري وأصابع قدمي، الأمر الذي زاد من صلابتي.

أقفل الخط وهو يدمدم، خطت خطوتين، صارت في الصالة، قالت له بهدوء وشبه استنكار:

- لم لا تدعوه اليوم ليتناول الغداء معنا؟

قدحت عيناه بالقبح:

- هل صار البيت للعلف أم ل...

انتفضت في مكانها، اندفع صوت مجروح مقهور عال يصرخ:

- ماذا تقصد؟

- ..

- لن تتمكن حيوانة من العيش معكَ بدماغك هذا، أنت مجنون ، مجنون.

لم يكن قريبا، لكن كفه وصلت لتوقعها أرضا.

بشرى

الليلتان الأخيرتان امتصتا طاقتها فشعرت بوهن في قواها. تشوش فكرها ورغم توقف القصف فترة النهار، بقيت مضطربة لاعتلال الطفلين وتشبثهما بها. وعندما تغمض عينيها، تهتز بها الحصيرة، تختنق، وهي تحتوي رأسين، كرأسي طفليها ملقيين في حضنها، فتصرخ.

صراعها المستمر الذي خاضته وحيدة ودون علم أحد، جعلها تعد أيام صمودها.

****

عندما اعترض خالد على دأبها المستمر على تغيير أثاث الصالة، مكتبه، طاولة الطعام، أفهمته بحرقة بأن هذا من شأنه بناء علاقة مع المكان. كانت معاني وجهه تشير إلى عدم فهمه. تود القيام بكل ما من شأنه توكيد هذه العلاقة. لم تستطع توضيح ما يعتريها. لا تقوى على معاشرة هذا الرجل. تشك أحيانا بأنها ستستقر إلى الأبد. لا تطيق مايعيقها، ربما هي مسؤولية البيت والأطفال. هناك فرص أخرى في الحياة تنتظرها. تفكر في كل تلك الصور المقيدة المفروضة في حياتها. تنتابها رغبة قوية بالانعتاق لا تفهم دوافعها.

طعم النوبات تلك، وآلامها المبرحة والخوف من الحزن لامس شفتيها. فيه كَمَنَ توهمها بالجنون، تراءى لها أنها تسكن وحيدة في هذا الحي بعد أن غادره الجميع. لم يتناه إلى سماعها صوت ما يصدر عن الجيران.

... تلك هي الأزمة، هل جننت، الخوف وأنا أقف عند الثلاثين. أن يعيد الزمن مأساته، لعنته، عقابه.

... وهذا الذي ملكته؟

... أم إني لم أملك شيئا. ما عشته كان وهما. تراني لم أشف بعد. سيأتي من يبصق في فمي ليبرأني من علتي. مجنونة... ويمسك برأسي

ويتلو علي سيلا من آيات وأدعية ليخلصني من السحر الذي قذف علي وأنا في المهد.

****

الليلة الأخيرة التي ما انفك فيها صوت الطائرات عن هديره، دارت في الغرفة حول نفسها بينما تعلق الطفلان بأذيال ثوبها باكيين. لم تجد ما يأكلون. مضادات الطائرات لم تهدأ، تذكرت برج مبنى الإذاعة القديم الذي يقع على بعد كيلومترين من ساحة سعد، سيكون مستهدفا بلا شك، و كراج بغداد، وسيارات الرادار التي دارت نهار اليوم حولهم، والراجمات المنصوبة خلف البيوت.

رقصت لخالد مرة السامري، ومرة الهيوة على إيقاع أغنية خليجية.

لبست الثوب الهاشمي، أحرقت بضع حبات من البخور، وحملت جهاز التسجيل، لقمته ببطارياته وضغطت على الزر. تدور مفلولة الشعر، يختلط بكاء الطفلين بالضحك، تصرخ بهما ليفلتا قبضتهما، يعودان للبكاء معا، تصرخ لا، ليكفا عن شد ثوبها، تجر طرف الثوب فيسقطان أرضا، ويغصان في بكائهما. كان صوت الموسيقى عاليا جدا... صرخت بهما بكل ما أوتيت من قوة، لم يسكتا. تملكتها حالة عصبية أخافتها، أدركت بأن تحكمها بأفعالها بدأ يخونها فراحت تبكي معهما.

تركت الغرفة فجأة وراحت إلى غرفة نومها، قلبت ملابسها رأسا على عقب في الخزانة لتعثر عما تريده وسط الظلام، وعندما اصطدم جسم صلب بأطراف أصابعها اطمأنت، سحبته بهدوء، مجموعة أوراق، ومغلف صغير كانت تحفظ فيه مبلغا من المال.

لم احتفظت بأوراقها، مذكراتها، إنها اللعنة تقبع بين طيات ملابسها، ستحرقها ورقة ورقة. تمقت تلك الأوراق لكنها لم تفكر برميها، كان عملا تخشى القيام به، وكأنه جزء منها شاءت أم أبت، بل كانت تود التأكد من انها تخنق عذابها في هذا الدولاب لئلا يلاحقها. تناثرت الرزمة مزقا في كل جانب من الغرفة. وذلك المال، أمسكت به، لقد جمعته سرا على مدى سنوات زواجها. تتسلل خلسة كل مرة، من أجل تحسسه، أو حساب ما جمعت فيه. يسعدها أن تشعر بوجوده بين طيات ثيابها، لم يعلم خالد بشأن هذا، لم تفكر بما عساها أن تفعل به، لا يهم، تتلذذ بالفكرة وكأنها مغامرة خاصة بها. ربما كان جزء من تنفيذ مشروعها المقبل. أمسكت بالمغلف، أفرغت محتواه في حضنها.

الطفلان يصرخان دون أن يعطياها الفرصة لتفكر، تركت الدنانير تتناثر، نهضت من مكانها، جالت في البيت تبحث عن حل يريح الطفلين ويخلصها من بكائهما. شمرت عن ساعديها، طوت طرفي فتحة الذراعين العريضة

للثوب إلى أعلى كتفيها، راحت بيدين مرتجفتين تسقيهما الدواء المسكن للسعال بكميات كبيرة. كانت تتنفس بصعوبة، حمدت ربها لأنها تملك زجاجتين، كان سامي قد وصفهما لخالد، ليهدئ من آلام صدره، لكنه لم يستعمله. أفرغت زجاجتين، شربها الطفلان. ساحت خطوط من الشراب الكثيف الغامق اللون على جانبي فمهما، فأرجعته بأصابعها.

****

نوبة صرع استطالت واتسعت وانتفخت وتدرنت بأعراضها، تقف بمنتصفها طويلا. ستسقط منفصلة عن أطفالها، هاوية في ألمها وهذيانها إلى جحيم من وجوه بشعة تود تمزيقها. كانت متأكدة من أنها تركت الطفلين يغطان في نوم عميق جدا. ومتأكدة من أن جسما حربيا لم يعبر سماءها طيلة فترة حراستها لنفسها، الهدوء له طنين مزعج في أذنيها، شعرت بجفاف حلقها وبرجفة في أطرافها، نظرت مرة أخرى إلى الطفلين، تقربت كثيرا فقد ازدوجت الصور أمام عينيها، ظنت بأن لون جلديهما قد تغير ، صار أزرق، وامتلأ خلال لحظات ببقع غامقة اللون. نهضت متعثرة بثوبها الطويل لتحضر لهما ما تبقى من ماء للشرب.

الليلة الأخيرة التي توهجت فيها السماء احتفالا بهلع الأطفال، ترددت هي ببلع أربع حبات من الفاليوم عثرت عليها وهي تبحث عن دواء للطفلين في

صيدلية البيت الصغيرة، بقيت يدها قابضة على الحبات بعصبية، بينما الطيارات تئز فوقها.

الألم اختلط بالخوف والغضب وشعرت بقواها تخور،، تحركت بثوبها الهاشمي الطويل بلا وعي من مكانها. تركت الأطفال في الغرفة يتمتعون بنومة هانئة، وعبرت الممر وسط وابل من اطلاقات مضادات الطائرات. توجهت نحو نافذة المطبخ وبذلت جهدا لتزيح بعصبية طرف البطانية المثبتة على الحائط، كانت تود بإلحاح إلقاء نظرة إلى الخارج.

الظلام سرعان ما يمسح ضوء مضادات الطائرات المنطلق أعلى المنازل، طائرة تجتاز سماءهم فيعم صمت مخيف بعدها، وكأنها تود الصراخ بوجه العالم، طلب النجدة لها وللطفلين، مزقت بسكين حاد طبقة البلاستيك. تداخلت خصلات شعرها مع ضربات السكين. كانت تشير بسكينها إلى خط طيرانهم وهي تهمس.

...**ثانية تلحق الأولى، ثم هدوء.**

فثالثة حتى طب جسم صلب وهوى ليس ببعيد عنها، شعرت به يقلع البيت من مكانه ويلطمها على جدار، المكان اظلم وامتلأ بالتراب والرمل.

سحب من دخان كثيف خنقتها. سح جسدها نثار الزجاج وهي تزحف بعناد على أرضية الممر إلى الغرفة حيث الطفلين، لقد فزا الآن من نومهما، لكنها لم تستطع أن تكمل.

المدينة العامرة أنقاض عائمة تطفو قطعا متناثرة يحملها الموج المتلاطم، والإله لا يفعل ما كان يفعل، انبطحت تماما، لعنة أنزلت على الإله، فانشغل عن الخلق بالعقاب، التهى عن الإنسانية بالدمار.

تقطر ماء. وكأنها تدفع بحصيرتها لبر ما. تبحث عن الطوب والإسفلت والحصائر.

هيام

كتبت الأم بخط مرتجف آية الكرسي على ورقة، قصتها خمسة شرائط باعتناء. أحرقت بخورا قبل أن تغيب الشمس تماما. تحاملت وخرجت لتلصق الآيات على الجدران ولتدور بالبخور حول البيت مرتين وهي تكرر بيت سيد محمد مامون...

عندما بدأ الهجوم الجوي كانت هيام وأمها قد نامتا بالحوش الذي لم يكن سوى الفسحة المربعة بين الغرفتين والمطبخ والتي أغلق سقفها. لم يتحرك سالم من فراشه طيلة الليلة الأولى. اشتدت صعوبة تنفسه ولم يساعده دواؤه. وقد زاد تبخير البيت من سوء حالته.

احتارت هيام بين الاثنين. وضاقت بالجو الإيماني الذي ساد البيت.

خوف الأم خلق لها أعراضا مرضية كثيرة. كان يجب على هيام تحضير ما من شأنه التخفيف من روعها. المذياع بجانبها، الساعة، القرآن، مرهم المفاصل، الماء، والفانوس. اصفرار وجهها يقلق هيام. تمسك بيديها لتفركها. تتحدث وتتحدث كي تشغلها وهي تدعو لأن تكون الغارة هذه هي الأخيرة لهذه الليلة.

****

تدخل المطبخ أول الصباح. الأم شرعت بتنقية الرز من الحجارة والقشور. تقرأ بعض الأدعية، تتذمر من نوعية هذا الرز الذي حصلوا عليه من الوكيل. تريها بين الفينة والأخرى ما تجده من فضلات فئران وحصى يسمونها مكارم. تترحم على أيام الخير، أيام زمان. تبقى هيام صامتة منشغلة بما لديها من مهام.

تلح أمها على ضرورة السؤال مجددا عن بشرى:

- أنا لا أفهم سبب عدم تمكن سالم من الذهاب إلى هناك للإتيان بها وطفليها، المسكينة وحيدة وليس لها غيرنا.

تتذكر هيام نوم سالم. تسرع بغلق الباب مخافة إزعاجه بصوت الأواني والحركة في المطبخ وحديثهما. ينفذ صبرها.

- لا تفكرين إلا به، والمسكينة لها الله.

المطبخ بارد، ورطب، تنضح حيطانه برائحة الخل. ومرق اليوم لن يكمل بدون نار. أمها مستمرة باحتجاجاتها، وهي مستمرة بتحريك قنينة الغاز، هزها بقوة كي تستمر شعلة النار الواهنة، وألم الطمث قد أرخى ركبتيها.

تلحقها الأم باتهام آخر:

- أخاف تاخذين حبوب من وراي، أعرف كيف يفكر هو.

تحاول سد كل منافذ احتجاج هذين الكائنين لتهدأ. عندما تفلت كلمة من سالم حول مرق اليوم الذي كان قليل الخضار، تمتنع الأم عن تناول الطعام. وعندما تفصح الأم عن رغبتها بسؤال أبي صالح عن آخر ما سمعه من أخبار في الراديو، الذي يسحب تقريبا كل المحطات، يتأفف سالم وهو ينظر لهيام.

تنهض هيام بصمت تاركة المكان ثانية إلى المطبخ وحتى تغيب الشمس فتتوجه كل منهما إلى الصلاة.

****

تشعر بالاختناق. تترك أمها ممددة على فراشها، وسالم في غرفته. تضطر لأن تغافلهم مساء كل ليلة، لتجلس على عتبة باب المطبخ الذي يطل على المرآب. تنزل بنبتتها التي أغلق الظلام ورودها، تضعها بجانبها، تمدد ساقيها لتستريح. تلامسها بقايا دفء الشمس، الذي امتصه الإسمنت في النهار. تهدأ قليلا.

وهي ترصد السماء تتبد الظلمة... هناك ما يدعوها في أعالي هذا الفضاء، يحرك مفاصلها حتى تشعر بألم مقاومتها له... تحس الحرارة المنبعثة من مسامات وجهها بيديها.

... هذه السماء ما أعظم ما تضم تحتها، قد يضيع فيها المرتفع مع المنخفض... الضعيف والقوي... المعتدي والمعتدى عليه...يا الهي... هل هناك مِن شاهدٍ فيها على ما يجري.

تدور بعينيها بين تلافيف الغيوم، كتل النجوم.

... هل هناك من يشعر بنا.

تستغفر ربها بسرها مرة أخرى.

وهذا النجم اللامع الذي يواعدها ليلا، شعرت به بريئا دون بقية النجمات... ثابتا في ذات المكان يحاكيها بإشعاعه.

... بل هو جسم صغير حاد ببروزه، يشبه طفل يتمثل أمامي، يلح بوجوده فلا أستطيع تجاوزه.

تتحرك يدها لتلامس بطنها الضامرة، تدور وتدور مداعبة.

تسمع كركرة ومناغاة.

...القمر في حضن غيمة.

نزول الدورة الشهرية يفزعها. كان يمارس الحب معها في أحلامه فتصحو وهي تدعي النوم لحيائها. والخلل بات يتكرر، يكبر عندما صارت تتعمد النوم و الحلم وحيدة. تتتبع خطوات الدخول إلى الحلم بوعي، إحساس مجهول يتعدى الصفر بأجزاء، تعده للرحلة المجهولة، للرحلة الملعونة، تصعده بضيق لمستوى الرغبة، تتحرك، يتحرك الدم بطيئا، يتدفق، يجري حارا، فيه زيف وحقيقة يتناوبان، انتقام وألم، حلم وحقيقة، وهو والآخر يتبادلان، يصلان نقطة، لا تستطيع فيها التراجع أو المضي، تغمض عينيها حتى الندم.

تصيخ السمع... ثمة طائرة تقترب فتنهض قبل أن تفرغ حمولتها، تحمل نبتتها، تغلق الباب بحذر تدخل البيت.

****

تلقفت الأم الخبر من حياة عبر السياج:

– انسحب الجيش، واثنان من أولاد بيت أبي محمد وصلا الفجر من صفوان إلى ساحة سعد مشيا على الأقدام. حالتهم تدمي القلب.

– لكن القصف لم ينته بعد والأمريكان بعدهم على رؤوسنا.

****

ليلة إعلان وقف إطلاق النار من جانب العراق وبدء انسحاب الجيش لن تمحى من ذاكرتها. وجاء إلى المحلة من يقول:

– اللي عنده جندي، عسكري يطلع على طريق صفوان يفتش عنه.

لم تستطع هيام تحمل كل تلك الأخبار. بقيت خارجا مع حياة. الأمهات في الشوارع يواسين بعضهن البعض، ومنهن من لفت عباءتها حولها وركضت تجاه ساحة سعد.

عندما دخلت البيت وجدت الحال أسوأ. لم تتفوه الأم بكلمة وحين حان موعد نومهم، رفضت النوم، حزمت أمتعتها وتربعت فوق التخت في الصالة تبكي حظها.

في الليل جاء على لسانها سيرة الأخ الصغير الذي أُخذ فجأة، بعد أن ذُكر اسمه متورطا مع جماعة دينية بنشاطات يجهل من في البيت نوعها.

كان صوتها قد علا وعلا بإذن هيام، عندما بدأت بنعيه بصوت متكسر مرتجف كئيب. أولت هيام ظهرها لها، حاولت أن تنام، دارت تجاهها، رجتها

بأن تكف عن ذلك فقد انقبضت روحها. كما أن خبر وقف إطلاق النار بحد ذاته هزة كبرى لها، وقد تمنت النوم أكثر من أي شئ الآن.

...لماذا تعيد ذكرى تلك الليلة المشؤومة.

عشر سنوات لم تنسها هلع الليلة التي اقتحم فيها بضعة رجال من الأمن بيتهم وهم نائمون، سحلوه أمام عينيها وركلوا أمها. صراخ أمها العالي والباب الذي بقي مفتوحا بعده أفقدها وعيها :

- يكفي يا أمي، نامي ودعيني أنام، ما هذا الفأل.

- خلت الدار من الزينين.

فتحت الأم العصابة التي كانت تشد بها رأسها وأحكمت شدها مرة أخرى، وبقيت تنود، تتمخط وتولول:

-كان هو القريب الحنين، هو رجّال البيت، راح بشبابه النضر وحسنه، الله ينتقم من الظالم، لم يؤذ بشرا ولا حيوانا، من أين أتيتم بهذه التهم، عساهم بالنار آمين يا رب، قارون، ربي يخسف بيه الأرض هذه الساعة، لم يبق لي أحد من بعده، لمن أولي وجهي، تركني وراح.

لما بان لهيام بأن امها لن تهدأ هذه الليلة تناولت وسادتها ودخلت الغرفة لتنام بجانب سالم.

خالد

مطر خفيف وأشعة شمس حنينة، أبت إلا أن تنام على غيوم بغداد.

خف تساقطه . خشي أن ترسم حباته ألوانها في سماء بغداد. أغمض عينيه.

... قوس قزح! لا، ليس لنهار كهذا، كان عليها أن تهمي ظلمة على أحبائها، أن تلبسهم حدادها.

وهو يتأمل الغيوم تنبه إلى كم المشاعر الهائل الذي تحرك في داخله ذانك اليومين. كان ينفصل دوما عما حوله ليعود لوحدته. يعود لها ليجد يقينه في ذلك الشعور الصلب بالتصدي لما يمكن أن يأتيه من متغيرات. مساحة خاصة يعزل فيها نفسه عما يدور حوله. اليوم، وفجأة ألفى خالدا وسط

ملحمة فيها أبطال وجبناء، كوابيس وخيالات، انتصار وسقوط، نظريات وادعاءات، حب وخيانة.

****

تسلل في اليوم الأول، بعد انتهاء فترة القصف وانسحاب الجيش، من البيت. كان الهواء متحركا، أشعره بالبرد أول نزوله. قطع الأزقة الضيقة الفارغة هرولة. عبر جسر الشهداء الذي حظي بضربة. هي أول مصادفة له مع الواقع الذي يحاول أن يقي روحه منه. لم ير بشرا من حوله. كان يحرص على أن يتتبع الطريق الذي رسمه بباله، دون التفكير بالتفاصيل، ليصل مشيا إلى العنوان الذي ذكره أخوه في حي جامعة البكر. أمكنه تقدير الوقت، المسافة يمكن قطعها مشيا، هو يعرف تلك الطرقات بمبانيها ومحلاتها وشوارعها، هو مشاؤها، وان انشغل عنها الآن، وان انشغلت عنه. شعر باشتياق للمدينة أول نزوله، لكنه قهر الإحساس. صديق أخيه وعائلته يسكن في جامعة البكر. استحسن فعل أخيه حين وطد علاقته بهذا العسكري التكريتي. كانا يدرسان معا في كلية التربية قبل أن يغير الثاني من توجهه. لكنه لم يلتق يوما به أو يرغب بذلك. كان يظن أيضا بأنه يسكن في زيونة، حيث تسكن عوائل العسكريين الجدد. وها هو الرصافي يخطب بشعبه محتجا على ما يجري.

يتحسس هشيم الزجاج تحت قدميه دون أن يراه. والقلق الذي كان بداخله أكبر من أن يثير مرأى الدمار فيه شعورا ما.

مع كل هذا هو لا يشك للحظة في أنه قد فقد حياده إلى الأبد. استعرت به خلال تلك الفترة رغبات عدوانية، وسكنته روح شريرة، وسخرية بالغة من نفسه. انهم يتدخلون ليرسموا قدره، لم يعد قادرا على أفعاله.

... متخصصون في صناعة الأقدار الخيرة منها، والشريرة، الصائب منها والخاطئ.

قطع شارع الرشيد وهو يشعر بأجزائه وهي تتحد الآن لتدفعه عمودا بعد آخر من أجل الوصول إلى هدفه. ما شهده هذا الشارع، وما يشهده الآن سيان عنده، والتاريخ لم يختلف كثيرا.

... وأنا فلان ابن فلان أقر الآن وأقول بأن الإنسان مخلوق هش، يخشى الألم. الألم يأس، يذهب بالعقل، والإيمان.

كانت خطواته تتسارع حتى تحولت من هرولة إلى ركض.

... الإنسان لون تختاره الصدفة ليكون رمزا، كما الوردة.

... لِمَ تر العين الأخضر أخضرا، والأحمر أحمرا؟

خفت حركة قدميه بعد أن اجتاز ساحة الميدان، تسارع نبضه، شعر بالتعب، وبألم صدره وفقرات ظهره. خشي أن يحدث له ما يعيقه عن الوصول إلى

هدفه. كانت جدران مبنى بدالة الميدان الكبيرة قد تحولت إلى طبقة مجسمة من غبار مكومة على اسفلت الشارع. مرأى الأسلاك المقطعة ، المتشابكة والمعطوبة، يشبه لوحة سريالية أدخلته بجولة داخل رأسه.

... التشابه كبير لو رفع الغطاء.

لكنه عاد وابتعد بنفسه عن ذلك، لم يشعر طوال حياته بتصميمه على غايته كمثل هذه المرة. غذ السير مرة أخرى. لن ينظر إلى ما حوله، ولن يتفنن بجمع رموز. وسيسير وكأنه ممسك بخريطته الجغرافية. والآن لم يتبق إلا أن يعبر الوزيرية، وما هي إلا خطوات حتى يصل حي الضباط القديم.

هاهي الجامعة المستنصرية تلوح له من بعيد. هاهي وكأنها تصافح عينيه لأول مرة. هاهي أيامه تلوح له وهو يقترب. صار الجو ربيعيا وود لو ينزع عنه سترته، اللحظات تعيده إلى ذاك الشباب الذي تفتح في هذه الجامعة وانطلق. كم من الأسئلة تمكن من الإجابة عليها حتى الآن، وهل اكتسب ذاك العود الغض صلابة، يهمهم مقويا من عزيمته. هاهو هدف آخر ربما قد أسند إلى طيارها وتوسل من أجل المشاركة أيضا بهذا التمرين المجاني. تذكر محطة الكهرباء لكنه لم يتذكر ما كان بالقرب منها ليكون هدفا.

... لكنهم هم من يقرر الهدف، متحف أم ملعب، والخطأ وارد في هذه اللعبة، ويسهل الاعتذار إن تطلب الأمر.

عبر استدارة المستنصرية وهو يفكر فيما عساه أن يكون بعد هذه الخطوة.

... منذ متى وأنت تسأل عما يكونه بعد هذه الخطوة؟

خطواته بسبب المجهول الذي تلبسها تباطأت عندما اقترب من جامعة البكر. وكأنه سيكون آخر عند كل منعطف، مختلف أمام كل مشهد يصادفه. طويل، عريض، أسمر، أشقر، غبي، أو حكيم.

دخل حي البكر وفي مخيلته وصف أخيه، يواجهه المعمار المبالغ فيه بالواجهات المنثورة والأقواس الضخمة وأعمدة المرمر. بيوت تتشابه إلى حد ما في مظاهر بذخها، كراجاتها وسياراتها. تتبع أرقام الدور حتى وصوله إلى هدفه. طرق الباب الحديدي الضخم وهو متذكر أمر الكهرباء. طرقه مرات عدة وهو يطل من بين قضبانه المرصعة بوردات معدنية ذهبية. سيارة أولدزموبل تركن تحت عرائش العنب. حاول فتح الباب بعد أن يئس من سماع أحد لضرباته. الكراج عريض وطويل يصل باب المطبخ في نهايته، تحفه حديقة واسعة على جانبه. أطلت عليه امرأة ضخمة الجثة من الباب الجانبي، غير متأكدة من انها تعرف الطارق، تقدمت باتجاهه وهي ترفع الشال من على كتفها لتغطي به رأسها. تبعها شاب نحيل يرتدي الدشداشة تقدمها ليصافحه، وأطلت من ثم رؤوس صغيرة من بين أقدامهم، لترى القادم هي أيضا.

قدم نفسه فصافحه أخوها ودعاه للدخول. جلسوا جميعا في الصالة وساد الصمت للحظات. اعتذر لهم عن زيارته، فرك يديه ووجد نفسه يسرد قصته دون مقدمات... لأول مرة كان مستعدا للتفاوض وبأي ثمن كان. اصطدم نظره بصورة الزوج التي تتصدر الصالة إلى جانب صورة للرئيس، الصورتان بحجم واحد و تحملان الإطار نفسه، الاثنان يرتديان الزي العسكري، كتفان يرفلان بالأنواط، يملكان أن يرسما قدر هذه الأسرة.

... رسم قدري وقدر هذا العالم.

كان يرفض أن يكون سيد البيت، وتأبى بشرى إلا أن تذكره بذلك. انه يخشى الظلم، ومصادرة حقوق الآخر وفرض أوامره. اعتبرت بشرى كل ما يقوله مناسبا لأن يوضع على الرف.

... لماذا تحاول أن تتذكر ما هو إيجابي الآن... أن ترسم صورة إنسانية أصيلة لشخصك.

لم يتوقع أن يجره سفره هذا إلى حد التشكيك في كونه إنسانا، في كونه كائنا محترما، وملتزما.

لأول مرة يتحدث عما هو شخصي أو عائلي. لأول مرة يصف عواطفه لغيره، ويختار من الكلمات ما هو قريب ودقيق لوصف مشاعره علها تصلهم. تحركت المرأة الحافية التي بدت بدانتها واضحة له، حملت الطفل الذي كان

على الأرض وراحت تصف له، بحركة رخوة متهدلة من يدها حالة الأطفال أثناء الهجوم. أغلق أذنيه وهو يسمعها. لم يكن يريد أن يسمع شيئا من هذا. لكنها غير متأكدة من مكان زوجها. وبعد أن رأت تشجيعا من قبل الأخ أضافت، لقد نقل أربع مرات في الفترة الأخيرة، لكنها ترجح بقاءه في المناطق ما حول بغداد، فقد تحرك لواؤهم قبل فترة من الناصرية أو الديوانية باتجاه بغداد، وان صح ذلك فسيمر حتما للاطمئنان عليهم في غضون الأربع والعشرين ساعة القادمة، مادام قد تم وقف إطلاق النار. تفتحت أساريره، وشعر بارتياح وهو يسمع ذلك، لكنه سيضطر لأن يغادر الآن.

وهو يصافح الأخ الذي ودعه عند الباب شعر بنفسه عبدا ممنونا لسادة كبار قد ضحك عليهم، وهو لا يمانع بتقبيل أياديهم. بحث عن علبة سجائره عند عتبة الباب بارتباك. اطمأن إلى وجود سيجارتين في علبته المهروسة، ستوصله البيت بلا شك.

في الطريق إلى هذا البيت، وقبل أن يصل اعترف بسخرية لنفسه، باكتشافه لهوايته الوحيدة.

... أنت على مر سنينك مغرم بجمع الخسائر متغن بذلك.

... ولم لا، الحياة غنائية لا تنتهي.

تعثر بحجارة كبيرة كاد أن يقع بسببها. من أين يأتيه كل هذا، خوفه من تناقضه، كأن جناحا ضخما ساخرا يذله، يلطم قفاه، كلما أتى على فكرة. وقف لوهلة يفكر في وجهته... نفث دخانا كثيفا من منخريه، نوى العودة إليهم في المساء... سيسير باتجاه ساحة عنتر. هناك وازع ما دعاه لذلك. اطمأن إلى منظر البنايات الخالية من آثار القصف وبدأ بالعد. سيعد البنايات السليمة فقط... واحدة، اثنتان، جاوز العشرين فضحك وتمهل في سيره. لكن مشاعره اختلطت. أبت التساؤلات إلا أن تتطاير وتحط فوق خيط الأمل الذي انتعش.

وانتصب وعدل من ظهره المتعب وهو يسير.

...المهم هو الوصول إليهم، سلامتهم.

إحساسه ببعده يفجر الأسئلة التي لم تخطر في باله يوما.

... أكان الحب، الأطفال، أم عقدة تأنيب الضمير لدي هي التي تلكز قدمي؟

...ما تراه البؤرة الوسطية هو ما يهمك، كل ما تبقى من المشوش المرئي في الزوايا اهمله.

تتفتت أجزاؤه كالصخر المتشظي تحت قدميه، فلا يمكن لنفسه الاستقرار للحظة.

****

في طريقهما هو وبشرى إلى شقته الصغيرة لأول مرة كان مترددا جدا، يتصبب عرقا، بينما كانت هي مرتخية تماما. اعتمدت الاقتحام، واعتمد سيجارته، يحولها من يده اليمنى إلى اليسرى. تحاشى التصاقها المتعمد، والجرئ به، وهما يسيران في أروقة الجامعة. أربكته ثقتها، شبابها، عيناها، تطاير خصلات شعرها الطويل. كانت قد احتلت السيارة كلها بوجودها القريب ذاك. تمنى لحظتها، وهو يصل أجمل مستوى من المتعة والإثارة، لو انها تستطيع إدامة ما أشاعته من جو متوتر، أثير لساعات حولها. يكاد أن يستنشق روعة اللحظة، لكن الطريق انتهى. سرعان ما عبرا شط العرب ودخلا أحد الفروع المؤدية إلى البيت خلف شارع الوطني.

...وكأن تلك الروعة مرافقي، تصدر أزيزا ناعما في رأسي كلما التقيتها.

يقرر أن يمهد لها قبل وصولهما شقته. وهو يقود أشعل سيجارة أخرى وقدمها لها. أخذ نفسا وزفره ببطء، ثم صرح لها عن محاولته لإضفاء مسحة استقرار على شقته بسبب زيارتها الأولى. يردف قائلا، ولكنها رغم ذلك وحسب ما يظن بدت له أسوأ حالا من ذي قبل.

لم يستطع العيش طيلة حياته في كنف امرأة تجبره على شئ. تركت صديقته طباعه كما هي، برغم انزعاجها اللحظي، لكنها استطاعت أن تنسيه الشعور بتحميله إياها عبء عيوبه.

وبعد أن تحولت بشرى بين الغرفة والحمام والصالة وطلت في النوافذ، بقي هو ساكنا على جنب. اختارت كرسي مكتبه لتجلس فيه، تأملها بكل حواسه، أدرك بأن ما حركته في دواخله كل تلك الأيام كان افتقادا ما، لم يكن سهلا عليه تحديده، أو ربما الاعتراف به. كان حاجة ماسة لتلك الإنسانة، تفجرت فجأة. رغبة رائعة متكررة بالبقاء إلى جانبها مدة أطول في كل مرة.

أدرك ما يقال، الحياة تستحق كل ما يعانيه الإنسان لقاء ساعات اشتعال وانفعال كهذه.

سحق عقب السيجارة في المنفضة بارتباك. تحرك تجاه مكتبه، وهو يشعر بأن حواسا جديدة تتوالد وتتوالد مع كل خطوة تجاهها.

... الأجمل عندما تنكر كل تلك الأحاسيس، ثم تطلقها دفعة واحدة.

قبل أن تغادر بشرى شبهت الشقة أيضا بغابة كثيفة ضرب بها بسكينه ليفتح لها دربا، فطفقا بالضحك.

مر به اثنان، وهما أول من انتبه إلى وجودهما طيلة مشواره ... سألاه إن كان الطريق آمنا، فأجاب دون أن يبطئ من خطوته... أجل.

سبقاه في خطواتهما التي تسارعت. ابتسم بسره. كان يريد التمهل قليلا الآن. كان يظن لأول وهلة بأنها من سكنة البصرة لسمرتها، نحولها، وصفرة سحنتها.

... **أجل... الطريق آمن.**

تنحنح وهو يبتسم.

****

بشرى لم تحاسبه يوما على ماضيه، كما اعتاد أن يسمع من الباقين، لتأخره أو سهره ليال متتالية مع الأصدقاء. تركته كما هو. كان هذا من الأمور التي تريحه، فهي لم تكن خانقة حال كل الزوجات، ولم تكثر من الكلام.

... **كذلك بمشاعرها.**

شعر بأنه متعلق الآن، بما لا يرضيها ربما. انه يتذكر تلك الخصال دون غيرها.

تريحه بإهمالها، انفعالها، خبثها. كذبها، غيرتها المرة، وكل ما فعلته بحياتها قبلا، إنها هي، الحقيقي الحي، الإنسان الذي يلمسه دون كل الزيف الذي حوله، بكل تكشفه.

... **تحاول أن تؤكد لي قوتها، اكتفاءها بذاتها.**

سلمها مسؤوليات البيت لأنه شعر بأنه لن يرضيها في ذلك الجانب مهما فعل.

... تحب الحركة، وأنا حسب رأيها أحب السكون.

... كأنها تود الإفلات من يومها، وكأنني أريد الإبقاء عليه.

...لم تستمت بمحاولة تغييري تماما شأن الزوجات.

... على العكس، فقد حرك في عدم اكتراثها مشاعر أبقتني في ربيع معها. قد تكون خلافاتنا كثيرة وشديدة، وقد نختلف لأيام. لكنها كانت تعود إثرها بنفس آخر وحيوية، وتفرد.

... أطلق خيالي، أتركها تشعرني بعد الصلح، باشتياق ورغبة عنيفة بي... تلبس ثوبا وتفل شعرا وتعد ما يسهل إعداده.

... هي لا تميل إلى الطهي كثيرا.

...تجلس لصقي لتشاركني كأسي... يبوح جسدها حينها، يفجر كل أحاسيسي بدنوها، وهي تحضنني تحرص على أن تكون أخرى، تدخلني عالما متخيلا... أرى فيها غير زوجتي... أرى الأخرى المشتهاة، الخيال، جديدة بأنفاسها وملمسها.

****

تنبه إلى ازدياد حركة المشاة في الشوارع، أرجأ موعد عودته إلى البيت. شعر بنشاطه. ربما استمده من لقائه بالناس. قرر أن يقضي يومه بالعد، بتعداد ما هو سالم، وحتى يحين موعد عودته في المساء إلى حي البكر. وقرر أن يرى دجلة أيضا.

في الطريق تنحني تلك الأعمدة الضخمة من الحديد كحلوى أذابتها حرارة لسان فاستجابت. استوقفه الحديد طويلا، وتلك الأعمدة الضخمة التي أخضعتها القنابل. ساحت، ماعت. انثنت على بعضها. هنا تكمن نقطة استجابتها.

... لكل مادة نقطة خضوع... تلبي بعدها.

هبط إلى أعماقه وهو يسحب نفسا آخر عميقا. تأمل انعكاسات ضوء الشمس المنسكب على سطح الماء. الغروب يأمر العالم بالتزام الصمت في هذه البقعة.نوبة سعال شديدة.

... دجلة ابتلعت الحبر، والآن الحديد. هل سيثقلون ماءك بالدم.

داس سيجارته بقدمه واقترب أكثر.

هيام

في اليوم الأول لإعلان بيان وقف إطلاق النار كانت هيام بحالة شديدة من الغضب إزاء غياب امها غير المبرر. لم تر في الأمر ما يستحق افتعال تلك الأزمات. صلاتها كانت طويلة، انطلقت بعدها لتقلب البيت رأسا على عقب لتنظيفه، غير مكترثة لتعليقات سالم. بل ان ما زاد من غضبها، هو لوم سالم، واتهامه المستمر لها بتخليها عنه والوقوف إلى جانب أمها.

حاولت إبعاد فكرة وقوفها على خشبة مسرح، قالت له بحيرة:

- سالم، قل ما يجب علي فعله وسأفعله، لم أعد أفهم ما يريحك.

- لاشيء يريحني هنا، لاشيء على الإطلاق، لن تفهمي حتى لو شرحت لك، كان خطأي منذ البداية.

وقف كلاهما جامدا في مكانه غاصا بكلماته. تحركت، ابتعدت قليلا بخطوات محسوبة، واستدارت لمواجهته تماما قائلة:

- ظننت أن من الإمكان تحسين وضعنا، لو فكرت فلا مشكلة على الإطلاق، اجتزنا جحيم الحرب بسلام، موضوع أمي...

قاطعها قبل أن تكمل، كان وكأنه يود لو يصرح بكل ما يعذبه مرة واحدة:

- ليس هو موضوع أمك، وأنت وأنا، ربما قد تحالفت الظروف فلم تكن في صالحنا، المشكلة هي شعوري بأني في المكان والزمان الخطأ، هذا ما يجعل مشكلتنا بلا حل.

لم يكملا الحوار. استدارت هيام. دخلت إلى المطبخ. انشغلت بأمور كثيرة. أثناء دورانها في المطبخ وانهماكها في التنظيف. فكرت في أن الأمر ليس كما تلقته أول وهلة، فقد كرر سالم كل هذا من قبل، انتهاء الحرب سيحل كل مشاكلهما بالتأكيد.

احتفظت بماء غسل قطع الملابس لمسح أرضية الغرفتين، ومن ثم المطبخ وعتبة الباب. تمنت لو تملك الآن خرطوم ماء قوي لتغسل به البيت وممر الحديقة وترش خضرتها والفسحة أمام البيت أيضا. لولا تدبيرهما هي امها لما تبقت قطرة ماء.

أنزلت الستائر وهي تكاد تختنق بكم التراب والسخام الذي امتصه القماش.

... ما قاله بالأمس كان نتيجة لتعبه طيلة هذه الفترة وقلقه.

لم تره، تنقلت بين الغرف والممرات والحديقة والسطح تود أن تنهي إعادة كل شئ وكما كان. فكرت بأن تنهي تنظيفها قبل أن تغيب الشمس لكي تنصرف إلى نفسها. تمنت لو كان هناك القليل من الماء لتستحم بعد كل هذه

الفترة التي قضتها بدون استحمام. لن يكفي الوقت لتصل إلى الفسحة بين الدرجين لتتم ترتيبها ونفض الغبار عنها.

إنها المشكلة. والعراك كان قائما دوما بسببها. الأم احتفظت على مر حياتها بكراكيب وبقايا، وكسر وفتافيت أشياء مختلفة من ملابس إلى أواني وأقداح وحتى مساند كراسي وجرائد ومجلات.

ولأنها تعرف جيدا ما يعني الاعتراض على ذلك، فقد اعتادت هيام أن ترتب وتنظم ما تأمرها به امها دون نقاش. لكن المشكلة كبرت عندما جاء سالم.

لم يستطع السكوت على تلال الصناديق القديمة وعلب الكارتون الورقية المحشوة عن آخرها.

لم ير فيها إلا مكانا لتجمع الحشرات والفئران والأرضة، ما زاد من حساسيته.

... سالم على حق في ذلك.

دارت عيناها بين الصناديق، وهي تقف على أعتاب طلعة السلم. تملكتها رغبة بالاعتراض دفعة واحدة على كل هذا. قد تكون المرة الأولى التي تعتريها، أن ترمي بكل تلك الأشياء خارجا.

... سأجبر أمي على قبول ذلك.

وبدون تردد بدأت ترمي محتويات الصناديق الواحد بعد الآخر. تملكتها حالة لنفض كل ما هو مخزون في هذا البيت القديم. تتحرك بعصبية. قامت بإنزال صورة خالها من على الجدار في غرفة امها. نفضت التراب وهي تنظر للصورة. أمسكت بها، قريبا من وجهها. تحبه، لكنها ضاقت بمكانه، معلقا على هذا الجدار. الصور التي علقت على جدران كل البيوت كانت مجرد ذكرى، إلا صورته فهي انتظار عنيد، لم تعد هناك جدوى منه. غيابه تركها وحيدة. بغيابه انهار بناء معوضا افتقدته في الطفولة. غيابه زرع بداخلها قلق لما سيأتي، حملها مسؤولية هذا البيت من بعده. هو حي أم ميت صار مجرد ورقة، لكنها كوصمة عار يلوحون بها. من سيطرق الباب هذه الليلة، وكيف ستبقي أمر الغياب سرا أمام الناس، من سيتقدم لخطبتها، من يوظفها. من يحميها هي وامها. كل ضابط أمن يحل محل السابق في قسم أمن المنطقة يأمر بفتح الملف من جديد.وفي كل مرة يتحقق مسعى، يكبر خوف، في كل بناء تقوم به يلوح انهيار.

أغلقت باب الغرفة كما لو انها فعلت ما كان يتوجب فعله منذ زمن.

****

في اليوم الثاني لم تملك إلا سؤال جيرانهم عن امها، وسائل الاتصال كانت معدومة جميعا.

الجيران استقبلوها بعد أن تحمدوا لها على سلامتها. طمأنوها. طلبوا منها التريث. لعل خالها يأتي بها بالغد. في هذه الحال ليس لها سواه.

غادرت دون أن تقتنع. عادت إلى البيت منزعجة. انتهاء حربهم هذه أزعجها كثيرا. حزينة جدا. بكت، لكنها كانت متعبة فنامت.

****

لم ينبس سالم بكلمة اثر حواره معها بالأمس. تناولا اللقمة صامتين، لم يمكن تسميته بطعام، لم تعتد هذا، أقبلت عليه بدون شهية. لو كانت أمها هنا لأصرت على إيقاد الحطبات المتبقية في الحديقة من أجل طبخ شئ ما يستمتعون بأكله. امها تقول لاشيء يشغل البني آدم، ويصرفه عن همومه مثل الأكل.

اعترفت بقرارة نفسها بأنها قلقة على امها، ولم يهدأ لها بال منذ الصباح. لم تنظر إليه لكنها كانت تشعر به وهو يأكل بعناية وكأنه يحصي عدد اللقمات التي يجب أن تنزل جوفه، واحدة، اثنتان، ثلاث، أربع.

... لا يعلم بأن ما يأكله قد انتهى تاريخ صلاحيته منذ ثلاثة أشهر. لو أعلمته بذلك ربما انقض علي، أو اختنق ومات.

معلبات اشترتها على دفعات، منها ما كان نافد المفعول حينها، ومنها ما قارب على الانتهاء. احتفظتا بكل شئ للضرورة. وهاهي اليوم تضطر إلى استخدام زيت الزيتون الخاص بشعرها.

... ما الذي سيشاركها فيه إن تحدثت معه؟

نظرت إليه بينما كانت تدير اللقمة في فمها. هل تطلب مساعدته، انه أمر انتبهت إليه مجددا، توقفت عن مضغها للقمة. تأملته مجددا، شعرت بتعب أيام طويلة معه، داهمتها موجة حزن ورثاء لنفسها، خلّفها غضب واشمئزاز لوضعها، لصبرها، لتبريراتها المتكررة ودفاعها المستمر عنه، لدفعها لكل ما يعتمل بداخلها جانبا.

دارت اللقمة بطيئا في فمها. لم تعد قادرة هذه اللحظة على النظر إليه كما اعتادت، حاولت ازدراد اللقمة بصعوبة. حدث أمر ما لن يعيد ذاك الصفاء لداخلها. سألت:

- ما العمل الآن؟

استلمت ردا سمعته قبل نطقه به . قال لها بأنها تعقد الأمور دوما:

- أمك ستكون أمامك في الغد.

نهض ليمسح فمه، ويكمل عمله.

****

ألحت على وفاء وبشرى مرافقتها لقارئة فنجان كانت تسكن بالقرب من جامع الكواز. تجرأت وتقدمتهم باختراقها الستارة التي أسدلت خلف الباب المفتوح. وعندما جلسن ثلاثتهن أمام المرأة التي كانت متشحة بالسواد، شعرت برعدة تسري بداخلها، خشيت أن تسمع شيئا وودت لو تتراجع، لكنها وجدت لوعتها بين يدي تلك المرأة فسلمتها الأمر. المرأة كانت تبدو عادية جدا.

عندما قامت بدور قارئة فنجان مرة على المسرح ارتدت ثيابا سودا وإكسسوارات غجر، وبالغت في مكياج عينيها لتظهر فراستها ودهاءها. حاولت أن تركز وتهمل أمر وفاء وبشرى. حاولت أن تكون على اتصال بحواسها عندما أمسكت المرأة بيدها. حدست المرأة منذ الوهلة الأولى بأن لا خط لشارب أو رائحة تذكر لرجل في فنجانها، كادت أن تبكي، هناك عقدة ما يجب أن تحل. لكن مهلا، هناك في الفنجان من يقدم خطوة ويرجع خطوة، لن يقترب إلا بعد حلها. ارتجفت الأم عندما أخبرتها. رددت في سرها ما تحركت به الشفتان. جعلت تعدد لها أسماء من يمتلكون عين حسود، بنات عمها، زوجة خالها وو.. شردت أثناء حديث أمها، ما الخلل؟

خطوته تتقدم وتتأخر، تخيلته، شعرت به، لمَ تأخر؟ كان هناك، ربما متربصا في الطريق إلى البيت، تبعها في سيارته ذات يوم، أو هو الذي ضغط على يدها في تلك الأمسية. أو مل الإنتظار في حفلة صديقة لم تحضرها.

امها تحاملت على نفسها ورافقتها مشوارها إلى تلك المرأة. كان الثمن الذي طلبته العرافة بسيطا ومعقولا لأنها تعرف الملاية وتجلها.

قالت:

- لن أستلم فلسا إلا من مهر ابنتك.

****

في صبيحة إعلان انتهاء الحرب عزمت هيام على التوجه إلى بيت خالها في الجمهورية، الجانب الآخر من المدينة. احتارت في تدبر أمر وصولها إلى هناك.

ولم يشأ سالم التحرك من مكانه في الفراش، ليرى ما يجري خارج غرفته.

همت بأن تنبهه إلى أن العمل في مؤسسات الدولة مازال قائما، وان غيابه عن عمله غير مبرر، لكنها تلكأت. أحجمت عن قول كلمة، فجأة لم يعد يهمها أمره. شعرت بأن المسافة ومنذ الأمس صارت شاسعة جدا بينها وبينه.

فتحت باب الخزانة، وعندما وقع نظرها على مفاتيح السيارة المركونة خطر بذهنها حل. ارتدت ملابسها دون النظر إليه.

فتحت باب المطبخ وعبرت بخطوتين إلى جيرانهم، سألت عن جارهم صالح الذي كان مختفيا فرارا من الخدمة العسكرية. استأذنت أبا صالح وأمه، وطلبت مساعدته في قيادة السيارة المركونة عند الباب للعثور على الأم.

لم يكن صالح قد اعتاد قيادة السيارات الأوتوماتيك. كان الشارع الفرعي خاليا تماما من أصوات البشر. أجمع الاثنان على أن سبب الهدوء هو الخوف الذي جعل الناس في حالة شك، حتى بعد سماعهم لكلمة الرئيس الأمريكي بوش معلنا فيها انتهاء الحرب. إضافة إلى تواتر أخبار الإذاعات التي تربك السماع.

راحت هيام تقرأ سورا، نزلت عليها حال وصولهما الشارع العام. وثبات السيارة وتعثرها جعلها تمسك بمقعدها. ولم يفهما ما يجري فقد واجهتهم أفواج من البشر انطلقت في الشوارع، ناس من العامة، جنود بزي عسكري، تركض، تصطدم ببعضها، تتلفت، تهتف بنغمة واحدة... ثورة... ثورة. كان كل حشد يخلف سحب دخان وحرائق مشتعلة تمتد على مد بصرها أينما دارت. لم تكن تستطيع تحديد مراكز انطلاق هذه الأفواج، فلم تكن جميعا على خط سير واحد. كان يتوجب على صالح تشغيل محرك السيارة ثانية بعد انطفائها. حثته على ذلك بعد أن توقفت السيارة بجانب جدارية ضخمة من الخشب المضغوط مثبتة بأعمدة حديدية في الأرض تحمل صورة للرئيس.

أخذ يلعن أجداده. ما لعمل سألت هيام، ولم يستطع صالح التكهن بشيء بادئ الأمر. أسراب من البشر كانت تتوزع في الشوارع لتعود تلتقي ثانية مكملة مسيرتها باتجاه ساحة سعد. وما لبثت أن غطتهما حشود مختلطة ببعض. أناس يتدفقون كمد طوفان باتجاههما ويمرون. الجموع تملك عصيا وبنادقا ومشاعلا ملتهبة مرفوعة لأعلى. مرت بها لوريات نقل عام ملأى بالبشر، تهتف هي الأخرى وتضرب على جوانب اللوري. توجهت جماعة من المتظاهرين لترفع سيارة حكومية على مقربة وتقلبها، لم تمض ثوان حتى شبت النار فيها. دارت برأسها إلى خلف وأمام... ما هذا الذي يجري... تابع الجزء الأكبر مسيرته بينما تخلف جزء آخر اتفق على الدخول في شارع فرعي صغير. انبثق سرب من شارع جانبي مقابل... تمهلوا، ثم عادوا وتوجهوا ثانية إليهما، حيث السيارة التي يقبعان فيها. شكت هيام في أن المجموعة ستقصدهما. ولم يكن الأمر مفهوما حين قفز حسين المطيرجي أمامها ودار تجاهها يطلب منها النزول وترك السيارة، وحيث استدار الثاني جهة صالح.

رفض صالح فتح باب السيارة. تملكه الغضب. وعندما ترجل أخيرا فقد كان بسبب نوبة جنون تملكته إزاء تهجم أحدهم... أمسك برقبة الرجل ينوي سحقه، اندفعت هيام لتفك قبضة صالح وتتوسل إلى حسين بأن يساعده. كان الحشد قد تداخل ببعضه ولم تعد تر "صالح"، في اللحظة التي أفرغ فيها

أحدهم مشط بندقية كاملا بالقرب من أذنها لفض النزاع. استهدف آخر ، وهو يزم شفتيه، رأس الرئيس في الجدارية أعلاها. ولم يتردد الآخرون بركوب السيارة مع حسين والانطلاق بها باتجاه الركب.

بحثت عن صالح وهي تصيح باسمه، لكنها ما لبثت أن تلقت دفعة قوية اختل توازنها بسببها، وخلال أجزاء من الثانية شعرت بجسم ثقيل يهوي على جانب رأسها يسقطها أرضا.

سالم

كاد أن يجن لأمر اختفائها طيلة نهار ذلك اليوم، عندما وصلته أخبار هذا التمرد المجنون. أحكم غلق الباب وبقي يذرع أرض البيت جيئة وذهابا بانتظار دخولها. بقي يشرب الماء، فقد أحس بجفاف غريب في حلقه. أخرج مقياس الحرارة من الدرج ليدسه في فمه، تأكد من انها طبيعية. إن كانت قد وصلت بيت خالها فلاشك بأن العودة صارت بعد ذلك مستحيلة، ولا بأس من الانتظار حتى المغرب. مد يده في الدلو وغرف القليل من الماء مرات عدة لينعش وجهه. تأمل بيجامته المتغضنة، لكنه تردد بشأن تغييرها.

الهدوء ساد المنطقة فجأة، كان قد بلغ شدته صباحا حال خروج هيام ودام ساعات بعدها.

... ما الذي يمكنني فعله ، الخروج أمر لا يخلو من المخاطرة ، لكن ما الذي سأفعله إن بقيت وحيدا هذا اليوم.

صدم بالأمر، لم يشأ العودة إلى البصرة عندما سمع إعلان الضم، لولا ضرورة تقيده بالدوام وارتعابه لفكرة فقدانه وظيفته. لم يسعفه عقله ليتبصر أموره فتركها لتسير كما هي، يسمع هذيان الجميع دون أن يفقه شيئا منه. زوج اخته وأخاه انشغلا عنه بالتفكير في حساباتهم في البنوك ورواحهم ومجيئهم بين الأردن والكويت. لا يعلم من سافر ومن عاد. الحرب إن دارت انما هي بالنسبة إليهما تحريك لسوق راكد.

عاد من بغداد بعد مضي يومين على إعلان الخبر. رأى قوافل الجيش في طريق عودته إلى البصرة وهي تسلك نفس الاتجاه وأخرى لتعبر بالاتجاه المعاكس. آمل أن يكون الموضوع محصورا عند حدود الدولتين ليأمن خطرها. تحسس بخاخه وكأنه شعر بالاختناق، أخرجه من جيبه ليتأمله. هذا النوع هو ما كان يبحث عنه ، كان جيدا جدا أن كلفت هيام دكتور سامي بالحصول عليه، وإلا لما أمكنه الحصول عليه من الصيدلية، لكنها لم تتصل به لتطلب أثنين آخرين. عودة لن ينسى متاعبها. رأسه يضرب بزجاج النافذة في السيارة التي اضطرت إلى التوقف بين الحين والآخر لاكتظاظ الطريق بين بغداد والبصرة بالسيارات المدنية والعسكرية على السواء. اضطروا للانتظار طويلا. القطارات محجوزة، والسبع ساعات التي توصله إلى البصرة صارت مضاعفة. والركاب الذين لا يشغلهم شاغل ينزلون بين الحين والآخر ليلقوا نظرة على ما يحدث في الصفوف الأمامية.

فعل خيرا بارتدائه لفانيلة قطنية إضافية تحت القميص في هذا الجو الحار ، إنها خير ما يحفظ البرودة في جسمه. زوج من الفانيلات كانت بقايا رصيده من سفره. انه ليتساءل ما العمل بعد تلفها.

خلع نظارته ليفركها بمنديله وينظر إلى العسكري الذي صعد الباص لأغراض التفتيش.

... مالذي أجبرني على العودة؟

****

عندما أنصتوا للتعليمات التي بثت عن الأسلحة الكيمياوية لم يفهم، لِمَ لم ترفق بتوزيع أقنعة ومعدات واقية أخرى، بل أن التعليمات لم تكن وافية.
وعندما استعانت أم هيام بجارهم لبناء النوافذ، حرص أن يشرف على ذلك.
طلب من هيام تهيئة أوعية كبيرة للماء في كل غرفة وخرق لتوضع إلى جانبها، وبقي طيلة فترة الهجوم مترصدا لحركة الهواء والأشجار في النهار.
لا يعلم هل يحمد ربه لما عاشه لحد الآن، أم إن الانقلاب سيأتي عليهم بكارثة.
ضايقه صمت هيام تلك الأيام، واختفاء ابتسامة رضاها. كانت جزء فارقا من معانيها. تنزوي أكثر الأحيان لتشغل نفسها بشيء ما. يصطادها وهي تتحدث لنفسها.
لا تدخل الغرفة إلا لتأخذ شيئا.

... تتجنبني.

سألها بتردد عن سبب نومها في الصالة. يتلكأ، يتأملها، مازالت تذهله بلا مبالاتها وهي تنضو عن جسدها ملابسها أمامه. تخطو أمامه خطوتين إلى الجانب متمهلة بعريها، تقلب ملابسها المصففة بعناية. تجيبه بهدوء وبدون أن

تحمل نبرة صوتها اهتمامها ذاك، ظهرها أمامه، وقد انحنت عارية لتلقي بالقطعة الصغيرة ولتستبدلها بأخرى التقطتها بخفة من الخزانة.

– بسبب أمي كما تعلم، في هذه الظروف لا يجب أن اتركها تنام وحيدة.

****

وكأن أمر أبحاثه وقراءاته لم يكن يعني كل حياته. تذكرها. ساعة جسمه البيولوجية تشير إلى وقت إبداعه، نعم في هذا الوقت ينحصر تركيزه في شئ واحد دونه العالم كله، ساعات تجليه وتوسع خلايا دماغه. هي في قمة سخائها الآن، يجب عليه ألا يهدرها بتلك الترهات. نظر حيث كتبه، يجب أن يترك ذلك القلق جانبا.

لكنه وحيد، وهذا الأمر يشغله. شعر بالجوع بمجرد أن خطرت الفكرة بباله، أطل من الشباك أعلى الباب. حتى المسافة بين باب المطبخ والباب الرئيسي بدت طويلة يصعب عليه قطعها. انه يفتقر تماما إلى المعلومات العسكرية. من أين له أن يتعلمها. لكنه لم يلم نفسه لذلك، بل مازال يحمد ربه لإعفائه من الخدمة العسكرية. دفع مقابلها مبلغا نقديا تدبره أبوه آنذاك.

لم يتوضح شيئ من خلال زجاج النافذة. انه يجهل الآن ما تريده السلطة وما يريده المعارضون، وما الذي سيفعله إن ضرب الباب فجأة. يجتاحه شعور

بالغربة والخوف، وحاجة ماسة لتينك المرأتين اللتين كانتا تشغلان الفراغ الكبير الذي يعيشه، وتلبيان احتياجاته.

هل كان واضحا في حواره الأخير معها، لم تفهمه وإلا لبدر منها رد فعل غير الذي واجهته به.

... لكنه طبعها، أن تبقي الحال كما هو قدر المستطاع. أن لا يكون هناك تصعيد في الأحداث بمنحى سيئ. هكذا تتصرف لكي تمسك بالأمور، انه رد فعل طبيعي، واجبها كزوجة.

انطلقت أصوات مدافع هاون قريبا من أذنه أرعبته.

انطرح على إسفنج التخت الخشبي في المربع الصغير بين الغرف.

...أية طبيعية في هذه الحياة المائجة، لم نصدق بأننا نجونا من خطر القصف وهانحن نقابل بانقلاب مضاعفاته أكثر خطرا بكثير. العالم انتقل في ثوراته، صناعية، تكنولوجية، معلوماتية ونحن...

... من سيتفهم تأخري ويغفر لي؟

... لكن كيف لو استمر الأمر وتعذر على هيام المجيء.

...وكيف سأتدبر أمر الأكل والشرب والدواء؟

استوى على الفراش. اطلاقات متواصلة قريبة وكأنها تنطلق من حديقة البيت.

هم أن يهم بفتح الباب بفعل لاإرادي ليرى ما يحدث، لكنه عاد وجلس على

الأرض بظل المصطبة. أصوات بشر تبتعد ومحرك سيارة ينطلق. لم يعثر على مذياع الأم، لم يعثر على الفانوس عندما داهمه الظلام.

تحسس الطريق إلى غرفته ليأتي بلحافه. لم يشأ النوم في الغرفة، كانت نوافذها تطل على الحديقة.

... ليت "هيام" لم تقم برفع الطابوق عن النوافذ... كانت متحرقة لقلب كل شئ في البيت.

... وكأن البيت قائم على أساس وجودها لا غير.

بقي متكورا على المصطبة متقززا من رائحة مراهم المفاصل التي كانت تستعملها الأم، كان الفراش مشبعا بها... أبعد رأسه عن الوسادة...خشي أن يكون في الفراش ما هو معد، فالحكة صارت تزعجه. لاشك بأنهم مجتمعون هناك، ناسون أمر هذا المسكين المتضور جوعا والغارق في الظلمة والخطر.

****

فز من نومه اثر سماعه اطلاقات لم تكن بذات القرب الذي سمعه ليلة البارحة. نظر إلى الساعة أعلى رأسه، إنها السابعة. ما الذي يستطيع فعله ريثما تأتي هيام. سيدخل المطبخ بعد ساعة. انفجار قريب قطع عليه تسلسل أفكاره. صرخ مرتاعا للصوت وانقذف دون أن يشعر تحت المصطبة،

لم يستطع جر أنفاسه لهلعه وللغبار الذي نزل كالمطر عليه. كانت أصوات رجال تتناهى إلى سمعه. راعه ذلك. سمعها بوضوح هذه المرة. رفع رأسه مصيخا السمع:

- أبو خليل، سلّم وإلك الأمان.

تكرر ذلك النداء واضحا. وكأن أحدهم يخاطبه. قام بحذر ليتفحص المكان حوله، حمد ربه. لم يكن أحد قد اقتحم المنزل. لعلهم في الجانب الآخر من المنطقة. هي سوء تقديراته وقلة خبرته. عدل من نظارته. تحرك عله يعثر على ماء هنا أو هناك.

تكرر الصوت واضحا.

- أبو خليل سلِّم وإليك الأمان.

أحنى رأسه قليلا وعبر الفسحة بين الغرف ركضا.

طرق باب المطبخ بقوة وتناهت له أصوات لم تمهله الفرصة ليفكر، فز مرتعبا وقفز قفزة واحدة لفتحه دون تفكير.

... حمدا لله.

هم جيرانهم، الحاجة وابنتها صديقة هيام... انزلقتا من الشق الصغير الذي فتحه بالباب. كانتا ترتجفان، وبعد أن استقرت أحوالهما قالتا بأنهما قد تسللتا للاطمئنان عليه بعد وقوع القذيفة في بيته.

لم يكن يعلم بأن القذيفة كانت قد أصابت جزءا كبيرا من السياج بين البيتين من الجهة اليسرى، هاله الموقف وتغضن وجهه معبرا عن ضيقه بكل ما يحدث.

– الحمد والشكر لك يا رب، التجول ممنوع والمقاومة تسيطر على كل الشوارع الذلفية في المنطقة، وقد نصبوا مدافع فوق بعض البيوت هنا، إنشاء الله تفض ونخلص، أنتَ لم تعد غريبا يا ابني، نحن وبيت أم هيام مثل الأهل، وإنشاء الله حسبة يومين بس، دبابتين للجيش تبركان عند بداية الشارع ونهايته.

– ربما ستكون على رؤوسنا، فقد توسطنا الطرفين.

أمسكت الحاجة بأعلى فتحة الثوب ووجهت دعاءها إلى الله لينصرهم على الظالم الكافر آمين.

جلستا بالصالة بينما بقي هو محتارا في أمره. لم يزل كل هذا غير مفهوم لديه، تذكر أنه مازال واقفا أمام المرأتين مرتديا بيجاما النوم... شبك يديه محاولا أن يغطي أكبر جزء من بيجامته.

كانتا ترجحان بقاء صالح وهيام في بيت خال هيام، سألته الحاجة وهي تهم بالتحرك، إن كان يحتاج إلى مساعدة، أخبرته وقد تذكرت فجأة بأن حسين المخبل أبو السجون، ابن أم حسين حشر نفسه وصار قائد بالمقاومة، ومقره

في جامع الكواز. ويقال بأنه ركب سيارة المحافظ المرسيدس السوداء بعد أن فر المحافظ وحمايته، عصب رأسه بشريط الله أكبر ودار يتمختر بسلاحه. استغفرت ربها مرة ثانية وهي تنود وتقول:

- الله يستر يا ابني، بيهة الفرج ، هيا يا ابنتي، هيا يا حياة.

شعر فجأة باستياء لفكرة مغادرتهم، فقد غمر روحه المنقبضة بعض الاطمئنان للغو المرأتين. وجد نفسه يطلب منهما البقاء قليلا، وإيضاح بعض الأمور فما زال غير مستوعب ما حدث، ومادام الاشتباك قد هدأ قليلا فقد فكر بأن يصرف أكبر وقت معهما بالحديث عن ما مر.

ربما لم يكن وصف الأم وافيا فانطلقت الابنة، وقد فسح لها المجال.

****

في 91/3/1 صباح إعلان وقف إطلاق النار على وجه التحديد استيقظ الجميع مبكرا، اثر أصوات مدفعية و اطلاقات نار ، تساءل الجميع مندهشا ... أهو تعبير آخر عن الفرح .. ربما، لكن في الثامنة والنصف صباحا، بعد خروج صالح مع هيام... كان الأمر تماما محيرا .. كنا قد عزمنا على الخروج لتفقد الأهل بعد الهدوء النسبي الذي أحسسناه ، لكننا اضطررنا لتأجيله لنصيحة جارنا الذي شك هو الآخر بما يجري، أنا شخصيا لم أع الحدث، لم

أستوعبه، تلاحم أصوات حقيقية وانطلاقها بعث في داخلي شعورا عميقا بالرهبة... التفاعل .. الحياة.

لم أشهد مظاهرة من قبل وما كنت أسمعه وأقرأ عنه كان مجرد كلمات مطبوعة جافة ميتة.. أرى إرادة لأول مرة ويا للانسان من مخلوق .. كيف أكد لي يأسي موهم ، يرفعني الأمل حتى أحسني بوزن ريشة .. أ معقول كل هذا ؟

قفزتُ فرحا .. قفزتُ مرة أخرى .. صرختُ .. شعرت بأني ضئيلة جدا والأصوات التي تأتي من الشارع ، من حيث الدخان المتصاعد ، الحرائق وألسنة النار المتوهجة، الفرقعات، اللوريات العابرة الملأى بالناس .. كل هذا يعود لأناس كبار جدا .. أحياء محتجين معارضين .

يا لغبائي وسوداويتي .. لا أستطيع أن أمسك بخيالاتي المتلاحقة .. صور من الخيال ، الأحلام. الأصوات كادت أن تدفع بي لأن أنطلق مع الحشود في الشوارع .. ندور بالبيت ، نصطدم ببعضنا .. تدنو الأصوات ونميز الكلمات .. ثورة ثورة.

قفزة أخرى لأتسلق بها درجات السلم وأكون فوق سطح الدار المكشوف على سطوح الناس الفرح يعانق الفرح ، الإحساس يلامس الإحساس .. أصوات صراخ وعويل وهلاهل متداخلة ببعضها .. أدور بالسطح لأجد

الزاوية الأقرب التي تمكنني من رؤية شئ ما .. آخرون يفعلون ما أفعل في سطوحهم .. آه .. أخيرا انتهى كل شئ

يد قوية تمسك ذراعي وتجرني.

هب أبي راكضا من فتحة الباب الحديدي للسطح .. ظننت أنه آت ليشاركني استكشافي وجنوني .. تقدم إلي .. وجهه يحمل الحذر كله.

سحبن على عجل ، جرني باتجاه الباب لنقف خلفه في صحن الدار،

– تخبلتي!!

أحاول جر ذراعي بقوة من قبضته.

ـ افلتني.

كيف للحذر أن يكون مستيقظا فيهم، كيف لا يغيب عنهم استحضاره ساعة الغصة. أنا كنت قد رأيت نهاية الدوامة التي نعيشها، أوشكت أن أحس اللحظة الفاصلة، دفعت بيده التي كانت تجر بي. تنقل بين النوافذ ، يرصد حركة الجيران من خلف الستائر.

أيهم خرج وأيهم خرس.

أحاول ألا أظهر قلقي لما حمل إلي حذره من احتمالات. ورغم الإحساس الذي هدر بداخلي بالخوف والخيبة قلت:

ـ سترى كيف تنتهي الأمور.

تهدأ أنفاسي .. أثقل بخيبتي ورعبي أن يكون أحد الجيران المخبرين قد تعرف علي.

****

وكأن "سالم" قد غاب عن وعيه لفترة، فعندما همت الحاجة وابنتها بالنهوض شعر بضيق مفاجئ في صدره، وصعوبة شديدة بالتنفس بدت واضحة لهما. تمهلت الحاجة لترى ما يمكنها فعله، ناولتاه البخاخ، وطلبت الحاجة منه الجلوس وهي تطمئنه بتلاوة أدعية وسور. بضعة أنصاف كلمات أو حروف كانت تفلت من بين شفتيها المزمومتين فتعيد وهي تدخل أذنيه، بعضا من هدوئه، وهو يحاول أن يفتح له ممرا ينفذ منه الهواء إلى رئتيه.

- سمعنا بالراديو عن حرق الآبار ويقال بأن الناس ستخنقها سحب الدخان التي ستغطي المكان.

أصابه الهلع لتعليق الحاجة، لم يفكر بهذا، طلب منهما التوضيح.

- هل سنموت اختناقا؟

- الله كريم، ادع أولا أن ننجو من هذه المحنة، آمين رب العالمين.

تريثت المرأة في مكانها، كأنها انتهت إلى قرار حازم لا رجعة فيه. أمرته بالنهوض لجمع ما يحتاج، لكي يبقى معهم ريثما تعود هيام. تفاجأ بطلبها

وكان الرفض أمرا مفروغا منه، لكنه وجد نفسه يماطل بجوابه ويتمنى إلحاحهما عليه.

قالت الحاجة حينئذ وهي تعيد لف فوطتها:

- إن كنت تود سماع ذلك من الحاج بلسانه، فسأبعثه لك حال وصولي ولا داعي للخجل فنحن أهلك وأنا الآن محل الملاية أم هيام الله يجيبها بالسلامة.

تحركت متقلبة في مشيتها، تردد يا الله وهي تتعكز على ابنتها. استدارت عند الباب باتجاهه قائلة:

- لكننا لن نتركك وحيدا هنا، قلبي ليس مطمئنا.

****

في الأيام التي قضاها في بيت الجيران كان أشد ما يضايقه هو وجوب التزامه بالجلوس ومشاركتهم الأكل والحديث. يفضل البقاء في غرفة صالح بعدما فرشت له. محاطا بكتبه وأوراقه، وبخاخه ونظاراته، ومحفظة أقلامه.

... **استثمار أمثل للوقت.**

لكن شدة القتال، أصوات المدفعية، ومحطات الإذاعة تجبره على الالتحاق بهم في غرفة المعيشة. وان شعر في بعض الأحيان بأنه يزج في أحاديث بعيدة عن اهتماماته.

الحاجة لم تنقطع عن ذكر أم هيام الخيرة وحسناتها، لم تنقطع عن دعواتها لها كي تعود إلى بيتها سالمة هي وابنتها وصالح. بركتهم في سلامتها إنشاء الله، وما انفكت تطمئنه عليهما وتطلب منه ألا يشغل باله بأمرهما.

حياة كانت تستعير الفانوس من أحدهم مستعدة كل مرة لسماع احتجاجات الجميع وانتقاداتهم. كان متعاطفا معها في مشروع تسليتها، بتدوين مذكراتها بين الحين والآخر، وكأنه مشروعها المستقبلي، تنظم له وقتا ومزاجا. يستمتع بمراقبتها وهي تتنقل في أرجاء البيت.

لم يفهم لم تمنى أن يمسك بخصلات شعرها لتنصرف إلى الكتابة دون عائق. تحمس لقراءة ما تكتب. فاجأته بنباهتها، وبدت له أكثر حضورا، حدة وحسما منها حين تزورهم في البيت لقتل الوقت مع هيام.

قادته ليطلع على مكتبة أبيها ويدلي أيضا بإعجابه بما تحويه. قال لها بأن المكتبة تعكس اهتماماته المتشعبة والتي ليس لها علاقة بمهنته.

أوراقها ترافقها أينما تحركت وكأنها اتخذت قرارها على أن يكون مصيرهما واحدا. تفهّم معزة تلك المذكرات، رغم انها لم تتعد أحلام يقظة رومانسية.

****

في 3/12/ 1991 ينفذ الوقود تماما والطعام تقريبا، نخشى هبوب الريح، تجمع السحب .مياه الأمطار سوداء ثقيلة، مخلوطة بالزيت، لزجة كأيامنا كقلوبنا، كستائرنا.

عندما تهدأ الأمور قليلا نهم بالتفكير بالأهل ، نحيّ فلانا في الجهة الأخرى من الشارع، ونميت آخرين في المواجهة .. نحزن لأنفسنا لتصور قلق البعيدين من أجلنا .. نضحك بحسرة.

نتحدث عن مدى المدفع الرشاش للمصفحة التي تبرك أمامنا في الشارع العام، وعن إمكانية اختراق قذائف المدفع القابع وراء بيتنا... عن تفجر هذه القنبلة بملامسة جسم، أو انفلاق أخرى بالهواء.

نصغي إلى الإذاعات المختلفة وعدد المدن المعارضة لحد الآن... خلف الباب قذائف آر بي جي.. تفرقع دبابات... أصرخ بمقدار خيبتي... حسين سطا على مخزن المشروبات الروحية، ويقال بأنه يوزع الخيرات يمينا ويسارا.

الحرب الثالثة... عشوائية بدأت ومازالت.

أي الأطراف تتخذ من البساتين القريبة مقرات قتال ؟

التراشق بين الأزقة ... الأوكار داخل حدائق بيوت مأهولة .. الراجمات فوق السطوح. استنفذنا كل الوسائل والأمكنة للاحتماء. من يجازف بمد رأسه يفجره قناص.

نخشى خيبتنا.

أنا أجلس عند عتبة السلم بقرب الفانوس، أبي هادئ مادام المذياع في حضنه، أمي تصلي، وسالم في غرفة صالح.

هيام

بُلِغَت بنبأ وفاة صالح ولم تحصل على إذن بالخروج من المستشفى. الطبيب الذي ضمد الجرح وضح لها بأن الأمر خارج عن السيطرة، فالحكم في المدينة صار مناصفة بين الدولة والمتظاهرين.

جلست على الفراش مذهولة لأعداد الجرحى القادمين، وكادت أن تنسى سبب تواجدها هنا، وما لبث أن نشب عراك بين طبيب وجريح من المتظاهرين. سدد مسدسه إلى رأس الطبيب، يأمره بمعالجة المتظاهرين، لا مرتدي لباس الجيش الشعبي ومن لف لفهم. الهلع يعود بها إلى الليلة التي

اهتز بها باب البيت ليلا وانفتح على مرأى تلك الوجوه الشرسة التي سحلت خالها. يتنامى حقد يجعلها تتمنى لو تركل بقدمها هذا المرمي أرضا. بل تمنت لو تنتزع بندقية أحدهم وتفرغها برأسه. الصداع يضعف من تركيزها فتعود لتضع رأسها على الأرض، لكنها كانت تقاوم، لم تنو أن يغيب مشهد واحد عنها. بعد ساعة من معاناة مع صداعها الحاد طوقت المستشفى وأعلن أحد المتظاهرين سيطرتهم على المدينة رغما عن صدام والأمريكان. لعلع صوت الرصاص في المستشفى فتساقطت بقايا زجاج من مواقعها في النوافذ. شظايا مازالت تملأ أرضية الردهات اثر القصف الجوي. انتشر مدنيون وأعلنوا بفرح هستيري وعيون لا تستقر بأن مخافر الشرطة والأمن ومقرات الجيش الشعبي قد أُحرقت بكاملها. جاء أحدهم بكيس من قماش خام قد ملئ بملفات أخذت من إحدى مراكز الأمن وأفرغه أمام الأطباء.

... **كيف يمكن للطبيب أن يكون حياديا دائما؟**

عزلت أكوام من الجرحى أمام أعين الأطباء، ولم يبن منهم وجه بسبب الدماء التي كانت تغطيهم.

****

غابت عن الوعي ثانية عندما أطلق الرصاص عن قرب ونقلت على اثرها إلى الطابق الثالث، حيث النزلاء القدامى بعيدون عن الأحداث. الطابق الثاني

أغلق بسبب حريق. صوت الانفجارات والتراشق بالرصاص لم ينقطع. بقايا ستائر مزينة بشظايا الحلفاء تنسدل على نوافذ الردهات الفارغة من الزجاج. اضطر الطبيب إلى حقنها بإبرة مهدئ للمرة الثانية.

في اليوم الثالث كان رجال الأمن هم من يمسك بزمام المستشفى. توسلت إلى أحد الذين وقفوا للحراسة بأن يوصلها إلى بيتهم، فأجابها بأن ذلك مستحيل الآن.

- التجول ممنوع، ومازالت هناك مراكز مقاومة.

تكاد أن تصرخ من شدة ألم رأسها.

الطبيب الذي يملك رخصة بالتنقل وعدها بأن يصل بيتهم متى سنح الظرف له. طلب منها أن تتماسك، هم مضطرون لتوفير الأبر المهدئة.

كان قد جمع عنها المعلومات التي قيدها في ملفها. تعاطفه مع حالتها ووضعها المنفر هنا، حمله على سؤال زميله، عما إذا كان يعرف أحدا بهذا الاسم.

أتى سامي مهرولا من الطابق الأرضي بمجرد سماعه للاسم، لتنهار هيام أمامه، وتبكي في حضنه.

قال لها هامسا وهو ينظر إلى رأسها المعصوب بلفافة بيضاء، يحاول تهدئتها:

- أيعقل أن تكوني من المنتفضين، ما الذي أتى بك إلينا؟

لم يكن تذكر شئ بالأمر السهل فقد غاب عن ذهنها الكثير. صداع أليم لا يدعها تركز على نقطة ما لإصابة رأسها. واليوم الذي تتذكر فيه أمها تنسى فيه سالم والذي حدث لصالح، وحين تتذكر الحادثة لا تستطيع فهم ملابساتها. لا يلوح بمخيلتها غير الوجوه المليئة بالغضب التي زحفت تجاهها، الدخان والناس المنطلقة من كل صوب.

****

نهار هذا اليوم شعرت وكأنها تعيش في مكان آخر. بحلقت في المرضى وقد تساءلوا عن موعد تقديم وجبة طعام. بدوا طاعنين في المرض والإقامة على هذه الأسّرة. ألقت بالشرشف جانبا ونزلت من سريرها. وقفت حافية في منتصف الردهة بالممر بين صفيهما. أمسكت برأسها بكلتي يديها، شعرت بصداع وزعيق، ومن ثم بفراغ تام. بدا الممر طويلا جدا، بلانهاية. حبلا من شوارع مجدولة. وعندما هرع إليها أحدهم كانت تشعر بأنها تودع أحدا ما.

الجزء الثالث

خالد

... سحقا لهم جميعا، ما يهمني هو الوصول إلى هناك.

سحق سيجارته بقدمه. كان يسير بمحاذاة ساحة الاحتفالات الكبرى. لم يبد الجو مطمئنا، برغم الشمس الدافئة التي تخللت عظامه. المفارز كانت تنتشر في كل مكان، والسؤال عن الهوية عند كل نقطة. احتار في وجهته. تكاد الطرق تخلو إلا من بعض المارة، وراكبي الدراجات. لثوان ظن بأن الناس تخشى النظر بوجوه بعضها.

... ما الذي أفعله هنا؟... أين مكاني بين كل هذا؟ ... ولم التردد؟

دار حوله وهو ينظر إلى الأقواس الضخمة والمدرجات والساحة المفتوحة الواسعة.

... في هذا المعبد الكبير لا نتعدى كوننا أعواد بخور.

****

ارتدى خالد البدلة العسكرية التي أعاروها إياه. برغم مقاسها الملائم له بدت واسعة. تناول القميص أولا، فتح أزراره محاولا أن يضع دماغه المتعب جانبا. كان عقله متوقفا تماما. رغم ذلك اقشعر جلده وهو يلامس خام القميص الملبد. الذي سيرافقه هو عقيد في منظومة أمن الحرس الجمهوري. أبدى استعدادا لأخيه بالمساعدة. في اللقاء الذي جمعهم، أجاب خالد عن أسئلته بوضوح كامل. كفاه تأخيرا. شعر باختناق وهو يودع أهله. كان الوقت لا يسمح بإظهار عاطفة ما.

لقد اضطر إلى الانتظار طويلا. الاتفاق قد جرى على أن يتم مساعدته في تدبير وسيلة نقل ما ليصل البصرة. وفي تلك الظروف، كان الجيش قطعيا هو الوسيلة الوحيدة للتحرك. وتطلب الأمر أن يكون بمرافقة العقيد ذاته، لضمان عدم تعرضه للاستجواب ووصوله إلى هناك. بعد إعلان وقف إطلاق النار، كانت الأوامر السرية قد صدرت بشأن الاستعداد للمهمة العسكرية الخاصة بقمع الانتفاضة في المحافظات الجنوبية. لم يكن معلوما متى. لم يستطع أن يحصل على تاريخ ما لتحركهم. كانوا ينتظرون أمرا بالتحرك في الأسبوع الأخير، ولكن الأوامر كانت تتبدل في غضون ساعات قليلة. كادت المهمة أن تتحول، لتكون وجهتهم أخرى، في غير اتجاه البصرة. ولم يكن متأكدا

أيضا من هدف توجههم الحالي ولم يتجرأ أخوه أو هو ليسألا. لم يستطع أن يحدد مشاعره حيال ذلك.

... البصرة، انطلاق الشرارة الأولى.

عاش خالد اضطرابا مريرا... تابع الأحداث من خلال الإذاعات، عدد المدن المعارضة بلغ ثلاث عشرة. هذا يزيد من تعقيد الأمور، ويبقيها معلقة. في لقائه مع العقيد لم يكشف له الكثير، لكنه أحس ارتباك الوضع واختلاطه على الجيش والاستخبارات. ذكر له صعوبة الحال مع انقطاع الاتصالات نتيجة الغارات، وصعوبة تحديد الخط الذي سيسلكونه.

ضرب بوق السيارة وآن أوان سفره أخيرا. رافق العقيد في سيارة الجيب الخاصة به وتصدر الأمام بجانب السائق، تتبعهم سيارات حماية.

فخذاه تتحسسان المقعد من تحته، يده اليمنى تتلمس مقبض الباب، وقمة رأسه كما لو أنها ستضرب السقف، يده اليسرى هامدة على فخذه الأيسر، أما ساقاه والتي شعر بثقلهما، فلم يستطع مدهما تماما. اصطدمتا بكتلة صلدة لم يمكن دفعها.

الأرتال العسكرية المنسحبة من الديوانية إلى بغداد تتحرك مرة أخرى باتجاه البصرة. سيتم الالتحاق بها.

الوجوه متجهمة والتعب باد عليها. التدخين مسموح. هو كل ما يحتاجه. لكن العرض كان سخيا جدا، حين قدم له السائق كأس عرق بقطعتي ثلج من براد صغير موضوع بالقرب من قدميه.

احتضنت يداه الكأس براحة وطبيعية.

... ها هو الكأس قد عاد، بعد فترة شح فيها ما يمكن شربه.

الحديث كان هادئا، عن الأهداف التي قصفت في أول طريق بغداد، والصواريخ والأسلحة التي استعملت في القصف الجوي. أذناه تتلقفان غرابة اللهجتين المختلفتين لكل من السائق والعقيد. وعندما كان يجيب على بعض الأسئلة، كان لسانه يتلجلج. خيل إليه بأنهم لن يفهموه. ربما اكتسب بمرور الزمن لهجة جنوبية، خلت تلك اللحظة من القوة والحق. اضطر إلى تضخيم صوته وبثه بروح، حاول أن تبدو أكثر تصميما أو ولاء.

الجو محمول... شعر بارتخاء بسيط بعد ساعتين من انطلاقهما.

... من قال بأن الجنة على الأرض.

... تضحك بشرى لهذا ... بذلت جهدا خارقا ومقاومة لتخلق من نفسها مخلوقة أخرى.

... وأنا، بشرى، سترينني. ما أنا عليه، سترين مقدار ما حاولت أن أغيره في، سأرضيك.

سيحلف لها كي تصدقه ... سيطلب غفرانها... يقبلها... يقبل الأطفال.

احتفظ بلحيته ما يقارب الشهر، لكنه اضطر إلى ازالتها أخيرا بعد اتفاقه مع العقيد. تحسس ذقنه بيده. خاب أمله بمفاجأتها بذلك.

...كانت ستصرخ وتوسع صدري وكتفي ضربا... حسنا ستكون المفاجأة بشكلها الآخر.

تهزه هزا عنيفا في الليل ليستيقظ. ترتجف بين يديه كعصفور مذعور، يجهل ما يعتريها، يضمها بشدة لتهدأ.

****

سئل عن رأيه بالبصرة فابتسم، انه حقا لم يفكر في أمر كهذا، فرغم نشأته، ونشأة بشرى بعيدا عن البصرة، لم يفكرا قط بالانتقال والاستقرار في مكان آخر. شعوره وكأنه جزء من المكان لم يخطر بباله إلا هذه الساعة.

... لكن السؤال الآن مختلف.

والعقيد ينتظر جوابا. أجاب بعد أن تنحنح:

- أتفكر في أمر التمرد الذي سمعنا عنه؟

- نعم ، أتعتقد بوجود شريحة كبيرة من الموالين لإيران والتي تحاول إشعال الحرب مرة أخرى؟

- ربما.

-وصلتنا إخباريات عن تحرك فرق من المهجرين والأسرى العراقيين من الشيعة الذين تم غسل أدمغتهم وإرسالهم.

حاول أن يعكس الموقف الذي وضع فيه، لكنه تورط فيما قاله:

- أتعتقد بوجود تنظيم مسبق وراء ذلك؟

- بكل تأكيد. لكنهم انتهوا.

جهد لكي يبدو طبيعيا بأسئلته وأجوبته. استعان قدر الإمكان بكأسه. لم يجد ما يقوله لتأتي كلماته بذات السياق المفروض.

التفت فجأة إلى صف نخيل محروق لم يبق منه إلا جذوعه... لعن الأمريكان بصوت عال وهو ينفث سيجارة قدمت له.

تلقى العقيد الكثير من الاتصالات التي أعطت خالد الفرصة كي يهدأ قليلا وليفكر. ازداد ارتباكا بمرور الوقت. حري به ألا يفكر الآن بشيء، ليركز على إنهاء مهمته مع المرافقين. لم يتوضح له الطريق الذي سلكوه بعد.

سأل عن حجم الخسائر بالأرواح جراء القصف، وكان الجواب حاضرا من العقيد، الذي كان لديه ما يشغله هذه اللحظة:

- لاشيء لقاء الخسائر المادية.

وبعد فترة صمت ظنها طويلة وصل صوته إلى أذني خالد باردا:

- وهؤلاء الأغبياء أكملوا تدمير ما لم يتمكن منه الحلفاء.

تراءى له بأن يشير إلى جهة ما قريبة.

تأمل زحف طوابير الشاحنات والباصات والناقلات وهي تعبر ببطء الجسور العائمة التي نصبت بديلا عاجلا للجسور المقصوفة. فكر في أن صمت العقيد هو الدخول في مناورة ذهنية أخرى عليه أن يتصدى لها. العقيد وباللحظة ذاتها علق وهو يبتسم:

- انظر إلى ما أنجزه الأولاد في غضون ساعات.

... الدمار قد تحقق بقصد متعمد واضح على يد الكثير من الأطراف، أولها النظام.

لا تكاد السيارة تقطع المئتي متر حتى يتوقف الرتل بأكمله، عدا عن التوقفات المفاجئة التي يترجل فيها العقيد ليلتقي بآخرين على مبعدة منهم، فيتباحثون في أمر ويعودون مرة أخرى. تلك التوقفات تربكه. لا يعرف ما الذي سيأتي ومتى ستنتهي هذه الرحلة. لكنه لا يستطيع التراجع أيضا. وكأن أحداثا مروعة تسير بخط مواز لخط سيرهم.

... كم سيدوم هذا المجهول؟

بدأت برودة الجو ومغيب الشمس ينشر التعب على الوجوه فقل الكلام تماما وازدادت حيرته. تقلصت فتحات العيون وتغضنت الجباه. يخشى أن يعيق طارئ ما وصوله الذي صار أمر احتماله غير ممكن.

****

دعت الأم في صلاتها هذا الفجر طويلا. اخته كانت تختلق الحجج لتتحدث معه. حاول أن يجاملهما لكنه لم يستطع. شعر بأنه أفصح عن الكثير مما يعتريه في الفترة الأخيرة.

بدأ انطلاقه مع الرجلين بروح مغايرة. الآن صارت أكثر توجسا. صار ينظر إلى كل حركة تصدر من يد السائق، وينصت إلى كل كلمة تدور بينهما. صبره ما لبث أن نفد.

طفلاه يضحكان لرؤيته، يناديان عليه، يتسابقان للوصول إلى حضنه، يحملهما بكلتي يديه، وهما يرفسان قدمي بعضهما.

استراحة للأكل لم يستطع فيها مضغ لقمته. انتظر انطلاقهم مرة أخرى.

قيل له من المتوقع دخول أطراف البصرة ليلا... واتفق على أن يتدبر هو مسألة وصوله إلى بيته، إن كان الأمر ممكنا.

وكأن العقيد ضحك لسذاجته، أجابه بعد صمت:

- نحن بانتظار أخبار القوات المتواجدة داخل البصرة.

****

ساعتان في الانتظار. ربما هو الطريق ما بين السماوة والناصرية. تحركوا من جديد. قيل أن الأمريكان على مبعدة أميال. بدأ العقيد بتحرير أوراق مروره من مكانه، بعد أن فتح معمله المتحرك إلى جانبه بحذر. أخرج ما فيه من أوراق لازمة وأختام وهو ينظر بين الحين والآخر إلى خالد. السائق يرفع رأسه وينظر مليا في المرآة أمامه. أخذت هذه العملية وقتا طويلا من العقيد ومن أعصابه. شك بأمر تلك العملية وتصورها كمينا منصوبا له. تصور الوقت الذي تطلبته المهمة مفتعلا ومقصودا. قال العقيد بعد فترة، بأن هذه الأوراق ستضمن له التحرك في كل الاتجاهات إن تطلب الأمر. نبرته خلت من مخاوفه فاطمأن قليلا.

طوى الورقة جيدا، حدد ثنيتها بأصابعه المرتجفة، ووضعها في جيب القميص، ومسده براحة يده.

سيأخذ حماما حين يصل، ليجلس قربها. خشي تخيلاته، سرت فيه رعدة لملمس كتفها الناعم. كان متعبا. تمنى أن يسترد نشاطه حال وصوله. فرك صدره، تخنقه ساعات الانتظار والمجهول. لكن التمني يشده لأن يضع صورهم اليومية المعتادة أمامه... سلامتهم، عراك الأطفال فيما بينهم، صراخها معهما.

يستحضر وجهها الحقيقي، يدرك توزعها واضطرابها.

... لفترات، يصير وجهها قناعا.

لا تفصل أحيانا في التعامل بينه وبين المحيطين به. وجهها الحقيقي يحمل مزيجا حارا لتفاعلها مع ما حولها، للمرارة التي عاشتها، لفرحها بما تملك، لطموحها الذي لم يستطع أن يجاريها فيه فتركه لها .

عندما يلقي بأسئلته في ليالي الصلح يسهر فضوله مثل انفعاله إذ يبلغا الذروة عندما تقص له عن أول تجاربها.

... تتعمد إثارتي بصراحتها.

... تنتزع مني أقصى الشفقة تارة، أقصى الغرور تارة، وأسوأ حالات التوتر مرات.

****

العقيد يعطيه، على ندرة ما يتفوه به، انطباعا بأن الطريق لن ينتهي، والمفاجآت مازالت متوقعة في كل لحظة. لم يشأ تصديق إحساسه، انه لا يفقه من الأمر شيئا، وما كل هذا إلا من منبع قلقه. الاتصالات تربكه، وحدة الاستكشاف التي تتقدم الرتل، كما فهم، قد أكدت سير الأمور كما يجب.

لكنه اضطر إلى السؤال مرة أخرى. ادعى الحمق والغباء، عندما عادوا إلى التوقف والترجل من سياراتهم بشكل يدعو إلى الاستغراب.

السائق الذي بدا غير مبال تماما بما يجري أو بدا كموظف قديم يجلس خلف مكتبه، أجابه بأن مناوشات خفيفة حدثت بين المصفحة الأمامية، ومجموعة من الفارين.

... من أكون أنا، ومن يكونون هم؟

من يكون هو ومن يكونون، شعر بنذالته وقد أمسكت بوجهه وواجهته. وكأنه وعى حقيقة الأمر لأول مرة

... فارون، غوغائيون، مدسوسون.

... لكن ماذا لو تمكن الطرف الآخر منهم. سأكون على حساب من في تلك الحال؟ الكل يعلم من اختير لاقتحام الكويت، وأي الفرق في طريقها الآن لقمع الانتفاضة.

... هل سيتفهمون موقفي؟

... سيغيب المنطق ساعتها، وستمزق أربا.

شعر بنفسه يجمع الحجج، ويسلسلها للجمع الذي مثل أمامه. جمهرة من الأساتذة الذين كان يسهر معهم، طلبة الماجستير، طلبة تخرجوا وآخرون من مختلف المراحل الدراسية، جيران ومعارف وأناس لم يتعرف عليهم حضروا لمحاكمته.

لم يشعر إلا والسائق يضربه على كتفه:

- لا تقلق يا رجل، مالك تنود كعجوز. ستصل وما هي إلا ساعات حتى تكون بحضنها.

****

الضوء الأبيض ينكسر لدى مروره بوسط يختلف كثافة. يعطي الأحمر، البرتقالي، الأزرق...

... ما أن تمرره عبر موشور حتى ترى انعكاس نفسك.

كان هذا أول اجتهاده في كشف سر جوهرته التي كانت تأسره بألوانها وهو طفل.

قبل ساعة من بلوغهم الهدف خبره العقيد بعد المكالمة التي لم يفك رموزها بأن الأمر صار بأيديهم الآن.

- لم يبق إلا بضعة جيوب مقاومة لن يصعب القضاء عليها.

العقيد يتحدث بلهجة ومنطق العشيرة عن أخواله وأبناء أخواله، بسب فئة، وبمدح الأخرى، كل حسب دوره الذي قام به في هذه الأزمة ومقدار ما كوفئ به. والأدوار توزعت بالطبع حسب حساسيتها، أهميتها، وخطورتها.

... في أي صف عدني؟

... بل أجب أنت، في أي صف تعد نفسك الآن؟

التعب يضعفه. لم يعد يهمه أمر.

****

-كفاك ترفعا، لست مستثنى!

يحتقر منطق "فلاح" هذا.

...هل تقر بأنك لم تمسسه الآن؟ رمزك، هل بإمكانك تحسسه، هل بقي ثابتا في مكانه؟

ما الذي يحاول الالتفاف حوله إذن، ألم ير في فلاح انسانا ضئيلا يحاول ألا يحتقره، ألم يحتقر تمسحه، وتلونه، وولاءه الذي يبيعه لهذا وذاك. يدخل عنصر المفاجأة كلسان يتدلى من وجهه الآخر الصفيق ليسخر منه. وذاك الذي يرزح ضميره تحت ثقله هو زمن البطولات، زمن ولى ومات.

... ما أنت إلا واحد من هذا الجمع.

... حياتك سلسة من امتحانات، مجبر على الاستمرار فيها، سواء اجتزتها أم فشلت.

... عامل القوة و القدرة وحده هو الذي يحدد نوع حياتك، قيمتها بالنسبة إليك.

عندما ألح عليه فلاح حينها في مسألة تلك الطالبة التي كان يصادقها، رفض تلبية طلبه. امتلأ غرورا، كانت فرصته ليثبت له بأنهما مختلفان.

- كل شئ قابل للحوار.

منطق فلاح الذي دفع بها يومها إلى غرفته، وأوقفها أمامه ليضعه تحت الاختبار. ما الذي فعله... سحب دفترها بهدوء من بين دفاتر المكملين، وهو يحاول أن يجد ما يقوله ليبدد حرجها ربما.

... **ابتسامتها أكدت لك تناقضك مع نفسك.**

طلب منها الجلوس، قدم لها دفترها مع ممحاة وقلم ليمليها الإجابة الصحيحة.

...**أنت تختار المواقف الأكثر تناقضا وتظليلا.**

ظهره تيبس ولم يعد يقو على الإتيان بحركة. ليس لديه ما يقوله. ومد يده أيضا وطلب سيجارة أخرى من السائق، أشعلها بيد مرتجفة.

****

بقي مقطب الجبين حتى ترجل من السيارة وسط الظلمة في منطقة بدت له مكشوفة تماما. محرك السيارة كان يهدر وسط صمت المكان. استدار ليصافح العقيد بحرارة، متمنيا له عودا سالما. أكد له العقيد بضحكة رخوة استعداده للمساعدة ثانية.أعطي له وصف المفرزة التي يجب عليه التوجه إليها. عاد ليسلم ثانية على السائق الذي ناوله علبة سجائر جديدة وهو يضحك. خب في بدلته العسكرية، تحركت قدماه بصعوبة بعد ساعات من جلسته المتقرفصة داخل السيارة. هدت صدره هجمة سعال.لفحته ريح جافة

باردة أحنت قامته قليلا. ود لو يسير طويلا لوحده ريثما يصل إلى بيته هناك، لهفة، أوتعجلا لرؤيتهم، أم هو تخلص من الجو الذي عاش فيه أكثر من اثنتي عشرة ساعة في السيارة العسكرية.

****

أضواء لكشافات مثبتة بالأرض توضحت على مبعدة منه. تقدم مرتبكا أزاء استعداد العسكر لتطويقه. أبرز أوراقه دون أن ينبس بكلمة، وأكد أحدهم مشروعيتها بعدما تلقى مكالمة بهذا الصدد. اقتيد نحو سيارة عسكرية تقف على ناصية شارع ترابي عرفه من إشارات فسفورية صغيرة ثبتت على جانبيه. الظلام في غير هذه البقعة يحيطه، ولم يكن عنده وقت كاف لأن يلقي نظرة على السماء. حاول التعرف على المكان الذي عبروه بالسيارة دون جدوى. الظلام يضيعه. السائق صامت. قال في سره بأن ذلك أفضل بكثير من الأخذ والرد في أحاديث، قد تعرضه لإشكاليات هو في غنى عنها الآن. لكنها الرائحة التي نفذت إلى خياشيمه، جعلته يشعر بأنهم بمكان ما حول الجامعة، بالتحديد في الهارثة، هذه الرائحة الثقيلة للبساتين يمكن تمييزها، مكان عمله، رواحه ومجيئه يوميا. ثلث الساعة أو نصفها ويصل مشارف ساحة سعد.

****

توجه إليه السائق بالحديث فجأة، وبلهجة غاضبة، وهو يضغط على كابح السيارة بشكل فجائي:

- وصلنا، انتبه لئلا تتعثر باحدى الجثث!

فتح الباب بيد راجفة.. قفز إلى الأرض. لم ينتظر السائق سماع كلمة شكر منه. لفت السيارة وانطلقت بسرعة جنونية. المكان مظلم، اجتاز مفرزتين عسكريتين أمام محطة البنزين، أوقفه عسكري وسأله عن وجهته:

- إسكان الأساتذة.

- إسرع، ممنوع التجول.

لم يشعر بالمدينة تستقبله، لم يكن الظلام يخفي إلا هياكل بناء. تخيل اصطدامه بأجسام لينة فاقشعر بدنه. لم يعرف لماذا انتابته نوبة بكاء خضت صدره بقوة. صمت يشي برائحة موت كثيفة ودم نافر للتو. ركض عابرا استدارة ساحة سعد باتجاه الحي. زايلته نوبة البكاء. ترك دموعه تهمي.

المكان مكشوف وبصره حين دخل الحي التقى بالسماء التي انكشف نورها قليلا. يعلم بأن محطات الكهرباء لا تعمل، ولذا فالإنارة معدومة في المنزل الذي تمكن بالكاد من رؤيته عن بعد. القمر كان محجوبا خلف سحابة كبيرة جدا.، طرق الباب بقوة، تحسس جيوبه ليعثر على مفاتيحه، تذكر نسيانها... صاح بأعلى صوته "بشرى".

بيت د. أسعد على مسافة يسيرة. تحامل على نفسه ريثما بلغه. طرق الباب مرتين. استجاب صوت من داخل البيت. جلس في الصالة. بدا الارتباك على كل من أسعد وزوجته. سيجارته ترتجف بين أصابعه، وبعد أن توالت أسئلته دون جواب شعر بتسارع خفقان قلبه. فرك صدره. حاول أن يهدأ من جيشان مشاعره ومخاوفه. يجب ألا يستبق الأحداث. انخرطت الزوجة بالبكاء وهي تقول:

–بشرى أصيبت بشظية في اليوم الأخير من القصف الجوي، نقلت إلى المستشفى.

– الطفلان ؟

– هما نائمان في الغرفة.

****

أغلق خالد باب الغرفة عليه، والغرفة لم تزل تحتفظ بعتمة بشرى.

... بدأت أشك في أن إحساسي بانتهاء حياتي سببه غيابك، أو إحساسي بذنبي.

... أين بقاياي لألمها كي أوسعها ألما. تآكل كل ما يجعلني واقفا، وصار الخواء هو ما يدعم قامتي. أشعر باني اطلقتك حرة. مازلت حية ينبض قلبك بعنف. أعجب بقوتك، فأنت تلوين ذراع الموت. يصير

المكان الذي تحلين به حيا مشعا يسطع بحضورك، بينما أغرق في شحوب الوجوه والأشياء من حولي.

****

بين كل هؤلاء الموتى الكهلة، يرقد شباب هذه المرأة حارا في قبر لا يشبه كل القبور.

... أنزلها حيث تمنت يوما أن تنزل.

...في مقبرة الزبير القصية جدا...في قلب الصحراء، كي تشعر بالأمان.

... لكنك ستصيرين وحيدة.

... أحقا بردت موتا؟

... أية قسوة نكافئ بها بعد لأي.

... أي حياة كان يتوجب علي أن أمنحك، لتقبلين بهذه النهاية مستكينة.

... لو أوقظك الآن لتسمعين، محقة أنت في كل ما أردت، محقة في كل ما اعترضت عليه، أي قوة تريك مالا نراه.

... بودي لو أقول لهذا الرجل المسن مهلا وهو يهيل التراب... لكنني ساكن.

... لو تبعثين.

... أعجب كيف أسلمك للتراب.

****

أغلق باب البيت بهدوء. انطلق إلى بغداد بسيارته مع الطفلين بعد أن تدبروا له أمر البنزين.

حياته صارت مجرد ذكرى حسابات خاطئة وخطوات غبية.

سيجمع الثنيات بمتاهاتها، يلملمها بسخافاتها، يجر معها أسئلة الذين مروا، الذين يشبهونه، والذين لا يشبهونه.

سالم

سالم الذي شكر الجيران على حسن ضيافتهم، تنفس الصعداء لانتهاء الأزمة. ورغم مرور اليوم الأول بعد قمع الانتفاضة حسب ما ظن بحسابه، فقد أمهل هيام يوما آخر لتظهر. سمع من جيران جيرانهم بأن المعارضة مازالت تقاوم في الكثير من المناطق. والغريب، انه برغم ذلك يتم السماح بالتجول في المدينة.

****

في الصباح التالي طرق الباب بقوة. من أعلى زجاج الباب لمح سيارة "البيك أب" التي يملكها الخال وقامته وهو يفتح الباب الحديدي، أطل بإمعان فرأى الأم أيضا.

فاجاته بسؤالها:

- أين هيام؟

التبست عليه مشاعره.

****

عندما وصل سالم إلى المستشفى كانت هيام نائمة على السرير، تقدم منها مرتجفا، عدل من نظارته، رفع يدها وحضنها بين يديه وهو متكئ على حافة السرير.

نصحه الطبيب بنقلها إلى بغداد بأسرع وقت ممكن:

-ربما تكون هناك عناية أوفر. إمكانية المستشفى هنا ليست لمعالجة حالة كحالتها.

لم يملكوا إلا الانتظار لحين التمكن من السفر، فالطرق لم تسلك بعد.

قضت الأم أيام العزاء في بيت أبي صالح. تمكنوا من إقامة عزاء للرجال فقط، بسبب التشديدات الأمنية التي فرضت بعد الانتفاضة. ولم تذكر حادثة موت

صالح مخافة اعتباره من المعارضين، بل أعلن عن استشهاده اثر انسحاب الجيش واختلاط الأمور وضياع الهويات.

توزع سالم بين هيام وشؤونه التي لم يمسك بشيء منها. جزعه بلغ حدا كبيرا.

****

لازمت حياة هيام.

كان يتأملها خلسة. اعترف لنفسه بفضوله الذي كان يجبره على البقاء قريبا من تينك الفتاتين.

وكأنها تحدثها عن مشاهد تعرفها. تجلس بجانبها على السرير، تقرأ لها بصوت عال، علها تشحذ الذاكرة التي تعطلت.

يتأملهما سالم محتارا، يائسا ومنصتا.

في 91/3/33 تنفرج أزمة انتفاضة العشرة أيام بخيبة كبرى، بفشل مدروس وقمع منظم.

تبدأ أزمة كبرى أخرى. حملات تفتيش ، نقاط سيطرة ، مراكز خصصت للتحقيق ومحاكم فورية . إرهاب ذو طابع آخر أعمق تأثيرا.

متهمون ننتظر براءتنا. لم نفكر كثيرا بعودة التيار الكهربائي ولازلنا نحفر الحفرة بعد نضوب الأولى من أجل الماء. تتقلص الحياة برغباتها ومتطلباتها إلى القليل فالأقل.

رائحة الحطب عالقة فينا .. ألفناها بشعرنا، بحنايا البيت وبالهواء الذي نستنشقه.

الترشيد أجدناه أيضا بالقلق والانفعال. نتفقد الأهل بزيارات سريعة .

عند باب الدار يوصينا الجار بأن نلازم بيتنا ونحكم غلق الأبواب.

هناك مسلحات تفتيش أخرى في طريقها إلينا اليوم. لا يصدق المرء بأن جزءا من وظيفة المسلحات هو السرقة بتبريرات مختلفة. أجهزة كهربائية، أثاث، سيارات. الحكومة تسرق مرة أخرى بأسلوب مختلف.

نحن خونة، بلا أصل، وساحة سعد الملأى بالشهداء "بالخونة المرميين للكلاب" تشهد بذلك.

في 3/14 في الليل حبيبة يغمر انتظارها الظلمة، أم تفز لتفتح الباب لوهم، أب يصطحب ابنه في عبوره إلى إيران. وجنود فارة معارضة تريد الاحتماء بأحد، تبحث دون جدوى عن الحلفاء.

حسين أعدم، أم حسين ونجاة اختفتا تماما.

سمعنا عن معسكرات لجوء مفتوحة على حواف المدينة.

هل تسمعين؟

طائرات الحلفاء مازالت تحوم.

مدافع الجيش الضخمة مازالت تضرب.

هاونات المعارضة مازالت تسمع من بعيد.

كأننا على حواف رمال متحركة.

3/66

أول يوم في رمضان...

4/5

أعلن رسميا القضاء على أعمال الشغب في جميع مدن العراق.

عيد الفطر وجدراننا مصبوغة بسواد مياه الأمطار، ستائرنا رماد . تعيدنا المسلحات صباحا في حملات تفتيشها واعداماتها.

اخشى أن أكتب.

****

يتأملها وهي تشاهد الهدم والدمار في الطريق بهدوء. الحل الوحيد الذي توصل إليه وأمكنه تنفيذه، يبعدها ويبتعد عن المكان. التفت إليها مرة أخرى. كانت تجلس إلى جانب أمها في المقعد الخلفي.

يداها مجتمعتان في حضنها. بابتسامتها تنقل له فراغها التام منه.

****

في بغداد، أقام سالم في بيت أخيه وزوجته.

تابع مواعيدها مع الأطباء بانتظام. لم ير استجابة ما تذكر. في الأسبوعين الأوليين بدت فتاة طيعة، تتحرك بطريقة غريبة جدا عليه. يحتدم فيه عطف غريب تجاهها، يزيده انكسار الأم، التي كانت ترى في مرض ابنتها نهايتها.

****

شهران، أيام وليال كاملة، انقضت وهو في دوامة الأطباء والمراجعات والعيادات. وجد نفسه مثقلا بمسؤوليات لم يقو على حملها. دخل في تفاصيل معيشته وضرورياتها لأول مرة. وجد نفسه مسؤولا عن امرأتين الأولى لا تفقه شيئا مما حولها، والثانية تتحرك بإمرته بخرس.

تنبه إلى حاله أخيرا. تحول عطفه إلى رغبة قاتلة بالتخلص من كل قيوده التي وثقوه بها. لم يتمكن إلا من تصور الأمر برمته أشبه بلعبة أو شرك نصب إليه. ويجب أن يأخذ حذره منه ، نعم يجب ألا يقع في حبالهم، يجب أن يقاوم.

ابتعد تماما طيلة ساعات النهار، ونام ليله كي يفكر بصفاء وبدون مؤثر.

****

ما هي إلا خطوة تحسم بعدها كل إشكالياته، ما هي إلا فرصة أخيرة إن لم يغتنمها فسيقضي على حياته.

حين مر بهم خال هيام في إحدى سفراته للاطمئنان عليهم، نظرت الأم بتردد إلى سالم، وهي تهم بقول ما فكرت به:

- أنا قررت العودة يا ابني. لا يمكنني تحمل أفضال أهلك بإقامتي هنا أكثر. الله يعطيك العافية وتحل محلي باهتمامك بهيام لحين شفائها.

بقي سالم جامدا في مكانه دون أن ينبس بكلمة. اختمرت الفكرة في رأسه. تأكد من استحالة إيجاد حل بديل لها. الأم استمرت في شرح حالها لأخيها، كان ما قالته الأم قدحا للفكرة، ود أن يقفز من مكانه، لم يشك للحظة بعد تصريح أم هيام في قراره. الأم مازالت تصف للأخ حال هيام.

لم يشأ طلب مشورة أو نصح بشأن ذلك. ولم يستدع كلمة تروي هذه المرة. رافق الخال عندما نهض من مكانه في طريقه إلى الباب، وفي الممر الطويل طلب منه الاختلاء به من أجل أمر هام.

أفصح عن فكرته دفعة واحدة، والخال بدوره لم يتردد بالموافقة عليها.

****

مشى طريقه دون توقف، كان التوقف يعني تأخيرا له، كان ولاشك خطأ فادحا هذا الذي ارتكبه بعودته من الخارج، والذي تممه بزواجه. فقد سلامه مع نفسه وصحته منذ يوم وصوله، ولولا الكفالة التي تعهد بها أخوه، وإلحاحه، لما فكر البتة بوجوب عودته.

زعق بإذنه منبه سيارة وهو يعبر الشارع، جفل، تراجع واكمل المسير.

العدالة في أن تختار وتكون مسؤولا عن خيارك... العدالة سأحققها أنا هذه المرة لأنصف نفسي. هل كان عدلا أن ينال فلاح فرصة ليست من حقه.

... دكتوراه في خطب ومقالات السيد الرئيس.

أخرج منديله ومسح به عرق وجهه ورقبته. أشار بيده لتاكسي.

... وهؤلاء البشر مدينون لي بتفهمي واحترام قراري.

شعر بارتخاء وهو يجلس في المقعد الخلفي، سأله السائق:

- إلى أين؟

...إلى مكاني.

وكأنه سمع السائق يسأل ثانية:

- وهيام؟

...هيام... هيام ستكون في رعاية أهلها.

-والى متى؟

وفاء

طريق العودة متعب مزحوم بشتى الأفكار.

عمان تشعر المرء بالربيع الحقيقي بعد برد أوروبا. خيل لوفاء بأن الناس ترى ما يحمله وجهاهما.

في الطريق إلى طريبيل. الأخبار وصلتهم على دفعات عن الداخل، عند المطار، في التاكسي ، عند الساحة الهاشمية. إذن الحركة عادت كسابق عهدها، وكل شئ سيكون على ما يرام. المرور ببغداد والطريق الخارجي، التوقفات للأكل، البنزين، والمفارز واستدارت الطرق الجديدة التي فتحت بعد

القصف. طريق متعب أرهق الطفلة فنامت بحضن امها. ولم يقاوم فلاح عناء رحلتهم المتواصلة منذ أكثر من عشر ساعات. مال برأسه على جانبه الأيمن وغفا.

تقدمهم مهرولا في المطارات، ودوائر العرق تكبر تحت إبطيه، وأذيال قميصه قد برزت من فوق بنطلونه. تتابعه ببصرها وهي تقاوم إحساس طاغ بالشفقة عليه. شخيره يعلو.

****

هم على مشارف البصرة. الظلام لم يتح لها رؤية الكثير، ورغم هذا اطمأنت.

... **الخراب على حاله، لم يزدد خرابا**.

ساحة سعد، إشارتها الفارقة بين الداخل والخارج عندما كانت طفلة. الوصول إلى هذه النقطة كان يعني استقلال سيارة من كراج بغداد، والسفر بعيدا.

النقطة الأبعد ساحة سعد. هي العودة والوصول. عين ترسل أشعة متفاوتة الأطوال، أشعة خطرة. شعاع يضيق باتجاه صفوان، وآخر يلتف كأفعى إلى الفاو، وأقصر منه يتسع ويتفرع إلى مركز المدينة. والأطول يمضي باتجاه بغداد.

****

عندما أمر السائق بالتوقف عند باب بيتهم، استقبلهم جار بعيد مهرولا، طالبا منهم التمهل قبل إنزال الحقائب. لم يفهم فلاح تماما، واستمر ماشيا نحو الباب.

– دكتور فلاح، انتظر، بيتكم قد صودر، أبدلت أقفاله.

تسمر فلاح في مكانه.

****

أنزلت الحقائب عند باب أهل وفاء واستقبلوا بالأحضان. الوجوه كانت تحمل انطباعا عاديا أثار استغراب وفاء.

– أريد أن أسمع بالتفصيل ما حصل بالنسبة للبيت.

سأل فلاح "سامي" بانفعال زاد من انفعال وفاء.

– كتب أحدهم عنك تقريرا، يؤكد فيه تقديمك لطلب اللجوء هناك. وأكده بعدم حضورك بعد انتهاء مدة البعثة، وسلسلة من الاتهامات من هنا وهناك وتواقيع شهود.

– لم تكن هناك وسيلة للعودة، كنا حجزنا بطاقات للسفر حال فتح الحدود، المطار مقفل، كل ما تجاوزناه لا يتعدى شهرين.

– أخوك حاول من جانبه. عرفنا بأن ما جاء بالتقرير خطير جدا، لا أعرف هذا كل ما أمكنني التوصل إليه. كما أن هذه الحالة صارت معروفة في الفترة الأخيرة.

امتقع وجه فلاح وتيبست شفتاه، نهض ليبحث عن حقيبته اليدوية الجلدية التي دفنت بين الأغراض، ولما لم يجدها صاح بوفاء لتبحث له عنها. قذفت إليه بعلبة السجائر من مكانها حيث الأغراض.

– أنا أعلم من هم وراء كل هذا، كانوا يحيكون لي الدسائس فترة غيابي لكنهم وشرفي لن يستطيعوا النيل مني ، انتظر لتر.

يده ترتجف وهي تتحرك في الهواء. تحدث بانفعال. انفجرت وفاء بوجهه.

– هذا ما جنيته من دهائك ، لنر كيف ستخلص منها هذه المرة، هؤلاء الذين تسهر معهم لياليك هناك.

حاول سامي تهدئة الأمور، لكنه ما لبث أن ضاق بصوت فلاح العالي وردوده الخشنة. نظر إليه نظرة استخفاف وهو ينهض من مكانه ليغادر:

– ادع ربك أن ننجو جميعا منها، تصبحون على خير.

شعرت وفاء بارتعاد أوصال فلاح ولمحت اصفرار وجهه. هزهم ما سمعوه من سامي.

****

أختها تنوي ترك الجامعة، توسلت الأم بوفاء كي تحاول اقناعها بالعدول عن رأيها. وأخوها لا يكف عن السهر برغم خطورة الوضع. التجمعات تعني السجن أو الإعدام، دون سؤال أو محاكمة. ممنوع أن يقف اثنان في الشارع ويتحدثان. سامي لم يفتح عيادته بعد، يقول عندما تهدأ الأمور ويهدأ هو، لكن وضعه المادي ومسؤوليته اتجاههم...

سألت عن بشرى دون جواب. هدأت الأمور. دارت بالبيت، بين الغرف. لم تعلم ما الذي يجب أن تفعله، لم تستوعب كل شئ بعد. طلبت من أختها مرافقتها لفض الحقائب.

لم ترغب بأن تقوم بدور الأخت الكبرى. كانت تفكر وهي تنظر لأختها بالأسباب التي دعتها إلى اتخاذ قرار ترك الدراسة.

... قرار جدي لا يشبهها.

- لم لم تقصي شعرك هناك، تصبغيه بصالون انكليزي؟ لم يتغير فيك شيء، عدتِ لي بذات التنورة السوداء والتيشرت... وهذا الوجه الناشف.

لن تتمكن من قول ما تود أن تقول، ولا تود أن تسترجع دورها ذاك، تمنت أن تضحك كما كانت تضحك، لكنها لم تستطع.

- حبيبتي، عريس عنده فلوس سيختصر الطريق، لم التفكير... أما زلت متخلفة، كلاسيك...

وضحكت ضحكتها.

****

قالت ربما ستتصل بهيام، ففيها من الضيق ما يجعلها تشعر بحاجة للقاء إحدى الصديقات.

- إنها في بغداد.

- والدوام

- لا أدري

التهى الجميع بحديثهم عن الأيام التي مروا بها. انسجمت بعض الشيء. رجعت بذاكرتها بصوت عال إلى كل ما مر بها.

****

الحركة وصراخ الأطفال في الخارج مستمر برغم حلول الظلام، همت بأن تنادي على طفلتها، لكنها شعرت بضيق، تركتها ودخلت.

والحرارة محصورة داخل جدران هذا البيت، بلا منفذ.

دخلت لتبلل وجهها ومقدمة شعرها، تلبثت قليلا وهي تنظر في المرآة الصدئة في الحمام. عادت وأقفلت الباب بإحكام، دنت من المرآة ثانية. نظرت إلى وجهها بتمعن. احتارت أتفرد أساريره أم تحزنه. جمعت شتاتها. خرجت من

الحمام محمرة الوجه، مبلولة الشعر والملابس. رجت أمها بأن تنادي على طفلتها فقد حان وقت نومها.

****

الوقت متأخر جدا. صوت محرك السيارة أعلن عن وصول فلاح. عاد بحال أسوأ مما غادر به. سأل عن وفاء عند مدخل البيت، ولما لم يجدها أمامه، صاح بأعلى صوته ينادي باسمها. دخلت الصالة بهدوء لترى سبب ضجته ولتحتج عليها. كان ثملا، ولما همت بقول كلمة صرخ بها:

- لا تتحفيني بمواعظك، دعيها جانبا واحزمي الحقائب، يجب أن نغادر.

- ما الذي تقوله.

- ما سمعتيه، سنغادر إن لم يكن الآن، فغدا صباحا.

- هل جننت، ما الذي حصل، ألم تر العميد، ألم...

- يا عميد يا عقيد يا بطيخ، إذا لم يكن إعداما فسجنا في مالا يعلم أين.

- انه ظلم!

- ظلم نعم، لكن من سيشفع لي، وكأن الأمور ترتبت منذ اليوم الأول لسفري، هيا احزمي أغراضك

- لكن

ترنح في وقفته أمامها، استطالت الكلمات وهي تخرج من فمه:

– ما الذي تنتظرينه هنا، أهلك يجب تخليصهم من ورطتنا بالابتعاد حالا، بشرى راحت والبقية بحياتك، وهيام بنصف عقل، ما تبقى هو أنا، ألا يشغلك أمري، سآخذ ابنتي معي.

دخل أخوه. خطورة الأمر تجلت في تعابير وجهه. تقرب منها ليشد من عزيمتها ويطمئنها، ثم توجه مباشرة إلى فلاح وأخبره بما تمكن من تدبيره، قبل أن يغادر على عجل. كانت الأمور قد زادت عن الحد في مفاجأتها فلم تستطع حصر حقيقة رد فعلها.

فلاح الذي رفض النوم، وبقي وحيدا في الحديقة يشرب الكأس بعد الآخر، كان مصدر قلقها. لم تستطع التحرك من مكانها في الصالة، بينما ذهب الجميع إلى فراشهم.

****

باب الصالة مشرع لصوت اهتزاز الأرجوحة الحديدية القديمة. ظلت ترصده من مكانها على التخت. كان الصرير يهدهده فبقيت قدمه تدفع الأرض بحركة منتظمة وإيقاع ثابت. لم تنبس شفته حرفا. الساعة تجاوزت الثانية، معدتها خاوية، أحست بصمته وهو يتجمع في معدتها فيزيد من حرقتها، نهضت محتارة في أمرها.

وجدت خطواتها تقودها إلى باب الصالة، توجهت إليه، نزلت الدرجتين دون أن يشعر بها حتى صارت أمامه، بلل الثيل الندي قدميها الحافيتين. بقي دون حراك. تناولت القدح منه لتضعه على الأرض. سحبت ذراعيه تساعده على النهوض.

وكأن الكون أفرغ من هوائه، فلم تجد ما تستنشقه.

لم يكن بالإمكان تشغيل مبردة الهواء لعدم صعود الماء إلى الطابق العلوي هذه الليلة. ولم تحرك المروحة إلا هواءا جافا ساخنا. خلعت عنها لباس العصر. تحررت من مشد الصدر أولا، ثم استبدلت الثوب بآخر للنوم.

تركت اختها الغرفة لهما شأن الليلة الفائتة. عاد فلاح من الحمام متوكئا على الجدران، تدلى حزام بنطلونه المفتوح. لم يكمل فتح أزرار قميصه، نظراته مصوبة تجاهها، رمى بثقله على السرير. كانت قد أفسحت له مكانا، لكنه فاجأها باقترابه منها. نظرت إلى الطفلة النائمة أرضا بجانب السرير. زحف في الفراش ليحضنها بين ذراعيه بقوة. لم تستطع الإفلات منه.

... لكن بشرى تدخل من باب الغرفة مفلولة الشعر.

ألقى بثقل جسده الحار عليها فصر السرير تحتهما.

... بشرى بابتسامتها تلك تقول شيئا.

راح يدور سريعا بشفتيه على الوجه والشعر والرقبة، لم تبعده، تزيح بوجهه لتراها مقبلة اتجاه السرير ببطء، عبث بخصلات الشعر وهو يشدها بقوة. لم يعطها الاثنان فرصة. حرارة الجسدين تلسعها، ينزل بثوبها عن الكتفين بعصبية، الكفان تتقلصان وهما يتحركان ويمسحان بباطنهما ظهرها.

بشرى تغيب... تظهر لتتابع ما يجري.

غاصت الأسنان في لحم الزند، عضة مسعورة تنبت بقوة على تكور الكتف الأيسر، أنفاس كانت تفوح بالخمرة والسجائر، ووجه يترك دبقا وملحا على النهدين. تلصق جسدها به بقوة، يهصرها، تدفن وجهها في رقبته، تدفع بجذعها ليلتصق تماما به. شد شعر رأسها بكلتي يديه بعنف، أدار وجهها يمينا ثم يسارا، سحق الخدين بيدين ممتلئتين، انقطع خيط رفيع من لعابه منتصف الطريق إلى فمها، ضغط على الفكين بشدة، ونزلت يد إلى الرقبة. يتداخل الجسدان ويلتحمان. يدان تطوقان الرقبة، وإبهام اليد اليمنى يداعب غضروف البلعوم، يكاد أن يضغط أكثر على الحنجرة. تسعل اختناقا، تفتح فمها لتلتقط حبة هواء، لكن اليد الأخرى تتقلص لتلم فمها وتغلقه. لا حراك. جسم حاد يتخلل عنوة كل فتحات الجسد، الأذن، الفم، الإبط، الظهر، البطن. يهتز الجسد بعنف، تختنق، تُفلِت قبضة اليد بكلتي يديها لتلتقط نفسا.

بشرى تهم بالخروج.

اشتعال آخر يبدأ. يتمزق ما تبقى على الجسد، تمضي معه، وهو يرفعها تتطاير ألسنة نار من الجسدين. يشب حريقا، تتفتح الرغبة الكاملة بالاستسلام، استزادة للألم، تخترقها يدان حارقتان جارحتان فيسقطان، يسحقان بعضهما، يختنقان، تعض شفتيه بقوة، تلثمها لتسكت نحيبه، مفتوحة العينين.

****

هي التي ظنت بأنها خلقت كي تزرع في المسافات بين البيت والبيت في البصرة. هذه المسافات التي تستطيع تخمين طولها بالكيلومترات وأجزاء الساعة. لم تحدق كثيرا في الطريق البري وهما يغادران. لم تعتد ممارسة هواية الاكتشاف منذ صغرها، الشوارع تمر بها كما هي منذ أن ولدت، بلا علامات فارقة، أو مناظر تجتذبها، وكأن كل علامات المكان ذاتها، أو ربما تبدلت بين حين وآخر لكن بأشباه لها. المتغيرات لا تبدو ملفتة للنظر في تلك المدينة.

كان الوقت ظهرا. وداع الأخ مأساويا. لم تمهلهم الشمس لحظات أخرى، ليمسحا بأعينهما المكان. الطريق إلى عمان مجددا. فتشت عن إحساس معين كي تظهره فلم تستطع.

تحركت السيارة التي استأجروها دون تردد. وكأن السائق كان يعلم.

... لا خيار ولن تجدي دقائق أخرى.

...وأنا التي اعتدت النظر دوما للخلف.

... قبلا كنا نخترق قلب بغداد... ذاك الوازع... قلق الغربة برغم المتعة، بغداد التيه والغواية، انتظار العودة إلى البيت. البيت، البصرة المتسامحة القنوعة، عندما تغلق الباب على الأمان والطيبة، وحيث من تعرف، وهناك تكون أنت بما تعلم وما تجهل.

حاولت جهد إمكانها أن تبدو عكرة المزاج حزينة كي ينصرف هو إلى حزنه.

... أقاوم هزءا جديدا. أسئ التوقيت. وبمقدار ما تلبسني من شر وكره، شعرت بقلقي وهو يتزايد عليه. بدا بحالة لم أتوقعها، كان مذعورا يكاد أن يجهش بالبكاء كلما نظر لي، بدا أقل نشاطا وهو يتحرك، وكأن داء قد أصابه فجأة فتهدلت تفاصيل الوجه وبانت غضونه.

...أظن بأنني كنت أخرى أمامه، ذاك الصباح الذي استيقظنا فيه على تنفيذ القرار. شرعت بلم الحقائب مرة أخرى. لم تكن معظم رحلات هذه الحقائب كما الأفلام، كانت مغامرات وأمورا ملتبسة.

ها أنا أبتعد في رؤيتي للأشياء... الملابس لم تفقد ثنياتها، أرجعتها كما كانت بسهولة وصففتها في أمكنتها. كان يحوم حولي، مستعذبا صمتي، خشي أن يدنسه بكلمة.

... عند عودتنا، قبل اقترابنا من ساحة سعد، وحين لفتني ظلمة المكان، تناوشتني هواجس غريبة أضاعتني في بحثي عن دليل أماني... وأنا في منتصف المسافة التي نبت فيها..

... السيارة تباطأت لتقول لي ... انك هنا، في المكان الذي جئت منه، في الحلم. اللون الحائل للظلام، وصوت المدينة المخنوق إلا من فقاعات هواء تنفقئ حامضة على سطح الشوارع والبيوت بين لحظة وأخرى. وعندما انحدرت السيارة المثقلة بأمتعتنا عند مدخل الجامعة واستدارت إلى حينا، أحسست للحظة، وكأن في قوة تخيلتها تدفع بالاتجاه المعاكس. وتعبت من مقاومة ساقي وضغط قدمي، السيارة كانت تدفع من قبل جسم ما، ثقيل يطاردنا، ويأخذني رغما عني إلى حيث لا أريد.

أبتسمُ سخرية في سري. فلاح يخشى أن تعكر الكلمات مزاجي فأتراجع عن قراري، عجبت من أمري، اعترتني رغبة بالضحك عاليا. يحوم ليتأكد من قراري وفعلي.

... فعلي نعم. أنا إنسانة فعلية، لي ذات فاعلة، الفعل... أضغط على كل حرف وأنا أردد تلك الكلمة... من الكلمة انبثق القرار. قرار اتخذته بمحض إرادتي. جديد علي.

... أنا الملهوفة لكي أعود دوما إلى مكاني، إلى البصرة إلى بيتي، إلى بيت أهلي إلى أنفاس أمي وروح أبي.

... ليس الخطر الذي أحدق بنا وحاصرنا مدعاة سفري ثانية.

... ليس فلاح.

... ليس الحزن لفقداني صورتها القريبة دوما مني، ليست بشرى الذي أدمى موتها قلبي، ولا هيام.

... ليس لأني أبقى، مهما حاولت، يد من جسد، جسد ممتد يحمل أكثر من رأس، ينظر بأكثر من اتجاه.

...عادل !

... كان أمرا آخر لعله كان يناور كي أغفل عنه، أو لعلني كنت أتغافل عنه كلما باغتني... أمر يعجبني تشبيهه ويعجبني تأمله وتخيله... صغير غريب محير وكأنه يعدني، يلاعبني. يكبر بالتدريج، يتوضح. عملاق جرئ، يرفع عني غطائي، يسامرني، يطمئن علي، يطمئنني لكي أتلمسه، وأسميه ليصير شرعيا.

أثق به... كأنه بيتي.

... هل سأعتاد فكرة بعد المسافات بيني وبين ساحة سعد.

... صار بيتي في داخلي.

إنتهت